

مقرر

تاريخ أوروبا في العصور الوسطى

أستاذ المادة

د. عمرو عبد العزيز منير

الإجابة في الاختبارات تعتمد على

فهمك أولا - الكتاب ثانيا

المحاضرات ثالثا - رأيك الشخصي رابعا

الاختبار قد يأتي موضوعيا أو مقالييا أو كلاهما

لا تدع قلمك يسبق فكرك

الفصل الأول

تمهيد

مجتمعات العصور الوسطى
بداية العصور الوسطى
نهاية العصور الوسطى
المراحل الرئيسية وخصائص كل منها

إن الدارس للتاريخ يلاحظ أن عالم العصور الوسطى قد اشتمل على ثلاثة مجتمعات كبيرة هي - حسب ظهورها التاريخي - المجتمع البيزنطي الذي ورث الجانب الشرقي من أملاك الامبراطورية الرومانية والمجتمع الأوروبي الذي عاش على أراضي الجانب الغربي للامبراطورية الرومانية، والمجتمع الإسلامي الذي بدأ من شبه جزيرة العرب ثم ما لبث أن احتوى أملاك الدولة الفارسية وجانباً كبيراً من أملاك الامبراطورية الرومانية هو الشام وآسيا الصغرى والشمال الإفريقي من مصر حتى المحيط الأطلسي وأسبانيا وغير ذلك في آسيا وإفريقيا.

والمجتمع الأول وهو البيزنطي قد اتخذ من الديانة المسيحية ديناً له شأنه في ذلك شأن المجتمع الأوروبي، ولكنه اختلف عن المجتمع الأوروبي في اتخاذ المذهب الأرثوذكسي مذهباً مسيحياً رسمياً لدولته. وقد اتخذ هذا المجتمع من مدينة القسطنطينية عاصمة له ليحكم الأراضي التابعة له التي تضمنت شعوباً مختلفة، منها ما هو آسيوي أو إفريقي أو سلافي وغير ذلك من الشعوب التي كانت تتحرك في شمال أوروبا وغرب آسيا. والملاحظ هنا أن أملاك الامبراطورية البيزنطية قد تقلصت مع الزمان ولكن عاصمتها وهي القسطنطينية ظلت باقية طالما بقيت الامبراطورية البيزنطية.

أما المجتمع الثاني وهو المجتمع الأوروبي فقد اشتمل على العناصر

إن الدارس للتاريخ يلاحظ أن عالم العصور الوسطى قد اشتمل على ثلاثة مجتمعات كبيرة هي - حسب ظهورها التاريخي - المجتمع البيزنطي الذي ورث الجانب الشرقي من أملاك الامبراطورية الرومانية والمجتمع الأوروبي الذي عاش على أراضي الجانب الغربي للامبراطورية الرومانية، والمجتمع الإسلامي الذي بدأ من شبه جزيرة العرب ثم ما لبث أن احتوى أملاك الدولة الفارسية وجانباً كبيراً من أملاك الامبراطورية الرومانية هو الشام وآسيا الصغرى والشمال الإفريقي من مصر حتى المحيط الأطلسي وإسبانيا وغير ذلك في آسيا وإفريقيا.

والمجتمع الأول وهو البيزنطي قد اتخذ من الديانة المسيحية ديناً له شأنه في ذلك شأن المجتمع الأوروبي، ولكنه اختلف عن المجتمع الأوروبي في اتخاذ المذهب الأرثوذكسي مذهباً مسيحياً رسمياً لدولته. وقد اتخذ هذا المجتمع من مدينة القسطنطينية عاصمة له ليحكم الأراضي التابعة له التي تضمنت شعوباً مختلفة، منها ما هو آسيوي أو إفريقي أو سلافي وغير ذلك من الشعوب التي كانت تتحرك في شمال أوروبا وغرب آسيا. والملاحظ هنا أن أملاك الامبراطورية البيزنطية قد تقلصت مع الزمان ولكن عاصمتها وهي القسطنطينية ظلت باقية طالما بقيت الامبراطورية البيزنطية.

أما المجتمع الثاني وهو المجتمع الأوروبي فقد اشتمل على العناصر

الرومانية بعد انهيار الامبراطورية الرومانية، هذا بالإضافة إلى العناصر التي وُلدت إليه على شكل هجرات أو غزوات وهو ما يعرف في التاريخ باسم الغزوات الجرمانية. وقد حملت هذه العناصر معها حضارتها التي اختلطت بالحضارة الرومانية وظهر مجتمع جديد كان في بداية الأمر يعتنق غالبيته الديانة المسيحية على المذهب الأريوسي، ثم ما لبث أن تخلص من الأريوسية واتخذ المذهب الكاثوليكي. وإذا كانت مدينة روما ظلت مركزاً لهذا المجتمع في مطلع العصور الوسطى من الناحية السياسية والروحية فإن هذا المركز قد تلاشى في مراحل لاحقة واتصر على السيادة الروحية فقط لتواجد المركز الأبوي بها.

وفيما يتعلق بالمجتمع الثالث وهو المجتمع الإسلامي الذي بدأ بظهور الإسلام، فقد أصبح له دولته المتميزة سياسياً وحضارياً لقيامها على مفهوم إسلامي مستمد من شريعتها. وإن كان هذا المجتمع قد بدأ صغيراً مع الدعوة المحمدية فإنه ما لبث أن انتشر سريعاً وساد أقاليم شاسعة لما بعته الدعوة المحمدية في الشعوب المعاصرة.

وما يعيننا في هذه الدراسة هو المجتمع الأوروبي في غرب أوروبا. وواقع الأمر أن العصور الوسطى ليست عصوراً منفصلة عن العصور القديمة أو العصور الحديثة فهي مرحلة من مراحل التاريخ الطويلة يصعب تحديد بدايتها أو نهايتها بحادثة محددة مثل تولية ملك أو أميراطور أو معركة عسكرية لها أهميتها. ومن المتفق عليه أن التطور التاريخي يسير في حركة غير ملموسة تكون مدخلاً لعصر آخر له أبعاده السياسية والحضارية التي تميزه عن مرحلة سابقة وأخرى لاحقة.

وإذا كانت العصور الوسطى تتوسط التاريخ القديم والحديث وهي فترة امتدت أكثر من عشر قرون، فليس معنى ذلك أن هذه المرحلة قد سارت على وتيرة واحدة في الجوانب السياسية والحضارية، فقد اختلفت هذه الجوانب من مرحلة إلى مرحلة ومن منطقة إلى أخرى. بمعنى أن ما

ساد العصور الوسطى من نظم قد اختلف عنه في نهايتها، وما ظهر من حضارة في إيطاليا في فترة ما يختلف عما ظهر من حضارة في إنجلترا في الفترة ذاتها. وعلى ذلك يتضح أن لكل مرحلة من مراحل العصور الوسطى خصائصها المتميزة عن غيرها مع شيء من التجاوز.

ولما كان لكل مرحلة من مراحل التاريخ الوسيط ما يميزها عن غيرها، فمن هنا أطلق بعض المؤرخين عبارة العصور الوسطى المطلقة على المرحلة الأولى من العصور الوسطى لما سادها من حروب وغزوات وهرطقات دينية. ولكن هذا المفهوم قد تغير بعد قيام المؤرخين المحدثين بالبحوث التاريخية عن هذه المرحلة وما تلاها من مراحل، وهي البحوث التي أوضحت الجوانب الإيجابية لفترة العصور الوسطى بأكملها وأظهرت الجوانب الحضارية التي سادت مجتمع أوروبا في العصور الوسطى، وهي الحضارة التي ارتكزت عليها العصور الحديثة في أوروبا وفي العالم أجمع.

وعلى أية حال فالمدخل الطبيعي لدراسة العصور الوسطى هو تحديد بدايتها ونهايتها، وهو أمر صعب دار حوله جدل كثير واجتهد كل باحث في إيضاح وجهة نظره حول بداية ونهاية العصور الوسطى. وما يسطر على الصفحات التالية عرض لأهم الآراء حول بداية ونهاية العصر الوسيط، وقد حاولت إدماجها في وحدات متجانسة أو إلى أسباب متشابهة حتى يتيسر فهمها بسهولة.

أولاً: آراء تدور حول أعمال بعض الأباطرة:

يرى البعض اختيار عصر الامبراطور دقلديانوس Dicoletian (٢٨٤ - ٣٠٥م) ليكون مدخلاً للتاريخ الوسيط. ويرجع ذلك إلى أن الامبراطور دقلديانوس حاول إعادة تنظيم الامبراطورية على أسس إدارية اختلفت كثيراً عن الأنظمة التي سادت الامبراطورية من قبل، كما أنه ترك مدينة روما عاصمة الامبراطورية واستقر في آسيا الصغرى واتخذ من مدينة

نيقوميديا Nicomedia منراً ل هذا بالإضافة إلى مرقته المعادي نلدبانه المسيحية وما لاقاه المسيحيون في عصره من اضطهاد حتى عرف عصره بعصر الشهداء وأصبح عام ٢٨٤م وهو العام الذي يبدأ به حكمه بداية للتاريخ القبطي في مصر. ولما كانت المسيحية قد اعترف بها بعد نهاية حكم دقلديانوس بفترة قصيرة، ولما كانت المسيحية أيضاً من معالم المصور الوسطى، فمن هنا كانت وجهة نظر هؤلاء المؤرخين تبدو مقبولة ومعقولة.

ويتخذ البعض عصر الامبراطور قسطنطين الأول Constantine I (٣٠٥-٣٣٧م) مدخلاً للمصور الوسطى، لأن قسطنطين تمكن من القضاء على الحرب الأهلية داخل الامبراطورية وأصبح حاكماً لا مناص له، كما صاحب عهده تغييرات جذرية في مجالات متعددة. ومن هذه التغييرات الاعتراف بالديانة المسيحية كدين في الدولة إلى جانب الوثنية عندما صدر مرسوم ميلان Edict of Milan عام ٣١٣م. هذا بالإضافة إلى بناء مدينة القسطنطينية واتخاذها عاصمة للامبراطورية، ثم إصلاحاته المتعددة في الجوانب التشريعية والعسكرية والإدارية.

وتشير مجموعة أخرى من المؤرخين إلى الامبراطور جستينيان Justinian (٥٢٧-٥٦٥م)، على اعتبار أن عهده يفصل بين القديم والوسيط. ويعللون وجهة نظرهم بالأعمال الكبيرة التي قام بها هذا الامبراطور في الداخل والخارج، ومن ذلك ما قدمه لنا من تشريعات ظلت باقية لفترة طويلة من الزمن، وما صاحب عصره من حركة معمارية ظل بعضها إلى يومنا هذا، هذا بالإضافة إلى ما قام به من محاولات عسكرية لإعادة أراضي الامبراطورية وبخاصة في استرداد شمال إفريقيا من الوندال وإيطاليا من القوط الشرقيين وجانباً من اسبانيا من يد القوط الغربيين. ولما كانت محاولته هذه تعتبر آخر محاولة قام بها امبراطور روماني، فإن ما حدث يعتبر نهاية لمجد الامبراطورية الرومانية لأن خلفائه من بعده فشلوا في الحفاظ على هذه الأراضي، وعلى ذلك يعتبر عصره مرحلة جديدة تنقلنا إلى عصر

جديد هو عصر التاريخ الوسيط.

ثانياً: أسباب دينية:

سبق أن أوضحنا أن البعض اختار عصر قسطنطين ليكون مدخلاً للتاريخ الوسيط نظراً لما قام به هذا الامبراطور في مجالات متعددة. ولكن هناك فريق من المؤرخين يرون في عام ٣١٣ م بداية للتاريخ الأوروبي الوسيط لصدور مرسوم ميلان في هذا العام نظراً لما أبداه هذا المرسوم من تسامح تجاه المسيحيين وجعل الديانة المسيحية ديانة معلنة بعد ما كانت حركة سرية. ولكن فريق آخر من المؤرخين يرى أن هذا التسامح لم يدم، فقد أصيب بنكسة في عهد الامبراطور جولييان المرتد Julian the Apostate (٣٦١-٣٦٣ م) الذي ارتد من المسيحية إلى الوثنية وجعل الأخيرة ديناً رسمياً للدولة. ولكن هذه المحاولة قد فشلت تماماً وانتصرت المسيحية. ومن هنا يعتبر هؤلاء المؤرخون عصر جولييان بداية للعصور الوسطى على اعتبار أن عصره كان آخر عصور الوثنية وأول عصور المسيحية إحدى دعائم العصور الوسطى.

ومن الفريق الذي ينظر إلى الجانب الديني على أنه بداية للعصور الوسطى يتخذ البعض المرحلة التي تحولت فيها بعض العناصر الجرمانية وهم القوط Goth من الوثنية إلى المسيحية وإن كانت على المذهب الأريوسي، ويضعون عام ٣٧٦ م بداية لهذا التحول وهو العام الذي بدأ فيه المبشر أولفيلاس Olfilas (٣١٠-٣٨٣ م) التبشير في القوط، وما لبث أن اعتنق هذا المذهب عناصر أخرى تحركت مع القوط لأسباب متعددة ودخلت إلى أراضي الامبراطورية وأقاموا دولاً كانت علامة بارزة في تاريخ أوروبا العصور الوسطى.

وفي ختام تلك النواحي الدينية نقول إن بعض المؤرخين يضعون حكم الامبراطور ثيودوسيوس الأول Theodosius I (٣٧٩ - ٣٩٥ م) نقطة البداية للتاريخ الوسيط ويحددون سنة ٣٧٩ م لتكون نهاية للتاريخ القديم

وبداية الوسيط . ومرجع ذلك أن هذا الامبراطور قرر في هذا العام انتفضاء على العناصر الوثنية وعلى اتباع المذهب الأريوسي . وقد تجلى ذلك في مجمع القسطنطينية عام ٣٨١م الذي أقر نهائياً عدم شرعية المذهب الأريوسي وفرض العقوبات على أتباعه . كما وقف في وجه الوثنيين وأقل مراكز عبادتهم وأصدر التعليمات الكفيلة بعدم مباشرتهم طقوسهم وحرق ما هو بدون من تعاليمهم .

ثالثاً: أسباب عسكرية:

وترى مجموعة من المؤرخين أن معركة أدنة Adrianpole التي دارت رحاها عام ٣٧٨م تصلح لتكون نهاية للتاريخ القديم وبداية للتاريخ الوسيط . ويعلمون وجهة نظرهم بأن القوط الغربيين بعدما عبروا الدانوب استقروا في مواسيا Moesia وترانيا Thrac، قد ضاقتوا بهله المناطق ودخلوا في صراع مع الامبراطورية وحاربوها وانتصروا عليها في معركة أدنة وهي المعركة التي قتل فيها الامبراطور فالنز Valens (٣٦٤ - ٣٧٨م) وهزمت جيوش الامبراطورية هزيمة ساحقة . وكان لهذه المعركة والنتائج المترتبة عليها أثراً كبيراً في تاريخ الامبراطورية حتى أن بعض المؤرخين شبهوها بمعركة كاناي Canay التي وقعت في عام ٢١٦م بين الامبراطورية الرومانية وهاتيال وقتل فيها ما يقرب من خمسين ألف وأسرى حوالي ثلاثة آلاف من قوات الامبراطورية .

رابعاً: نظم إدارية:

يرى فريق من المؤرخين أن عام ٣٩٥م وهو العام التي توفي فيه الامبراطور ثيودوسيوس نهاية للتاريخ القديم ومطلع للتاريخ الأوروي الوسيط . وتستند أفكارهم إلى أنه في هذه السنة قسمت الامبراطورية الرومانية إلى قسمين بين أبناء ثيودوسيوس، تولى القسم الشرقي منها ابنه أركاديوس Arcadius (٣٩٥ - ٤٠٧م) وابنه الآخر هونوريوس Honorius (٣٩٥ - ٤٢٣م) القسم الغربي وعاصمة روما . وبذلك أصبح كل قسم دولة

قائمة بذاتها. وبمعنى آخر أن ذلك كان بداية لدولة في الشرق عرفت باسم
الامبراطورية البيزنطية وعاصمتها القسطنطينية استمرت حتى عام ١٤٥٣م،
وقيام دولة في الغرب عاصمتها روما لم تلبث أن تعرضت لغزوات العناصر
الجرمانية التي أقامت على أرضها دولاً وممالك كانت من معالم تاريخ
أوروبا في العصور الوسطى.

خامساً: أفكار تتعلق بمدينة روما:

تدور أفكار بعض المؤرخين حول مدينة روما، وما كان لها من عظمة
ومجد باعتبارها عاصمة الامبراطورية الرومانية منذ قيامها، هذا بالإضافة إلى
كونها مقر الكرسي الرسولي بعد قيام القديس بطرس بتأسيس كنيسها. وإن
مقوط هذه المدينة الخالدة في أيدي عناصر غير رومانية كان إيذاناً بنهاية
التاريخ القديم وبداية التاريخ الوسيط. ويرى الفريق المؤيد لهذا الرأي في
عام ٤١٠م تحديداً لذلك، لأن القوط الغربيين - بقيادة الأريك - Alaric قد
تمكنوا في هذا العام من غزو إيطاليا، والزحف على روما واقتحامها في
الوقت الذي لجأ فيه الامبراطور الغربي هونوريوس إلى رافنا Ravenna
واتخذ منها عاصمة له بعد روما.

سادساً: آراء تتعلق بمنصب الامبراطور الغربي:

يرى العديد من المؤرخين في عام ٤٧٦م نهاية لتاريخ الامبراطورية
الرومانية وبداية تاريخ العصور الوسطى لأنها السنة التي تمكن فيها أودواكر
Odoacer زعيم الهيرول Herules - إحدى العناصر الجرمانية - من دخول
مدينة رافنا وعزل الامبراطور الغربي رومولس أونسطولس Romulus
Augustulus (٤٧٥ - ٤٧٦م) الذي كان في الثانية عشر من عمره، ونفيه
إلى جنوب إيطاليا مع تخصيص معاش مناسب له.

وإذا كان البعض يضع عام ٤٧٦م نهاية للتاريخ الروماني وذلك
لانتهاه حكم الأباطرة الرومان للقسم الغربي للامبراطورية الرومانية، فإن
البعض يضع على المحبار نفسه عام ٨٠٠م بداية لتاريخ الوسيط على

اعتبار أنه في هذا العام توج شارلمان Charlemagne (٧٦٨ - ٨١٤ م) امبراطوراً في الغرب الأوروبي وتم إحياء الامبراطورية تحت اسم الامبراطورية الرومانية المقدسة بعد ما خلا الغرب من شخص يحمل لقب الامبراطور طوال الفترة الممتدة من ٤٧٦ - ٨٠٠ م.

بعد هذا العرض المحدود لأهم الآراء التي دارت حول سقوط الامبراطورية الرومانية وبداية التاريخ الأوروبي الوسيط ولكل منها ما يؤيدها، يمكن القول أن هناك عوامل متداخلة أثرت بشكل أو بآخر في تحول المجتمع الأوروبي إلى التاريخ الوسيط، وإن هذه العوامل سارت بدرجة غير ملموسة حتى شكلت التاريخ الوسيط. وعلى أية حال فإنه إذا تمعنا في الآراء التي سبق عرضها نجد أن القرن الرابع الميلادي قاسماً مشتركاً في معظم الحالات،^١ وأن هذا القرن قد شهد تطوراً في مجالات سياسية وحضارية كان لها أكبر الأثر في المجتمع الأوروبي ومن ذلك الاعتراف بالديانة المسيحية ديناً في الدولة ثم الاعتراف بها ديناً رسمياً للدولة، وظهور بعض الغزوات الجرمانية التي اجتاحت أوروبا وازدياد حدتها مع زيادة ضعف الامبراطورية، والتقسيم الإداري الذي فصل الجزء الشرقي عن الجزء الغربي من الامبراطورية. وعلى ذلك يمكن القول أن القرن الرابع الميلادي يعتبر مدخلاً لتاريخ أوروبا العصور الوسطى.

نهاية للعصور الوسطى:

وكما ظهرت الآراء حول بداية العصور الوسطى فقد تعددت الأفكار حول نهاية العصور الوسطى. وإذا كان ما حدث في القرن الرابع من تغييرات على المجتمع الروماني هو الذي دفعنا إلى تغيير اسم هذا المجتمع إلى مجتمع العصور الوسطى، فإنه لا بد أن تحدث تغييرات في المجتمع الوسيط تجعلنا ننهي بهذه التغييرات المجتمع الوسيط إلى مجتمع آخر وهو ما نطلق عليه مجتمع العصر الحديث. ومع هذه التغييرات ظهرت بعض الآراء لوضع نهاية التاريخ الأوروبي الوسيط. وقد حاولت إدماجها في عناصر متشابهة حتى تصبح واضحة المعالم.

أولاً: آراء تدور حول الجوانب الحربية:

يرى بعض المؤرخين إنهاء العصور الوسطى بعام ١٤٥٣م ويعملون وجهة نظرهم بحادثتين وقعتا في تلك السنة كان لهما أثرهما البالغ الأهمية في الشرق والغرب الأوروبي ففي الشرق سقطت القسطنطينية في أيدي الأتراك العثمانيين بعدما ضيقوا الحصار عليها بعد بناء قلعة أناضولي حصار عام ١٣٩٧م على الشاطئ الآسيوي على مسافة ستة أميال شمالي العاصمة، ثم قلعة روملي حصار لتقابلها على الشاطئ الأوروبي عام ١٤٥٢م. ومع سقوط هذه المدينة يأنل نجم مجتمع الامبراطورية البيزنطية أي نصف مجتمع أوروبا العصور الوسطى وينفذ الأتراك إلى أوروبا حاملين معهم أفكاراً جديدة قضت على أنظمة الامبراطورية البيزنطية ومهدت لقيام أنظمة أخرى ساهمت في قيام العصر الحديث.

أما فيما يتعلق بالأحداث التي وقعت في العام نفسه (١٤٥٣م) في الجانب الغربي من أوروبا، ففي هذا العام تنتهي حرب المائة عام التي دارت رحاها بين إنجلترا وفرنسا وانتصار الأخيرة بعد سقوط مدينة بايو Bayonne ومدينة بودرو Bordeaux على التوالي. ولعل اتخاذ بعض المؤرخين لهذه الأحداث علامة على نهاية العصور الوسطى يرجعه إلى ما ترقب عليها من نتائج شملت الجوانب القومية والفكرية والاقتصادية والمعمارية في إنجلترا وفرنسا ثم انسحبت على بقية الغرب الأوروبي.

ثانياً: آراء حول عصر النهضة:

يضع بعض المؤرخين عصر النهضة فاصلاً بين التاريخ الوسيط والحديث. ومرجع ذلك إلى أن عصر النهضة اشتمل على تطورات واسعة في كافة المجالات. ففي مجال اللغة كانت اللغة اللاتينية هي لغة الكتابة في أوروبا العصور الوسطى وهذا يعني أن طائفة معينة هي التي كانت تطلع على ما كتب في هذه المرحلة. ولكن تحولاً كبيراً مرا على هذا الجانب عندما كتب دانتي البجيري Dante Alighieri (١٢٦٥-١٣٢١م) وهو

الشاعر الفلورنسي الذي اعتبره كبير شعراء عصره - كتب باللغة الإيطالية بدلاً من اللاتينية ولعل أعظم ما كتبه هو الكوميديا الإلهية Divine Comedy التي صاغها شعراً. وفي هذا المجال تجدر بنا الإشارة إلى الشاعر الفيلسوف أبي العلاء الممري (٩٧٣-١٠٥٧م) صاحب رسالة الغفران ولما لهله الرسالة من أثر على كتابات دانتي. وإذا كان دانتي قد برز في إيطاليا فإن الشاعر الإنجليزي جوفري تشوسر Geoffrey Chaucer (١٣٤٠-١٤٠٠م) يعتبر أبرز الشعراء الإنجليز قبل وليم شكسبير. وقد قدم تشوسر لمعاصريه عدة مؤلفات ختمها بكتابه الذي لم يتم وهو قصص كانتربوري The Canterbury Tales. وكان لاستخدام هذا الشاعر اللغة الإنجليزية في الكتابة أثراً كبيراً على معاصريه. وفي فرنسا يبرز لنا الشاعر الفرنسي فرانسوا فيلون François Villon (١٤٣١-١٤٩١م) الذي استخدم اللغة الفرنسية في الكتابة بمنهج ساخر. ومما لا شك فيه أن التحول إلى الكتابة باللغة المحلية وهي اللغة التي يستطيع الكثير استخدامها بدلاً من اللاتينية التي احتكر معرفتها القليل كان له أبلغ الأثر وأعطى الفرصة للعديد للاطلاع على آراء المفكرين في هذه المرحلة.

وفيما يتعلق بالفنون نذكر الرسام الإيطالي سيمون مارتيني Simon Martine (١٢٨٤-١٣٤٤م) الذي تميزت أعماله بالرشاقة، ومن بعده رفايل سانزو Raphael Sanzio (١٤٨٣-١٥٢٠م) الرسام المهندس المعماري الإيطالي الذي اعتبره أعظم الفنانين العالميين في مختلف العصور، ونكتفي في هذه المرحلة بذكر ثالث وهو مايكل أنجلو Michel Angelo (١٤٧٥-١٥٦٤م) وهو النحات والرسام والمهندس المعماري. وواقع الحال أن هؤلاء الفنانين وغيرهم قد خرجوا على تقاليد العصور الوسطى وخاصة كنيسة، وقلموا أعمالاً فنية في غاية الروعة والجرأة وتركوا لنا فناً مختلفاً تماماً عن فنون العصور الوسطى.

ثالثاً: آراء مرتبطة بالجانب الديني:

لما كانت الكنيسة وما فرضته من تعاليم وسيطرة على أوروبا من أهم

معالم العصور الوسطى، لذلك كان الخروج على الكنيحة وأفكارها التي سادت مجتمع العصور الوسطى يعتبر نقلة من مرحلة إلى مرحلة أخرى. لذلك يرى البعض أن حركة الإصلاح الديني التي بدأت بمهاجمة رجال الدين لبعدهم عن مثل المسيحية ولساطتها نهاية للعصور الوسطى. ومهما كان موقف البروتستانت من أمثال من نادوا بذلك فما لا شك فيه أن مركز البابوية قد تأثر كثيراً منذ القرن الرابع عشر الميلادي نتيجة الأسر البابوي (1305-1377م) والانشقاق الديني الأكبر (1378-1417م). ويجدر بنا الإشارة هنا إلى اثنين من الذين نادوا بالإصلاح الديني في هذه المرحلة هما يوحنا هس (John Huss 1373-1415م)، المصلح اللاتيني البيهيمي الذي اتهم بالهرطقة وأعدم -رقاً، ويوحنا وكلف (John Wycliffe 1330-1384م) المصلح الديني الإنجليزي الذي أنكر سلطة البابا إذا تعارضت مع تعاليم الكتاب المقدس لذلك اتهم بالهرطقة. ولا شك أن هذين المصلحين قد مهدا لدعوة مارتن لوثير Martin Luther (1483-1546م) الراهب الألماني الذي تزمم حركة الإصلاح البروتستانتية في ألمانيا، ومن بعده هيلولاثيمر Hugh Latimer (1485-1535م) المصلح البروتستانتية الإنجليزي الذي حكم عليه بالموت حرقاً بتهمة الهرطقة. ونخلص من ذلك أن حركة الإصلاح الديني امتدت حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادي وأن الحكم بالموت حرقاً في هذه المرحلة يشير إلى أن أفكار العصور الوسطى كانت سائدة حتى هذه المرحلة أيضاً.

رابعاً: أفكار تدور مع الكشوف الجغرافية:

مما هو معروف أن الكشوف الجغرافية وما ترتب عليها من نتائج في كافة المجالات كان لها أثرها البالغ عن مجتمعات العصور الوسطى في العالم أجمع. هذه الكشوف الجغرافية التي قام بجانب منها الملاح البرتغالي بارثوليميو دياز Bartholomeu Diaz (1450-1500م) واكتشف طريق رأس الرجاء الصالح 1487م، ومن بعده فاسكودوي بامبا

Vasco de Gama (1469-1524م) الذي قام بأول رحلة بحرية إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح (1497-1498م)، ولرديناند ماجلان Ferdinand Magellan (1480-1521م). الملاح البرتغالي الذي اعتبره أول من قام برحلة حول العالم. وفي مجال الكشوف الجغرافية يلمع كريستوفر كولمبوس Christopher Columbus (1451-1506م) الذي اكتشف أمريكا الجنوبية دون أن يدري عام 1492م. ويتخذ أصحاب هذا الرأي هذا الجاه منطلقاً لمصر جديد ونهاية للعصور الوسطى لما ترتب على هذه الكشوف من نتائج في المجالات السياسية والاقتصادية بصفة خاصة، وفي المجالات الفكرية بصفة عامة.

وعلى أية حال وبعد هذا العرض المحدود لأهم الآراء التي دارت حول نهاية العصور الوسطى نكرر أن التحول من مرحلة التاريخ الوسيط إلى التاريخ الحديث لم تتم في سنة بذاتها وإنما هي عملية تحول تتم تدريجياً وبطريقة غير ملموسة، وأن كل ما ورد من آراء لها وجهاتها، ولكنه يمكن اتخاذ القرن الخامس نهاية للعصور الوسطى نظراً لما حدث في هذا القرن من تطورات فكرية وسياسية ودينية واقتصادية واجتماعية أدت إلى الانتقال من العصر الوسيط إلى العصر الحديث.

فراحل العصور الوسطى:

يتضح من الصفحات القليلة السابقة أن الفترة التي نسميها بالعصور الوسطى فترة طويلة استمرت حوالي ألف ومائة عام. ومع طول هذه الفترة لا يمكن القول إن الناس الذين عاشوا في هذه المرحلة ساروا على نظام واحد طوال هذه الفترة، فقد كانت الأحوال تتبدل وتتحوّل وإن كان ذلك بطيء الخطأ. ولإيضاح ذلك نقول إن الناس الذين عاشوا أيام جستينيان في القرن السادس الميلادي قد اختلفت حياتهم وأفكارهم عن الذين عاشوا أيام شارلمان في القرن الثامن الميلادي، واختلف الاثنان أيضاً في معيشتهم عن الحياة التي عاشها الفرد أيام الملك الإنجليزي هنري الثالث Henry III (1216-1272م). وعلى ذلك يميل بعض المؤرخين

المحدثين إلى تقسيم تاريخ العصور الوسطى إلى مراحل متعددة يمكن وصفها في ثلاث مراحل رئيسية لكل مرحلة منها ما يميزها عن غيرها مع شيء من التجاوز في الزمان والمكان.

المرحلة الأولى:

وهي المرحلة التي تبدأ ببداية العصور الوسطى وهي ما حددناها بالقرن الرابع وتمتد حتى القرن العاشر. وفي هذه المرحلة نلاحظ تزايد اضمحلال الامبراطورية الرومانية وبداية الغزوات الجرمانية، كما بدأت الفتوحات الإسلامية في القرن السابع والثامن حتى وصلت غرباً إلى إسبانيا، كما شامت هذه المرحلة تحركات الفايكنج Viking في شبه جزيرة اسكندناوه في القرن التاسع. ويعنى آخر إن هذه المرحلة شهدت تحركات واسعة النطاق شملت الأراضي الأوروبية. وقد صاحب ذلك انعدام الأمن لعدم قدرة الحكومات على السيطرة على ما تحت أيديها من أراضي. ومع ذلك كله فقد تمت في هذه المرحلة عملية انصهار الحضارة الرومانية مع الحضارة الجديدة التي جاءت بها العناصر الجديدة التي اتجّلت من أراضي أوروبا مستقراً لها. كما شهدت هذه المرحلة أيضاً الهطقات الدينية حتى ساد المذهب الأرثوذكسي في الامبراطورية البيزنطية والمذهب الكاثوليكي في غرب أوروبا.

المرحلة الثانية:

وتلي المرحلة الأولى مرحلة أخرى تبدأ من القرن الحادي عشر وتستمر حتى القرن الثالث عشر. ونلاحظ في هذه المرحلة تمتع الغرب الأوروبي بقدر من الأمن النسبي ووجود النظام الإقطاعي Feudalism وما صاحبه من الفروسية Kingthood وما احتوته من مثل عليا. كما ظورت الجامعات واهتم البعض بالمعرفة خاصة دراسة الفلسفة اليونانية والقانون الروماني. ونشاهد أيضاً التحول الذي ظهر في الفنون المعمارية، ونمو المدن، وقيام أوروبا تحت زعامتين هما الزعامة الدينية بقيادة البابا والدينية بزعامة الامبراطور. ويتضح من هذه المرحلة أن أوروبا قد دخلت مرحلة

التكوين وأن حضارتها في هذه المرحلة بدأت تتخذ شكلاً مميزاً يختلف عن المرحلة السابقة، وظهرت به نهضة لها خصائصها عرفت باسم نهضة القرن الثاني عشر.

المرحلة الثالثة:

وتنحصر هذه المرحلة في القرن الرابع عشر، وفي هذه المرحلة تغيرت أفكار العصور الوسطى بفعل تصادم أفكار المرحلة السابقة مع الأفكار الجديدة التي ظهرت في أوروبا بفعل التطور أو من جراء دخول أفكار جديدة نتيجة الاحتكاك بين الشرق والغرب وخاصة من طريق الأندلس وسبيلية والحروب الصليبية. هذا الاحتكاك الذي أثرى العرب الأوروبيين بالكثير من العلم والمعرفة، وليس لنا في هذا المجال أن نستشهد بأحد بل يكفي أن نذكر بعض علماء المسلمين في هذه المرحلة. فقد كتب جابر بن حيان (٧٠٢-٧٦٥م) عن الطب والكيمياء، ووضع الخوارزمي (٧٨٠-٨٥٠م) أقدم جداول في حساب المثلثات، وكتب الفرغاني حوالي عام ٨٦٠م كتاباً عن الفلك ظلت تعتمد عليه أوروبا لزمان طويل، كما عمل ثابت بن قرة (٨٢٦-٩٠١م) بالطب والفلك. كما كان البيروني (٩٧٣-١٠٤٨م) فيلسوفاً ومؤرخاً وجغرافياً ولفظياً ورياضياً وفلكياً وشاعراً وعالماً في الطبيعة. ونذكر أيضاً الشاعر والطبيب والفيلسوف ابن طفيل (١١٠٧-١١٨٥م) وابن رشد (١١٢٧-١١٩٨م) الذي كان أكبر فلاسفة المسلمين تأثراً في العقول، وقد عرف في العصور الوسطى باسم أفروس Averroes، وابن البيطار (ت ١٢٤٨م) عالم النبات صاحب كتاب الأدوية، وابن النفيس (ت ١٢٨٨م) الطبيب الذي اكتشف الدورة الدموية الصغرى.

ولعل من جراء تأثير هؤلاء العلماء وغيرهم من داخل أوروبا ومن خارجها تغير تفكير الناس في أوروبا في هذه المرحلة في نواحي عديدة، فإذا نظرنا إلى نظام الحكم على سبيل المثال نجد أن نظرة الشعب إلى النظام الملكي قد تغيرت وأصبحت تنظر إليه على أنه رأس الدولة بدلاً من رأس الإقطاع، وأكثر من ذلك أن بعض شعوب أوروبا قد طالبت الملكية

بتحديد سلطاتها وهو ما أدى إلى ظهور البرلمانات. ومع هذا التحول الفكري في نظام الحكم أصبح الناس يهتمون بأمور دولتهم واهتمت الفكرة التي كانت سائدة بأن أوروبا وحدة واحدة.

وإذا نظرنا إلى الجانب العلمي نلاحظ ظهور اللغات المحلية بدلاً من اللاتينية وهذا يؤكد ما أوردناه من تفكك الوحدة الأوروبية، ويبدو أن هذا التحول قد أثر على التعليم لبعض الوقت حتى أننا نجد أن الحركة العلمية في الجامعات قد أصابها الجمود، ولعل ذلك مرجعه إلى أن هذا التحول يحتاج لبعض الوقت حتى تفهم الناس الحضارة الرائدة إليها واللغة الجديدة التي ظهرت.

أما ما يتعلق بالجانب الديني فقد تزعزع مركز البابا والكنيسة معاً وهاجمها الناس في مواضع عديدة وهو ما لم يكن مألوفاً في مراحل سابقة. وعلى الجانب الديني نذكر الحروب الصليبية التي ابتعد عنها الناس كثيراً بعد ما ضعف التعصب الديني وبدأ الناس يهتمون بشؤونهم وتنمية مواردهم في بلادهم.

وخلاصة القراء إن عالم العصور الوسطى بدأ في القرن الرابع وانتهى في القرن الخامس عشر الميلادي، وأن هذا العصر لم يسر على وتيرة واحدة بل يمكن تقسيمه إلى فترات ثلاث لكل منها ما يميزها. وأن فترة العصور الوسطى أسهمت في التطور الحضاري الذي نقلنا من التاريخ القديم إلى التاريخ الحديث.

الفصل الثاني

نهاية الإمبراطورية الرومانية
وعصور دقلديانوس وقسطنطين وخلفائه

أسباب سقوط الإمبراطورية الرومانية

عصر دقلديانوس

عصر قسطنطين

خلفاء قسطنطين

تبين لنا من الصفحات السابقة ان القرن الرابع الميلادي هو القرن الذي يمكن أن يبدأ منه تاريخ العصور الوسطى مع شيء من التجاوز ، واتضح لنا كذلك أن في هذا القرن سارت الحضارة القديمة وهي الحضارة الرومانية في أوروبا جنباً إلى جنب مع ما استجد من المتغيرات التي نقلتنا إلى العصور الوسطى . وبذلك يكون المدخل الطبيعي لدراسة تاريخ العصور الوسطى هو القرن الرابع حيث نلاحظ انهيار الامبراطورية الرومانية وبداية معالم التاريخ الأوربي الوسيط . ومن ثم فإن القاء الضوء على القرن الرابع وما ساهم من أنظمة وتغييرات هو الدراسة التمهيدية لهذا الكتاب .

وعلى أية حال فتمتد القرن الثالث الميلادي تعرضت الامبراطورية الرومانية لأزمات عنيفة هددت كيانها وهزت دعائمها ، فانتشر الفساد في جميع أركان الحياة وكثرة الغارات على الحدود خاصة غارات البرابرة على حدود نهر الدانوب ، هذا بالإضافة الى الخطر الفارسي على الحدود الشرقية . وعلى ذلك أصبحت الامبراطورية الرومانية مهددة بالانهيار . ويمكن تقسيم أسباب انهيار الامبراطورية الى أسباب داخلية وأسباب خارجية . وعلى رأس الاسباب الداخلية سوء احوال الجيش والحركات الانفصالية وسوء الأوضاع الاقتصادية .

وفيما يتعلق بأحوال الجيش فيمكن القول أن القوات العسكرية

تحكمت في شؤون الحكم وأخذت تولي وتعزل من شاءت من الأباطرة، وقد أدى هذا كله إلى عدم الاستقرار . وبذلك حاد الجيش عن مهمته الرئيسية وهي الدفاع عن البلاد، فبدلاً من أن يتولى الامبراطور سلطته بواسطة الجيش أصبح الجيش هو الذي يتولى شؤون الحكم عن طريق الامبراطور الذي يختاره . وقد أدى هذا كله إلى عدم الاستقرار داخل البلاد .

أما الحركات الانفصالية فهي مترتبة على سوء احوال الجيش ، فقد وُحِدَت جماعات متنافسة على الحكم من العسكريين ادت الى حروب داخلية حتى شملت الامبراطورية وظهرت الحركات الانفصالية التي هددت وحدة الامبراطورية ، وحاول بعض الأباطرة القضاء على هذه الظاهرة بالفصل بين السلطة العسكرية والمدنية لدى حكام الاقاليم وتصغير حجم الوحدات الادارية . .

وسوء الأوضاع الاقتصادية مترتب على الحروب الداخلية والحركات الانفصالية . فقد أدى اختلال الأمن إلى سوء الأحوال الاقتصادية، ولكي تعالج الدولة عجزها المالي في ميزانيتها لجأت الى زيادة الضرائب بدرجة لم يتحملها صغار المزارعين فهجروا اراضيهم ، ولم تُجد محاولات الإصلاح المالي فسارت الأمور من سيء إلى أسوأ .

أما أسباب انهيار الامبراطورية الخارجية فيمكن حصرها في الخطر الفارسي الذي تزايد في هذه المرحلة والحق هزائم عديدة بجيوش الامبراطورية على الجبهة الشرقية . ولم تكن الجبهة الغربية بأحسن حال من الحدود الشرقية ، فقد انتشرت قبائل البرابرة وراء نهري الدانوب والراين وتزايدت هجماتها وعجزت الامبراطورية عن وقف هذا التيار وتوفير الأمن لمواطني الحدود .

... دقلديانوس Diocletian ٢٨٤ - ٣٠٥

ولد دقلديانوس بالقرب من مدينة سالونا Salona في إقليم دالماتيا عام ٢٤٥ م ، وقد أطلق اسمه على مدينة صغيرة تقع في هذا الإقليم ،

حيث كان مسقط رأس أمه . وكان والداه هيدان في بيت أنولينوس
Anulinus أحد أعضاء مجلس السناتور . وعلى ما يبدو أن والده حصل
على حرية الأسرة ، وأن دقلديانوس قد حصل على وظيفة كاتب ، وهي من
الوظائف التي يمكن أن يشغلها أمثال دقلديانوس . وبفضل جهوده ونبوغه
وصل إلى مرتبة النصل ، ثم تولى وظيفة قائد حرس القصر الإمبراطوري
وهي من الوظائف الخطيرة ، وتجلت كفاءته العسكرية في حرب فارس .
وبعد موت نومريانوس Numerianus (٢٨٣ - ٢٨٤ م) اعترف به بأنه أجدد
شخص بعرش الامبراطورية .

ويبدو ان أول ما قام به دقلديانوس هي تعيين مكسيميان Maximian
زميلاً له في الحكم ، وبذلك حدا حلوا ماركوس أوريليوس Marcus
Aurelius (١٦١ - ١٨٠ م) ومنحه لقب قيصر Caesar في بداية الأمر ، ثم
أضفى عليه لقب أوغسطس Augustus فيما بعد ، والواقع أن مكسيميان
كان صديقاً لدقلديانوس ورفيقه في السلاح .

قام دقلديانوس ببعض الاصلاحات ليراجع بها الأزمة التي انتابت
الامبراطورية ، فأعاد النظر في نظم الامبراطورية والنقش ما اعتبره فاسداً
وأبقى على ما رآه غير ذلك ، واستحدث بعض التنظيمات التي رأى انه
يستطيع بها حل مشاكل الامبراطورية . . واستهدفت اصلاحات دقلديانوس
تقوية سلطة الامبراطور ، واقامة جهاز اداري دقيق يمكنه من السيطرة على
شؤون الامبراطورية ، وفصل بين السلطة العسكرية والمدنية . وقد رأى
- دقلديانوس أيضاً أن الامبراطورية التي يهاجمها البرابرة من كل جانب
تتطلب قوة عسكرية كبيرة في كل موضع من المواضع المعرضة لغاراتهم .
لذلك كله قسم دقلديانوس الامبراطورية الى قسمين شرقي وغربي . حكم
كل منهما حاكم يحمل لقب اوغسطس ، وتولى دقلديانوس القسم الشرقي
بينما تولى مكسيميان القسم الغربي . وتم تقسيم الامبراطورية الى أربعة
أقسام ادارية عرفت باسم Prefecture ، الأولى منها هي ايطاليا وعاصمتها
ميلان Milan ، والثانية غالة وعاصمتها ترييف Trier الواقعة على نهر الراين ، والثالثة

إلى ليريا Illyricum وعاصمتها سرميوم Sirmium وهي بلغراد الحالية ، أما الرابعة منها هي الجانب الشرقي وعاصمتها نيقوميديا الواقعة على الشاطئ الأسيوي للسفور . هذا وتولى وظيفة التصيرين جاليروس Galerius الذي تبناه دقلديانوس وقسطنطوس Constantius الذي تبناه مكسيميان . وألما كل من الفيصرين بطلاق زوجته والتزوج من ابنة متبنيه ، واقتسم هؤلاء الأربعة الامبراطورية فيما بينهم ، فترلى قسطنطوس مهمة الدفاع عن غالة واسبانيا وبريطانيا واتخذ من ثريف مقراً له ، واعتبرت ايطاليا وشمال افريقيا في نطاق حكم مكسيميان واتخذ من ميلان مركزاً لحكمه ، أما دقلديانوس فاحتفظ بإقليم ثراقية Thrace وآسيا الصغرى ومصر ، وحكم جاليروس ليريا وأقام في سرميوم الواقعة على نهر الدانوب . وكان كل من الحكام الأربعة سيداً في نطاق اقليمه ، ولكن سلطتهم المتحدة امتدت على الإمبراطورية بأكملها ، وكانت القرارات والأوامر تصدر باسمهم جميعاً . ويلاحظ أن هذا التقسيم لم يتم إلا بعد إشراك مكسيميان في الحكم لست سنوات .

وكان النظام الرباعي يقضي بأنه عندما يعتزل الاوغسطس الحكم يخلفه القيصر الذي يرقى إلى أوغسطس ويعين لمساعدته قيصراً جديداً وهكذا تباعاً . أما الجيش فكانت قواه موزعة بين شركاء الامبراطورية الأربعة . ورغم كل هذه الاحتياطات ذابت الوحدة السياسية في العالم الروماني شيئاً فشيئاً وساد مبدأ التقسيم الذي كان سبباً في الفصل الدائم بين اجزاء الامبراطورية في بضع سنين قليلة . وثمة عيب آخر إلى جانب نزعة التقسيم وهو فداحة تكاليف الادارة الحكومية الجديدة مما أدى إلى زيادة الضرائب .

وعلى أية حال فإن تجربة دقلديانوس لم تلق النجاح المرجو رغم فكرتها الرائعة ، فإلى جانب المشاكل المتأصلة ابتليت الامبراطورية بعدة نكبات ، منها هجمات البرابرة المستمرة على الحدود ، وقيام الحرب الأهلية . وهذا بدوره أدى إلى تفشي الطاعون ونقص عدد السكان وضعف التجارة والصناعة . وترتب على ذلك أيضاً زيادة الأسعار بدرجة كبيرة أدت إلى نقص

قيمة العملة مما دفع دقلديانوس إلى إصدار القرارات الخاصة بتحديد أسعار السلع والمواد الغذائية ، ووضع العقوبات لكل من يخالف ذلك ولكن دون جدوى . وكان من أكبر المشاكل التي سادت عهد دقلديانوس مشكلة المسيحية التي عارضها الامبراطور بعنف حتى أنه صادر أملاك الكنائس ومنع المسيحيين من إقامة شعائرتهم والزمهم بعبادة الأوثان . وكان لتعسف دقلديانوس مع المسيحيين أن يطلق على عصره عصر الشهداء .

وفي عام ٣٠٥ م اعتزل دقلديانوس الحكم وعمره تسعة وخمسين عاماً بعد أن أصيب بعلل الشيخوخة المبكرة ، وقضى دقلديانوس اعرامه التسعة الاخيرة من عمره معتكفاً عن الحياة العامة . وفي الوقت نفسه اعتزل مكسيميان الحكم في ميلان وفقاً لاتفاق سابق مع دقلديانوس .

قسطنطين الكبير Constantin the Great (٣٠٦ - ٣٣٧ م)

تمثل العيب الأساسي في نظام الحكم الرباعي في أنه كان لمكسيميان ابناً هو مكستتيوس Maxentius ، وكان لقسطنطينوس ابناً هو قسطنطين ، وتمحكم في كلاهما العطف الأبوي على نظام الانتخاب ، وحاول جاليروس أن يفرق بين قسطنطينوس وابنه ، ولكن هذه المحاولات لم تفلح ولحق قسطنطين بأبيه في الجزر البريطانية . وعندما مات الرالد في مدينة يورك York نادى الحامية الرومانية بقسطنطين أوغسطساً .

وفي الوقت عينه أقام مكستتيوس نفسه حاكماً على إيطاليا وأفريقيا واتسم حكمه بالطغيان فنشرت منه الرعية ، وكان في ذلك فرصة طيبة لقسطنطين الذي زحف بجيشه وتولى إدارة غاله ، ثم ما لبث أن غزا إيطاليا وهزم مكستتيوس وقتله عند جسر ميلفيان Milvian عام ٣١٣ م خارج مدينة روما ، واعدم أبناءه ونكل بكل من يسمي إليه ، وتوقع أعوانه أنهم ملائون نفس المصير . ولكن قسطنطين الذي امتاز بخطه الدفاعية البارعة في الحرب امتار أيضاً بالمناورات السياسية في السلم فأصدر عفراً عاماً هدأت

به الخواطر . وعندما زار مجلس السناتر أكد احترامه لهذا المجلس ووعده بتدعيم مكانته وامتيازاته القديمة ، ورد المجلس على هذا بإصدار مرسوماً يقضي بتعيين قسطنطين في المكان الأول بين الأباطرة الذين يحملون لقب اوغسطس . وواقع الأمر لم يكن قسطنطين في حاجة إلى مثل هذا المرسوم لأن المجلس لم تعد له سلطة فعالة بل كانت السلطة الحقيقية في يد قسطنطين معتمداً على رجال الجيش وعلى النصر الذي احرزه على منافسيه .

ويلاحظ انه في الفترة الممتدة من ٣٠٥ - ٣١١ م وهي الفترة المضطربة التي تلت اعتزال دقلديانوس ومكسيميان ، كان يحكم الامبراطورية جاليروس بالاشتراك مع قسطنطوس الأول وسيفريوس الثاني Severus II وليسينوس Licinius و قسطنطين الأول ومكسيميان في فترات مختلفة . ومنذ عام ٣٠٩ م كان هناك ستة حكام يحملون لقب اوغسطس ، ثم انفرد قسطنطين الأول وليسينوس بالحكم من ٣١٢ - ٣٢٤ م ، وساد هذه الفترة ايضاً الفوضى والاضطراب والحرب الأهلية نتيجة لمطامع كل منهما ، ونشبت الحرب الأهلية من جديد وانتصر قسطنطين على منافسه عام ٣٢٤ م وانخرط بالسيادة على الامبراطورية بعد معركة ادرنة Adrianoph وكريسيبوليس Chrysopolis ، وانتهى الأمر بموت ليسيونوس . وألقى قسطنطين النظام الرباعي وعين حكاماً يساعدونه في إدارة شؤون الامبراطورية - ويلاحظ انه قبيل وفاة قسطنطين تم اعادة تقسيم الامبراطورية من جديد ، وفي هذه المرة قسمها بين اولاده لكي يجنب البلاد النزاع الدموي ، ولكن الخلافات ما لبثت ان قامت بين اولاده ونتج عنها الفوضى والاضطراب ، ورغم هذا فإن مبدأ تقسيم الإمبراطورية إلى اقاليم أصبح المبدأ السائد فيما بعد .

شخصية قسطنطين

اعطت الطبيعة شخص قسطنطين وعقله أئمن ما لديها ، فكان فارح الطول مهيّب الطلعة ، محسود السيرة ، واحتفظ منذ طفولته حتى آخر أيام

حياته بقوته وصحته بفضل ما التزم به من العفة وصبط النفس ، وكان بشراً سمحاً يمزح في تحفظ ، ولم يكن لقلته تعليمه أثر على تقديره للعلم والتعليم ، ولذلك حظت العلوم والفنون في عهده بالتشجيع والرعاية . وكان عندما يعمل فهو يعمل دون كلل أو ملل ، وكانت له عزيمة ماضية ، فكان يقرأ ويكتب ويفكر ويستقبل السفراء وينظر في شكاوى رعاياه . وكان عندما يتبنى مشروعاً فإنه يعمل فيه بكل حواسه ولا يعرفه عنه عائق . وفي ميدان المعركة كان قائداً يفوق رجاله في عزم . وكان طموحاً إلى أبعد الحدود وعرف كيف يضع يده على نبض امبراطوريته وهي في محتتها . ويبدو أن ذلك قد ملك حواسه منذ اللحظة التي نادى به الحامية الرومانية في انجلترا اوجسطا ، لانه كان مدركاً لم تطوي عليه نفسه من مواهب وتطلعه الى انه سوف ينجح في حروبه ضد منافسيه لتفهمه لروح شعب الامبراطورية ، التي قارنت بين حكمته وعدالته وبين الرذائل المتأصلة في منافسيه مكستيموس وليينوس . لذلك يمكن القول ان نجاحه ينسب إلى قدراته أكثر مما ينسب الى حظه .

وواقع الأمر أن الحديث عن الامبراطور قسطنطين وكيفية توليه العرش الامبراطوري وعن شخصيته وعهده تضيق بها هذه الصفحات ، لذلك فإننا نكتفي بإلقاء الضوء على عمليتين من أهم أعماله ، أولهما : الاعتراف بالديانة المسيحية ، وثانيهما بناء مدينة القسطنطينية لتكون عاصمة جديدة للامبراطورية .

الاعتراف بالديانة المسيحية

المقصود بالاعتراف بالديانة المسيحية هو أن قسطنطين أعلن الاعتراف بالديانة المسيحية كدين داخل الامبراطورية وليس ديناً رسمياً ، والأمر الأخير تم في وقت لاحق لعهد قسطنطين ، أما مسألة اعتناق قسطنطين المسيحية فهو موضوع آخر، وسوف نتناول كل موضوع منهما على حدة .

١ - الاعتراف بالمسيحية ديناً داخل الامبراطورية :

عندما اعتلى قسطنطين العرش البيزنطي كانت الديانة المسيحية قد تغلغت في كيان الامبراطورية منذ حوالي ثلاثة قرون ، وقد حاول بعض الاباطرة القضاء على هذه الديانة بالعنف والدم مثل دقلديانوس وجالوريوس . فقد كان جالوريوس رجلاً دموياً شديداً البأس على المسيحيين ولم تجد قسوته نفعاً بل انتشرت المسيحية أكثر من ذي قبل . وقد وجد جالوريوس نفسه بعد سنوات من الاضطهاد ان سياسة العنف هذه سياسة فاشلة ، واقترح آخر الأمر بان العنف والاستبداد لا يقضيان على شعب بأسره وعلى معتقداته الدينية ولعل ذلك ناتج عن اعتلال ألم بصحته لفترة ليست بقصيرة ، فأصدر عن طيب خاطر - لاصلاح ما أفسده يده - مرسوماً عاماً يحمل اسمه واسم ليسينوس . ومن هذا المرسوم لقد اتجهت ارادتنا الى بسط مزايا رأفتنا المألوفة على هؤلاء الافراد المسيحيين التماسه ، ولذلك نرخص لهم بإعلان آرائهم الخاصة في حرية تامة ، وفي عقد اجتماعاتهم السرية دون خوف او ازعاج شريطة ان يظهروا دوماً الاحترام اللائق للقوانين والحكومة القائمة ، وانا لنأمل ان يكون تسامحنا دافعاً الى الصلاة والتضرع الى الإله الذي يعبده من أجل سلامتنا ورخائنا وسلامتهم ورخائهم وسلامة الجمهورية ورخائها .

وعلى ما يبدو أن أعوان جالوريوس لم ينشروا هذا المرسوم كما هو ، وإنما نشروا تعليمات الى حكام الولايات تحدثوا فيها عن رفق الاباطرة بالمسيحيين وأشاروا في على رجالهم بوقف محاكمة المسيحيين وغض الطرف عن الاجتماعات السرية . واعقب ذلك اطلاق سراح المعتقلين منهم ، ولكن ذلك لم يدم طويلاً بسبب حكم جالوريوس القصير ٣٠٥ - ٣٠٦ م وما تبع ذلك من اضطرابات داخل الامبراطورية .

مرسوم ميلان ٣١٣ م .

بعد ما انتصر قسطنطين على منافسيه في موقعة ميلفيان عام ٣١٣ م أعلن الامبراطور قسطنطين مرسوم ميلان الشهير الذي أعاد السلام والهدوء

الى الكنيسة المسيحية . وواقع الامر ان قسطنطين لم ينفرد بإصدار هذا المرسوم بل شاركه في مسؤوليته شريكه في الحكم على النظام الدقديبانوسي الاغسطس ليسيوس ، وقد استقبل هذا المرسوم على انه قانون أساسي من قوانين العالم الروماني ، ومن هذا المرسوم :

و عندما تقابلنا نحن قسطنطين أوغسطس وليسيوس . أوغسطس في ميلان مكللين بالرعاية والعناية ، أخذنا نبعث في جميع الرسائل الخاصة بالصالح العام لرعايانا . ومن هذه المسائل التي تهتم الكثيرين ونعود بالفتح عليهم مسألة حرية العقيدة . لذلك قررنا إصدار مرسوم بضمن للمسيحيين وكافة الطوائف الأخرى حرية اختيار وممارسة العقيدة التي يرتضونها ، وبذلك نضمن رضاه جميع الآلهة والقوى السماوية علينا ، كما نضمن رضاه جميع رعايانا ممن يعيشون في كنف سلطانتنا . وهكذا قررنا عن ثبات وتعتل الا يحرم أي فرد كائناً من كان من اختيار المسيحية ديانة له . ولكل فرد الحرية في اختيار الدين الذي يناسبه . وبذلك نضمن استمرار تأييد الرب لنا بنفس الكرم والقوة اللذين نعودناهما منه . . . وهذا المرسوم الذي صدر من فيض كرمنا يجب ان يذاع على الجميع ويجب ان يحاط به الجميع علماً وينشر في كل مكان حتى لا يفوت أحد الأخذ به .

والنص الخاص بالفقرة الأخيرة كما هو منشور باللغة الانجليزية

كالآتي :

So that the form of this ordinance and of our benevolence may come to the attention of all men. It will be convenient for you to promulgate these letters everywhere and bring them to the Knowledge of all, so that ordinance of our benevolence may not be hidden.

وعلى ذلك فنحن أمام الحقائق التالية :

١ - ان المسيحية ظلت حركة سرية منذ بدايتها حتى إعلان مرسوم ميلان عام ٣١٣م .

- ٢ - تناول بعض الأباطرة المسيحيين بالاضطهاد والتعذيب وغالي بعضهم في ذلك .
- ٣ - لم يكن مرسوم ميلان اول مرسوم بالتسامح مع المسيحيين بل سبقه المرسوم الذي حمل اسم جالريوس وليسينوس .
- ٤ - ان مرسوم جالريوس لم يعمل به لقصر مدة حكم الامبراطور .
- ٥ - لعل في العبارة الانخيرة الواردة في مرسوم ميلان ما يؤكد ذلك وان عبارة Not be hidden تشير إلى الخوف من مابقت حدثت تحوم حول ما تنطوي عليه هذه العبارة من معنى ويخشى تكرارها .
- ٦ - ان مرسوم ميلان لم يصدره قسطنطين منفرداً بل صدر منه ومن شريكه في الحكم ليسيونوس .

واستكمالاً لمحتوى مرسوم ميلان نقول ان المرسوم قضى برد كل الحقوق الدينية الى المسيحية التي كانوا حرموا منها ظلماً وعدواناً ، ونص على ان تعاد للكنيسة كل أماكن العبادة والأراضي العامة المصادرة دون جدل أو ابطاء أو تكلفة . واقترن هذا الانذار الصارم بوعده كريم يقضي بأن يدفع - لمن اشترى املاك الكنيسة ودفعوا مبالغ كبيرة - تعويض من خزنة الامبراطورية .

ومع تتبع قضية الاعتراف بالمسيحية ندخل في قضية أخرى ، وهي متى أصبح قسطنطين مسيحياً ؟ لعل النصوص التي تركها المؤرخون المعاصرون لعصر قسطنطين هي التي اوجدت جدلاً حول هذا الموضوع . فنجد احدهم يسجل ان الامبراطور اعتنق المسيحية منذ اللحظة الأولى من حكمه ، بينما يرى آخر ان ايمان قسطنطين مرجعه الى شارة الصليب التي ظهرت في السماء عام ٣١٣ م . وموجز هذه الرواية ان قسطنطين عندما كان يعد العدة للقاء منافسه مكستوس شهد في السماء راية الصليب وعليها طرة نصها « عز نصره » ، مكتوبة بأحرف من نور ، وان الامبراطور اتخذ تلك الطرة شعاراً للوائه في حروبه . وهناك رواية ثالثة تختلف عن هذه وتلك ، ورواية تقول ان قسطنطين لم يُعمد الا على فراش الموت ، وانه تلقى في

الترع الأخير التعاليم المسيحية حيث وضع الاسقف يده على رأسه وأتم
اجراء الطقوس الدينية ، ثم ما لبث ان اسلم الامبراطور الروح . ولعل ما
دفع المؤرخين الى هذا الخلط وتعدد رواياتهم سلوك قسطنطين نفسه .

والواقع ان هناك تدرج بطيء غير محسوس انتهى بإعلان قسطنطين
نفسه حامياً للمسيحية . فلقد كان من الشاق على قسطنطين ان يحرم من
ذهنه ما تلقته من عادات ومعتقدات وثنية ، وأن يؤمن بالديانة المسيحية
ويعلن ذلك بين يوم وليلة ، فلقد علمته ايضاً التأملات التي يحتمل انها
شغلت ذهنه ان يسير بخطى حثيرة في تغيير الديانة الوثنية وهو تغيير له
خطره وأهميته . والخلاصة ان تيار المسيحية تدفق طوال سني حياته في
حركة هادئة وإن كانت سريعة الخطى . ولكن حذر قسطنطين عروق تارة
وانحرف تارة اخرى بالاتجاه العام للمسيحية . فلقد وازن قسطنطين دائماً
بين آمال رعاياه وبين مخاوفهم ، ومن ذلك أنه كان يصدر مرسومين في
وقت واحد ، الأول ينص على الاهتمام الشديد بيوم الأحد وفي ذلك نصر
للمسيحيين ، والثاني يحض على استشارة العرافين وفي ذلك نصر للوثنية .
ولا شك ان مثل هذه الأمور جعلت المواطنين من مسيحيين ووثنيين يرقبون
سلوك امبراطورهما بغض النظر من القلق وإن اختلفت مشاعر كل منهما .

واستكمالاً لهذه القضية نضع سؤالاً نقول فيه ، ما هي الدوافع التي
دفعت قسطنطين الى الاعتراف بالمسيحية ؟ اختلفت الآراء حول هذه
الدوافع ، فالبعض يرى أن قسطنطين اعترف بالديانة المسيحية عن اقتناع
وعن ايمان وحجتهم في ذلك منبثقة من خلق قسطنطين وتصرفاته إزاء
المسيحيين . ومن ذلك مثلاً بناء العديد من الكنائس . والرأي المضاد
يعتمد على تصرفات قسطنطين تجاه الوثنية التي لا تقل سخاء عن ما قدمه
للمسيحيين . ويرى فريق ثالث أن إيمان قسطنطين بالمسيحية مرجعه
الدوافع السياسية وعلى رأس هذه المجموعة المؤرخ هنري جريجوار
Henry Gregoire ، فيقول هنري في معرض حديثه عن فترة حكم
قسطنطين من كان يريد الشرق فعليه أن يكون مسيحياً أو صديقاً

للمسيحيين. ولم يكن قسطنطين يستطيع أن يسيطر على الشرق وهو الجزء
الغربي من الامبراطورية برجالها وموارده إلا بمهادنة المسيحيين ، خاصة في
الوقت الذي بدأت فيه العناصر الجرمانية تتحرك صوب غرب الامبراطورية .

وفي نهاية الامر نستطيع القول ان قسطنطين كان رجلاً على مستوى
عال من الذكاء فلم يكن يستطيع أن يعلن أنه مسيحي فيغضب الوثنيين ولم
يكن يستطيع ان يعلن انه باق على وثنيته وفي هذه الحالة يتطلب الامر
أن يتخذ موقفاً من المسيحيين وهذا ما لم يحدث ، بل انه عايش الاثنين
معاً وأنه كان يميل إلى المسيحية شيئاً فشيئاً حتى اصبح في آخر الامر
مسيحياً .

٢ - بناء القسطنطينية .

داب قسطنطين وثيقاً للدواعي الحرب والسلم على التحرك في بقعة
تامة على حدود مملكته الشاسعة . وكان دوماً على أهبة الاستعداد لملاقاة
أي عدو خارجي أو داخلي . وعندما تقدمت به الايام بدأ يتدبر مشروعاً
تستقر به قوة العرش الامبراطوري في مكان اشد ثباتاً من روما ، وبدأ يفكر
في بناء عاصمة جديدة للامبراطورية . ولم يكن مرضع القسطنطينية هو
الموضع الاول الذي اختاره قسطنطين في بداية الامر ، فقد طرات على
ذهنه عدة أماكن لتكون مقر حكمه الجديد ، فنجد انه نظر الى مسقط رأسه
مدينة نيش Nish الواقعة على نهر مورافا Morava شمال شبه جزيرة
البلقان ، ومدينة سردিকা Sardica (صوفيا Sofia الحالية) ومدينة نيقومديا
التي اتخذها دقلديانوس من قبل . ولما كان قسطنطين يفضل منطقة الحدود
بين أوروبا وآسيا ليتمكن من ضرب البرابرة الذين كانوا يقطنون الدانوب ،
ويراقب بعين ساهرة تحركات الفرس ، فلقد كانت نيقومديا أنسب المدن
لتكون عاصمة الامبراطورية . ولما كان قسطنطين لا يريد ان يربط مدينته
الجديدة بذكرى دقلديانوس ، لذلك آثر اختيار موضعاً آخر يرقب منه
تحركات الفرس والبرابرة ، وكان هذا الموضع هو قرية بيزنطيوم التي بنى
على انقاضها مدينة القسطنطينية .

وموقع المدينة الجديدة في شكل مثلث على خليج البسفور يلتقي طرفه المنفرج الذي يمتد شرقاً إلى شواطئ آسيا بأعراج البسفور ، وتحد الميناء الجزء الشمالي من المدينة ، أما الجنوب فتحفه مياه بحر مرمره ، ومن ناحية الغرب فتقع قاعدة المثلث التي تواجه قارة أوروبا . واكتسب ميناء القسطنطينية إسم القرن الذهبي لأن الانحناء الذي يرسمه يمكن تشبيهه بقرن الغزال ، ولفظ ذهبي يعبر عن الثروة التي تدفقت على المدينة من أقصى الأرض إلى ثغر المدينة الواسع الأمن ، لأن الميناء كان واسعاً ومناسباً جداً لعملية الشحن والتفريغ حيث ينذر حدوث المد والجزر . وكان طول لسان البسفور من مصب نهر ليكوس Lycus - الذي يمد المدينة بالماء العذب - إلى الميناء أكثر من سبعة أميال ويبلغ عرض المدخل نحو خمسمائة ياردة ، ويمكن عند الضرورة وضع سلسلة مائية تحمي الثغر والمدينة من هجوم أي اسطول معاد كما كان الحال في مدن المصور الوسطى مثل مدينة ديباط في مصر .

والعاصمة الجديدة تقع على خط عرض 42 وخط طول 29 وتسيطر المدينة على تلالها السبعة وهي تتمتع بمناخ صحي معتدل وثروة خصبة ومدخلها إلى القارة الآسيوية قصير المدى ، والدفاع عنه يسور . كما أن خليجي البسفور والدردينيل يعتبران بوابتين للقسطنطينية ويستطيع من يسيطر عليها أن يغلقتها في وجه أي اسطول معاد ويفتحهما في وجه السفن التجارية ، وما يتبع ذلك من تدفق الثروات الطبيعية والمصنوعات من الشمال والجنوب عبر البحر الأسود والبحر المتوسط .

لعل في كل ما سبق مبرراً كافياً لاختيار قسطنطين لهذا الموقع ، ولكن ثمة مزيج من المعجزة والخرافة كان يعكس في كل عصر قدراً من العظمة على نشأة المدن الكبرى . ولهذا نرى قسطنطين ينسب اختيار هذا المكان إلى القرة الإلهية واهتم بأن يسجل في ايجاز بأنه امتثالاً لأوامر الله ، وضع الأساس الخالد لمدينة القسطنطينية ، واستطرد خيال الكتاب اللاحقين لعصره وسجلوا ان شبحاً تراءى ليلاً لقسطنطين وهو نائم في رحاب بيزنطة .

وقالوا ، ان ربة المدينة وحارستها وهي ميلا عجزوز تحولت فجأة الى شابة
ظهرت في أزهى زينتها حين البسها الامبراطور بيديه شارات الامبراطورية ،
وأفاق قسطنطين من نومه وفسر الفأل السعيد وامثل لإرادة السماء دون
تردد . ووردت أسطورة اخرى تقول ان الامبراطور صار على قدميه تتبعه
حاشيته كلها ، ورسم بحريته الخط الذي يجب بناء التحصينات الجديدة
بحدائه ، ولما صار غرباً على ساحل القرن الذهبي وابتعد عنه ميلين قال له
رجالاه ، لقد تجاوزنا الحدود التي تتطلبها المدينة ولكن قسطنطين أجاب :
« سأسير في طريقتي حتى يرى الدليل الخفي الذي يسير أمامي انه من
المناسب ان اتوقف .

على أية حال اختيرت قرية بيزنطة مرقماً للمدينة الحديثة ، ولما كان
أساس الاختيار عسكرياً ، فإنه رغم موقع المدينة الحصين فقد حصنت
أيضاً بالأسوار وأنفق قسطنطين على المدينة بسخاء لبناء الأسوار والأروقة
وقناطر المياه ، وعمل جمع غفير من العمال والصناع في بنائها الذي استمر
من عام ٣٢٤ - ٣٣٠ م . ولما حان موعد الاحتفال بذكرى مولد المدينة وهو
الحادي عشر من مايو عام ٣٣٠ م وضع على عربة من عربات القصر تمثال
قسطنطين الذي صنع بأمر منه من الخشب الممزه بالذهب ، وسارت مواكب
الحراس حاملة الشموع المضاءة مرقدية أثنى الثياب ، وفي اليوم نفسه
نقش على حامود من الرخام مرسوم امبراطوري يخلع اسم « روما الجديدة »
على المدينة ولكن اسم القسطنطينية فاق هذه التسمية .

خلفاء قسطنطين ٣٢٧ - ٣٧٨ م

توفي قسطنطين في عام ٣٣٧ م بعد أن أمضى سنواته الأخيرة في
سلام نسبي هيا له الفرصة لمواصلة إعادة التنظيم الاداري المدني
والعسكري للامبراطورية . وخلفه على العرش ابنائه الثلاثة مجتمعين وهم
قسطنطين وقسطنطيوس وفنتانز Constans ، وكان الأخوة الثلاثة
يالبين بطبعهم الى الشقاق والخلاف ، ولكن هذا الخلاف ما لبث ان انتهى

عندما توفي كل من قسطنطين عام ٣٤٠ م وفستاز في عام ٣٥٠ م فانفرد قسطنطيوس بالحكم بعد ما هزم منافسه ماجننتيوس Magnentius في عام ٣٥١ م واستمر في الحكم حتى وفاته عام ٣٦١ . وفي خلال هذه السنوات عادت الاخطار الخارجية تحدى بالامبراطورية ، فالخطر الفارسي قائم على حدود الامبراطورية من جهة الشرق ، كما ان خطر القبائل الجرمانية على نهر الدانوب والراين في الغرب أصبح أقوى وأشد . وكان ذلك بسبب ظهور قبائل الهون Huns . هذا الخطر الذي توقف لبعض الوقت عندما قضى القيصر جوليان Julian ابن عم الامبراطور على هذا الغزو . وقد أعلى هذا الانتصار من شأن جوليان فنادى به جنوده امبراطوراً عام ٣٦٠ م ، ولكن قسطنطيوس توفي قبل أن تنشى الثورة في البلاد فخلفه جوليان على العرش دون اراقة دماء .

جوليان Julian ٣٦١ - ٣٦٣ م .

كان الاهتمام بتوفير الأمن والرفاهية للرعية هي شغل جوليان الشاغل ، وكان يخصص اوقات الفراغ الشتوية التي اعتاد قضاءها في باريس في أعمال الإدارة المدنية . ولقد وجد جوليان متعة في شخصية الحاكم والقاضي أكثر من شخصية القائد العسكري . وكان من عاداته ايضاً قبل ان يذهب للحرب إحالة معظم القضايا العامة والخاصة إلى حكام الولايات حتى إذا عاد راجع كل اعمالهم . كما أعاد جوليان معظم مدن غاله الى سابق عهدا بعد ان ظلت ردياً طويلاً من الزمن عرضة للاضطرابات الأهلية وحروب المتبريرين . وانتعشت روح الاقبال على العمل أملا في المتعة والتعم ، وازدهرت الصناعة والتجارة مرة أخرى تحت حماية القوانين . وزخرت الهيئات المدنية مرة أخرى بالأعضاء النابغين المرموقين ، وتجلى الرخاء الوطني ورغد العيش في كثرة الاتصالات بين الأقاليم وبعضها .

ولم يكن كل هذا سبباً في شهرة جوليان التاريخية ، بل اكتسب شهرته بارتدائه الى الوثنية . وقد كان معروفاً بهذه الميل من قبل بسبب

نشأته . وبعد ان اصبح امبراطوراً أعلن عن ذلك صراحة وأصدر مرسوماً يقضي بفتح المعابد الوثنية وتقديم القرابين على المذابيح من اجل عبادة الآلهة . ولا شك أن مثل هذا العمل قد انعش آمال الوثنيين بعدما عادت لهم الحقوق الدينية والسياسية . وحتى لا يفضب جوليان رجال الدين المسيحي فإنه دعاهم الى قصره كما دعا رجال الدين الوثنيين وأعلن لهم انه يريد ان تعيش الامبراطورية في تسامح ، ولكل فرد الحرية في اختيار الدين الذي يراه . وبذلك نقول ان جوليان حدا حذر قسطنطين من الجانب المضاد ، فإن كان قسطنطين اعترف بالديانة المسيحية ثم مال اليها في آخر الأمر ، فإنه على العكس نجد جوليان اعاد للوثنية كيانها في اول الأمر ثم عاد اليها بعد ذلك . فقد أبعد جوليان المسيحيين من الوظائف العليا وأحل محلهم الوثنيين ، كما رفع الرموز والصلبان المسيحية من ييارق الجيش واسلحة الجنود ووضع مكانها شارات وثنية ، كما منع تعيين المدرسين المسيحيين في المدارس وجعل هذه الوظائف مقصورة على الوثنيين حتى يشب الجيل الجديد وهو متشرب بالديانة الوثنية . وكان في ذلك ضربة قاصمة للمسيحية لأن بعض المدرسين من المسيحيين تحولوا الى الوثنية حتى يحافظوا على وظائفهم .

جوليان Jovian ٣٦٣ - ٣٦٤ م .

ورغم كل هذا فإن هذه الحركة انتهت بالإخفاق ، فلم يعد العالم متقبلاً للوثنية وكانت المسيحية أنسب له . وأن كان جوليان قد فشل في هذا الجانب فإنه فشل ايضاً في الجانب العسكري ، فلقد حاول غزو فارس وأمعن في تقدمه ولكنه مات أثناء عرده في عام ٣٦٣ م . فانتخب الجيش قائداً مسيحياً يدعى جرنيان الذي وقع معاهدة مهينة تقضي بهدنة لمدة ثلاثين عاماً نظير تنازله عن اربع ولايات ، كما تنازل ايضاً عن سيادة الامبراطورية على دولة أرمينيا ، ولكن هذا الامبراطور الجديد ما لبث أن مات في العام التالي ٣٦٤ م .

فالتز Valens ٣٦٤ - ٣٧٨ م .

نادى الجيش بالقائد فالتيان امبراطوراً بعد وفاة جوفيان . وقد أثر فالتيان أن يحكم الامبراطورية من روما ، لذلك ترك أخاه فالتز امبراطوراً شريكاً له في القسطنطينية . وكان فالتز هذا يعتنق المسيحية على المذهب الاربوسي فكرمه الناس واعتبروه مهرطناً ، ولذلك اتسم حكمه بالفتن المتواصلة . وكانت نهايته عندما دفع الهون بالقوط الغربيين الى حدود الامبراطورية حيث حصلوا على إذن من الامبراطور بعبور نهر الدانوب والاستقرار داخل الامبراطورية ، ويلاحظ ان هذه الحادثة تعتبر بداية استقرار البرابرة داخل حدود الامبراطورية . وعلى اية حال لم يستقر السلام بين الجموع الدخيلة وبين موظفي الامبراطورية ، وعندما شجر النزاع بينهم زحف القوط الى القسطنطينية فخرج فالتز لملاقاتهم على عجل دون ان يتظر المدد القادم من الغرب فلقى جيشه هزيمة قاسية في معركة أدونة عام ٣٧٨ م . وقتل فالتز في هذه المعركة ويموته تظهر أسرة جديدة على عرش الامبراطورية وهي أسرة ثيودوسيوس Theodosius .

تاريخ أوروبا جدير بالدراسة، فهي لم تصل إلي ما وصلت إليه من علم وثقافة واخترع وابتكار واحترام لمبادئ الحرية والديمقراطية والمساواة إلا بعد أن مرت بعصور مظلمة مازالوا يخلون منها. تلك هي الفترة بين سقوط روما وسقوط القسطنطينية. ولكي نبدأ التاريخ مع بدايته نقول باختصار: اعتنق الإمبراطور قسطنطين المسيحية بعد أن كان أسلافه يعذبون المسيحيين بهدف القضاء علي تلك العقيدة الجديدة التي تنكر عبادة الأوثان، تنادي بالرحمة والمحبة، وبوحدة الإنسانية ورفض الاستعباد. انتقل قسطنطين إلي الشرق وأسس القسطنطينية. اهتم بشنون الدين أصدر مرسوما سنة ٣١٣ للسماح بالمسيحية ومنع الاضطهاد ودعا لتوحيد الكنائس. خلفه تيودوسيوس وكان متزمتا فقام بهدم المعابد الوثنية ومنع أي ديانة أخرى غير المسيحية، وأصبح لرجال الدين وآرائهم مكانة خاصة.

ثم انهارت الامبراطورية الرومانية أمام القبائل الجرمانية، وانهزمت القوي السياسية والعسكرية. انقسمت البلاد وتوزعت السلطة المركزية علي المحليات التي استولي النبلاء علي أجزائها. وظهر نظام الإقطاع في مجموعات ضعيفة متناثرة، لم يبق في الساحة واقفا سوي السلطة الدينية منفردة والافراد بالسلطة يفسد، سيطر رجال الدين علي القرار وعلي العقول.. جعلوا ينشرون ما يرون من مبادئ، يفسرون الآيات حسب مصالحهم وليس بما جاء بالإنجيل، بدأ رجال الدين يستمدون السلطة الدنيوية، تناسوا رسالتهم الروحية السماوية، واهتموا بأمور الدنيا، وتمسكوا بالسيطرة التي تلغي العقل والفكر والرأي والمبادرة، اعطوا لأنفسهم حق الادانة والعقاب، اصبحت الفتوي صنعة من لا صنعة له، وحققوا منها ثراء واسعا نصبوا أنفسهم مشرعين ومحاسبين وقضاة ومنفذين للأحكام الصادرة ضد أي فكر يقوض سلطاتهم أو يسمح للإنسان أن يفكر لنفسه. (فرضوا علي الشعوب كيف يفكرون وماذا يفعلون وماذا يقولون بل وأي ملابس يرتدون)، حرم المفكرون من الحق في إبداء الرأي أو الاختلاف ومجادلة الحجة بالحجة.

عندما أراد البابا جيريجوري السابع تجميع القوي المحاربة في أوروبا حوله قام بحروب الفرنجة - التي يطلق عليها خطأ الصليبية لأن الجنود كانوا يرسمون الصليب علي ملابسهم - وعندما فشل أن يجد آية في الإنجيل تبرر الغزو ادعي انها لحماية المقدسات المسيحية في فلسطين. وهناك قتل العرب المسيحيين والمسلمين واليهود وكهنة الكنيسة الشرقية علي حد سواء بل قاموا بغزو مماثل لقمع الكاثوليك في جنوب فرنسا لعصيانهم الأوامر، اضطهدوا كل من تجرأ علي تقديم فكر مستنير.. هؤلاء حوكموا وصدرت ضدهم أحكام بالعقاب والنفي وتوقيع الغرامات بأشكالها، وإن أراد صاحب فكر الدفاع عنهم عوقب بدوره. ارتكبوا الجرائم باسم الدين وقتلوا الأبرياء باسم العقيدة وهي منهم براء، فرقوا بين الأزواج، شككوا الإنسان في كل ما يفعل وكل من حوله وجرموا كل سلوك قد يؤدي الي يقظة عقلية جعلوا الكتابة خطيئة، والقراءة خطيئة، والفن عثرة، والمبادرة بالرأي انحرافا يستحق العقاب.

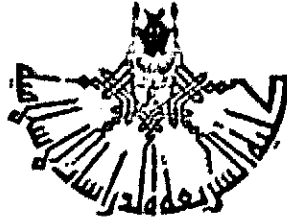
قامت محاكم التفتيش لعقاب المخالفين وصدرت صكوك الغفران والفتاوي لمكافحة الملتزمين، رفضوا المعتقدات الأخرى جميعها وتصوروا أن عقيدتهم وحدها صحيحة.

كانوا يخشون أكثر ما يخشون ليس العدو لكنهم كانوا يخشون عقل الإنسان.. الذي هو أروع وأعظم هبة من الخالق للمخلوق فهو الذي يمكنه من أن يثور ضد سلطانهم وينتقص مما يتمتعون به من مزايا ومكاسب. كان النور عدوهم الأول فالنور يظهر الحقائق ويوضح الأمور ويضع كل شيء في نصابه الصحيح وحجمه الطبيعي. اذا غاب النور ساد ظلام لا رؤية فيه ليتخبط البشر ويتطاحنوا صراعا حول ما لا يعرفون.. ولا يدركون ما يفعلون لأنهم لا يرون بعد أن فقدوا الرؤية والرؤى.

عندما قدم كوبرنيكس نظريته التي تقول إن الأرض جرم سماوي متحرك اعتبر زنديقا يستحق الموت، وعندما أيده جاليليو اعتبر مخالفا لتعاليم الكنيسة الكاثوليكية وحكم عليه بالاقامة الجبرية خارج روما مدي الحياة. وضعوا قائمة بالكتب المحرمة وكانوا يعاقبون من يحوزها بما فيها كتب ابن رشد حول تفضيل العقل علي النقل، رفضوا مدرسة ارسطو لانها تقوم علي العقل والمنطق ولا تناسب الهيمنة الدينية، استعملوا اسلوب الحرمان من الكنيسة لعقاب كل من خالفهم حتي لو كان امبرطورا مثل هنري الرابع في المانيا لانه رفض تسلطهم، وفريدريك الثاني (أعجوبة الدنيا) لتمرده، تمسكوا بمظاهر الاخلاق بسلوك غير اخلاقي ضد الدين رفضوا الفكر العلمي بل كفروه وانتشرت الخرافات والخزعبلات والتفسير الديني للظواهر الطبيعية والاجتماعية، انتشر ظلام خيم علي العقول فتوقفت، ساد الخوف والجمود، ارتد الزمان وتوقفت مسيرة العلم والتقدم.

عندما اراد شاعر ان يصور احوال الموقف قال: لو ان عصفورا تغني بصوته الملائكي.. لعوقب لانه لم يردد الاغاني الدينية ولعلمهم عاقبوا عصفورا علي شذوه!؟

لكن.. هذه الاحوال الظالمة والمظلمة ما كان يمكن ان تستمر لأن الله - سبحانه - يجرب البشر ولا ينسأهم وصحيح العقائد السماوية لا بد ان يظهر يوما وينتصر لها، اما كيف كان الخروج من تلك الحقبة الي التحرر والنور والمعرفة.. فهذه قضية أخرى.



الاختبار النهائي للفصل الدراسي الثاني ١٤٣٤هـ / ١٤٣٥هـ

المادة : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى . رقم المجموعة () رقم التمسيل ()

اسم الطالب /

الرقم الجامعي /

استعن بالله ثم أجب عن الأسئلة الآتية ولا تدع قلمك يسبق فكرك . (نموذج رقم ٤)

السؤال الأول :

- تاريخ أوروبا جدير بالدراسة فهي لم تصل إلى ما وصلت إليه من علم وثقافة واختراع وابتكار وتقدم إلا بعد أن تعلمت من الفترة ما بين سقوط روما إلى سقوط القسطنطينية . ناقش أهم نظريات بداية العصور الوسطى .

السؤال الثاني :

- اكتب مقالا تاريخيًا عن نشأة الرهبنة في أوروبا العصور الوسطى وعن أهم الحركات الإصلاحية التي دعت لإصلاح الحياة الدينية في أوروبا القرن التاسع الميلادي . مع إبداء الرأي.

السؤال الثالث :

- ١ - في رأيك ما هي أهم معالم حكم شارلمان ومميزات عصره ؟
- ٢ - تحدث عن مشروع (أوتو الكبير) وحلم إعادة تأسيس الإمبراطورية الرومانية الغربية .
- ٣ - هل كان قسطنطين مسيحيًا حقًا؟ وضح ذلك مع إبداء رأيك .

سؤال خاص لمن لم يختبر الشهري :

- ١- تحدث عن أهم المميزات والخصائص العامة للعصور الوسطى الأوروبية ؟ مع إبداء الرأي .
- ٢- اعرض لأهم النظريات التي دارت حول نهاية العصور الوسطى ؟

والله الموفق والمستعان ،،،

**ابني الطالب : لا يوجد سقف يسجد من هريتك في طرح الأفكار ، ولست مقيداً بتأييد أو معاراة ما طرُح أثناء المحاضرات .

** ابني الطالب : التقييم سيتم على أساس الجراءة على طرح الأفكار ووجهات النظر ، ومن ثم تنظيمها والتدليل عليها ،

وليس على كم المعلومات التي ستسردها .



أوكتافيان أغسطس

كان أوكتافيان حفيدا لجوليا شقيقة قيصر، وقد تبناه قيصر وخلع عليه اسمه وأعد له لكرسيه في الحكم من بعده. أقدم أوكتافيان على خطوات هامة في إدارة إمبراطوريته الشاسعة التي امتدت من اسكتلندا في الغرب حتى نهر الفرات في الشرق، ومن نهر الدانوب شمالا حتى بلاد النوبة جنوبا، فخفض فيالقه من ستين إلى ثمانية عشر فيلقا، وقام بتوطين أكثر من مائة ألف من قدامى المحاربين الرومان في الولايات الإمبراطورية في الشمال الأفريقي والشام وآسيا الصغرى. وقد تحملت الحضارة المصرية تعقبة ثقافات هذا التوطين بعد أن أصبحت مصر ولاية رومانية.

هنا، وقد شغل أوكتافيان منصب القنصلية دون انقطاع ما بين عامي ٣١ ق م، ثم حوله السيناتو بسلطات عليا على كل فرق الجيش في الولايات الإمبراطورية. واختار أوكتافيان لنفسه لقب «المواطن الأول» (Princeps)، ثم خفض عدد أعضاء السيناتو من ألف إلى ستمائة

عضوا، مع الاحتفاظ لنفسه بحق تعيين من

يراه مناسبا للعضوية. وفي نهاية الأمر صار

أوكتافيان - أو أغسطس (الطيب) كما صار

يعرف - يجمع في يده سلطات القناصل

الأعلى للجيش الرومانية وصلاحيات التريون

أو القاضى الأكبر. وفي سنة ١٣ ق م اتخذ لقب

«الكاهن الأكبر» (Pontifex Maximus)، وهكذا جمع

في شخصه السلطين الزمنية والدينية.

آداب العصر

ومع الإحساس بالسلام في الإمبراطورية، ازدهرت

الفنون والآداب على يد عديد من كتاب العصر وعلى رأسهم

فرجيل، وليش، وهوراس، وأجربيا، ومايكيناس. وقد أنتج

الشاعر فرجيل ملحمة الخالدة «إنياس» مؤسس مدينة

روما الأسطورية، وجعل من بطله إنياس المثل الأعلى

للكناح ومغالبه ثقلبات الأوقات والحكمة والتسوى

والنضال من أجل الواجب. أما ليش فقد تفقّق تاريخ

روما منذ البدء حتى عصر أغسطس، مفرجا على لحظات



الإمبراطور أغسطس



روما تتعق من بنائها الفصل الأول

يومبى وقيصصر

في سنة ٤٩ ق م اشتملت الحرب الأهلية بين الزعيمين الرومانيين يومبى وقيصصر، وقد حلت الهزيمة بيومبى في معركة فرسالوس ببلاد اليونان، ففر إلى مصر، حيث قتل في العام التالى. وبعدها بسنوات أربع أعلن يوليوس قيصر دكتاتورا مطلقا، على أن النيورين على الشغلايد الجمهورية في مجلس السيناتو قاموا باغتيااله في قلب للجلس في ١٥ مارس ٤٤ ق م.

مارك أنطونى

واشتملت الحرب الأهلية من جديد بين معسكر أوكتافيان ومارك أنطونى وليبيدوس من ناحية، وبين يروتوس وكاسيوس من ناحية أخرى. وقد جرّ هذا الصراع الدامى أطرافا أخرى إلى ساحة القتال، فمقد وقف البارثيون مع معسكر يروتوس، بينما آقت مصر بقلها وراه ملكيها كليوباترا وعشيقها الرومانى مارك أنطونى. وبعد هزيمة يروتوس وكاسيوس في معركة فيلبى

يوليوس قيصر

سنة ٤٢ ق م ببلاد اليونان، كون التصرون حلفا ضم أوكتافيان ومارك أنطونى وليبيدوس. ولكن الخلاف سرعان ما دب بين الحلفاء، فأزبح ليبيدوس سنة ٣٦ ق م، ثم ما لبث الحلف أن نشب بين أوكتافيان ومارك أنطونى. وفي سبتمبر ٣١ ق م ألحق أوكتافيان الهزيمة بمارك أنطونى وحليفته كليوباترا في موقعة أكتيوم البحرية ببلاد اليونان أيضا. وبانتهاء أنطونى وكليوباترا عملا المسح تماما لأوكتافيان.





أوكتافيان أغسطس

كان أوكتافيان حفيدا لجوليا شقيقة قيصر، وقد تبناه قيصر وخلع عليه اسمه وأعد له إخلفه في الحكم من بعده. أقدم أوكتافيان على خطوات هامة في إدارة إمبراطوريته الناشئة التي امتدت من اسكتلندا في الغرب حتى نهر الفرات في الشرق، ومن نهر الدانوب شمالا حتى بلاد النوبة جنوبا، فخفض فيالقه من ستين إلى ثمانية عشر فيلقا، وقام بتوطين أكثر من مائة ألف من قدامى المحاربين الرومان في الولايات الإمبراطورية في الشمال الأفريقي والشام وآسيا الصغرى. وقد تحملت الحضارة المصرية تغذية نفقات هذا التوطين بعد أن أصبحت مصر ولاية رومانية.

هذا، وقد شغل أوكتافيان منصب الفصالية دون انقطاع ما بين عامي ٣١، ٢٣ ق م، ثم خوله السيناتو بسلطات عليا على كل فرق الجيش في الولايات الإمبراطورية. واختار أوكتافيان لنفسه لقب «المواطن الأول» (Princeps)، ثم خفض عدد أعضاء السيناتو من ألف إلى ستينائة

عضوا، مع الاحتفاظ لنفسه بحق تعيين من يراه مناسبا للمضوية. وفي نهاية الأمر صار أوكتافيان - أو أغسطس (التهيب) كما صار

يعرف - يجمع في يديه سلطات القائد

الأعلى للجيش الرومانية وصلاحيات التريون

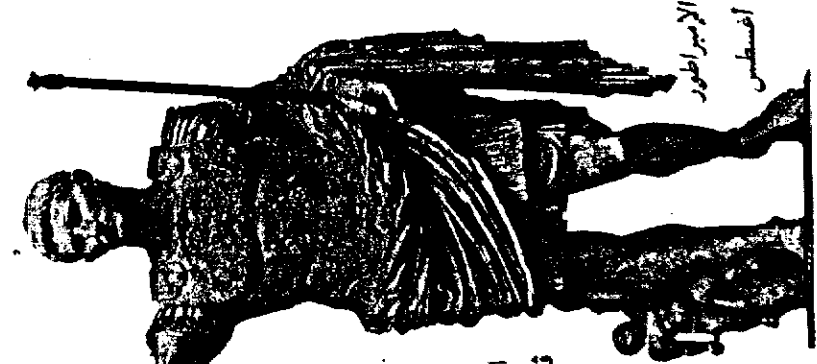
أو القاضى الأكبر. وفي سنة ١٣ ق م اتخذ لقب

«الكاهن الأكبر» (Pontifex Maximus)، وهكذا جمع

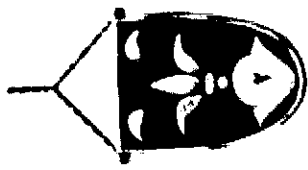
في شخصه السلطين الزمنية والدينية.

آداب العصر

ومع الإحساس بالسلام في الإمبراطورية، ازدهرت الفنون والآداب على يد عديد من كساب العصر وعلى رأسهم فرجيل، وليقى، وهوراس، وأجربيا، ومايكياس. وقد أنتج الشاعر فرجيل ملحمة الخالدة «إنياس» مؤسس مدينة روما الأسطورية، وجعل من بطله إنياس النثل الأعلى للكفاح ومغالبة قلبات الأوقات والحكمة والتفوى والنفاى من أجل الواجب. أما ليشى فقد تفتى تاريخ روما منذ البدء حتى عصر أغسطس، مُرجعا على لحظات



الإمبراطور أغسطس



الفصل الأول

رومانى من بناها

يوميى وقيصر

في سنة ٤٩ ق م اشتعلت الحرب الأهلية بين الزعيمين الرومانيين يوميى وقيصر، وقد حلت الهزيمة بيوميى في معركة فرمالوس ببلاد اليونان، ففر إلى مصر، حيث قتل في العام التالى. وبعدها بستوات أربع أعلن يوليوس قيصر دكتاتورا مطلقا، على أن الفيورين على التقاليد الجهورية فى مجلس السيناتو قاموا باختياره فى قلب المجلس فى ١٥ مارس ٤٤ ق م.

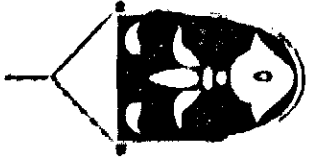
مارك أنطونى

واشتعلت الحرب الأهلية من جديد بين معسكر أوكتافيان ومارك أنطونى وليبيدوس من ناحية، وبين بروتوس وكاسيوس من ناحية أخرى. وقد جسر هذا الصراع الدامى أطرافا أخرى إلى ساحة القتال، فقد وقف البارثيون مع معسكر بروتوس، بينما أقت مصر بقلها وراء ملكيها كليوباترا وعشيقها الرومانى مارك أنطونى. وبعد هزيمة بروتوس وكاسيوس فى معركة فيلبى

سنة ٤٢ ق م ببلاد اليونان، كون النصر حلفا ضم أوكتافيان ومارك أنطونى وليبيدوس. ولكن الحلاف سرعان ما دب بين الحلفاء، فأربح ليبيدوس سنة ٣٦ ق م، ثم ما لبث الحلاف أن نشب بين أوكتافيان ومارك أنطونى. وفى سبتمبر ٣١ ق م الحق أوكتافيان الهزيمة بمارك أنطونى وحليفته كليوباترا فى موقعة أكتيوم البحرية ببلاد اليونان أيضا. وبانتهاء أنطونى وكليوباترا خلا المسح تماما لأوكتافيان.



يوليوس قيصر



ونيرقا، وتراجان، وهادريان، وأنتونينوس بايوس، ثم ماركوس أوريليوس (٧٩ - ١٨٠م). غير أنه في سنة ١٩٣م فرض الحرس البرايتوري ضابطا اسمه بريتياكس للجلوس على العرش الإمبراطوري، وذلك بدأت سابقة خطيرة في الحكم الروماني. ويلاحظ أنه من بين الثلاثة وعشرين إمبراطورا الذين حكموا في القرن الثالث حتى مجيء الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤م)، هلك عشرون منهم في الصراع على كرسي الحكم. وخلال هذا الصراع على السلطة دمرت مدن أنطاكية، وبيزنطة، وليون، وأعدم عدد من أعضاء السيناتور.

ولعل من أهم التغيرات التي طرأت على المجتمع الروماني في تلك الحقبة أن عددا وافرا من أبناء الطبقة الوسطى تحت وقع الضرائب الثقيلة قد تننوا إلى مستوى الطبقات الدنيا (Humiliores)، وهكذا بعد أن كان المجتمع الروماني يضم طبقات ثلاثا: عليا ووسطى ودنيا، لم يعد هناك غير طبقتين العليا والسفلى واختفت تماما الطبقة الوسطى.

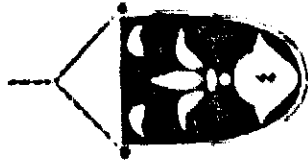
من التحولات الخطيرة أيضا في القرن الثالث للميلاد، انهيار نظام دولة المدينة (Polis)، وسقوط سماتها الحضارية من دستورية وعدالة اجتماعية وسيادة السلام. وقد كان طبيعا مع هذا التدهور أن تتحول أحوال الشعب الروماني إلى الغرضائية، كما تحكم البرابرة الجرمان من الضباط المرتزة في مصير الحكم والحكام.

الحرس الإمبراطوري

ولعل أخطر التحولات جميعا ما حدث للمواطن الأول، أي الإمبراطور نفسه، ففي أيام مجده الأولى كان يملك كل السلطان الديني والديني، وكان عقاب من يجرؤ على مخالفته الإعدام أو مصادرة الأملاك، أو الانتحار. على أنه عندما تحل نظام الحكم وصارت الأمور بيد الحرس الإمبراطوري من الجند المرتزة، صار الإمبراطور مجرد دمية في أيدي هذا الحرس الذي بات يخلع ويقتل ويعين من يشاء من الجنرالات وأعضاء السيناتور للجلوس على العرش؛ وذلك مقابل رشوة دسمة لقادة الحرس. ومع هذا التدهور انقطعت الصلة تماما بين الحاكم والرسعة، وانتهزت المجالس المحلية في الولايات الفرصة للنهب والسلب واكتناز المال. ومع هذا التدهور السياسي والاقتصادي والاجتماعي لجأ الناس إلى اللذات الحسية هروبا من الواقع المر الأليم، وغض المجتمع الروماني بالانتهازيين والمرابين والمعاطلين ومحدثي النعمة، وهذه جميعا علامات الانقسام ومؤشرات إلى اقتراب النهاية.

المجالدون

ولكى نستشف روح العصر علينا أن نقف في آدابه وفلسفاته السائدة في حديثه عن رياضة المجالدين (Gladiatoers) وهي الرياضة التي ملكت على قلوب الرومان من خاصة وعامة. يقول



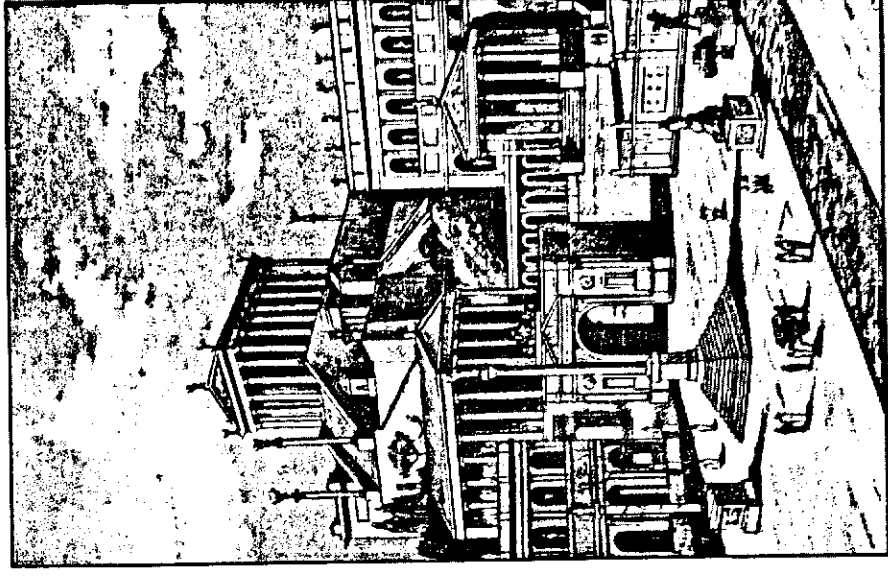
الفخار والبطولة في سجلاتها. وخاطب في «أناشيده» فضائل الرومان وأسهم، موصيا بضرورة الرجوع إلى طرائق البساطة الأولى.

وكذلك ارتقت الفنون التشكيلية في عهد أغسطس، ومن روائع العصر:

منبع السلام الرخامي، وميادين السوق، ومعابد قيصر وجوليا وإيليا، ومنصة الخطباء. هذا إلى جانب المسارح والحمامات العامة والمتنزهات والبحيرات الصناعية والكنيات. ونظرا لاستخدام الرخام بكثرة في أعمال البناء والترميم في عصر أغسطس، فإن كاتب سيرته سيوتونيوس قد لاحظ أن سيده قد تسلم روما وهي مبنية من الطوب ثم تركها وهي من الرخام.

الصراع على الحكم

توفي أغسطس سنة ١٤م، فخلفه في الحكم ابنه بالتبني طيبريوس (١٤ - ٣٧م)، وكان جنديا ماهرا وشجاعا، وسار على درب أغسطس في سياسته الخارجية والداخلية. ولكن خلفاء طيبريوس الثلاثة كانوا سبة في جبين البيت الحاكم، فقد كان أولهم مجنونا (كاليغولا ٣٧ - ٤١م)، وكان الثاني نافها (كلوديوس ٤١ - ٤٥م)؛ والثالث معتوها متوحشا (نيرون ٥٤ - ٦٨م). ويقفل نيرون انتهى بيت قيصر - أغسطس، فظهر على المسرح أربعة قادة يتكالبون على العرش، وهلك في الصراع خمسون ألف نسمة في مدينة روما وحدها في صام واحد. وانتهى الأمر بغور قسباسيان (٦٩ - ٧٩م)، وبدأ سلسلة من الأباطرة الأقوياء وهم: تيتوس، ودوميتيان،



مدينة روما - رسم تخيلي

كانت المجالدات تتم في أول الأمر في الساحة العامة لمدينة روما، وكان ضحاياها من المحكوم عليهم بقتل الإعدام، أو من الأسرى في الحرب من غال، وأسيان، وتراقين، وجرمان، وأغارقة، وسورين، وآسيوين. ومع انهيار الجمهورية الرومانية وقيام العصر الإمبراطوري بدأ الرومان أنفسهم يشاركون في المجالدة. ويمكس هذا التحول شعورا باليأس واشتياق الموت لدى الرومان، كما عسر عن ذلك الكاتب كيربان (قرن ٣م). وكان على المجالدة أن يقسم بينا بأن

يتحمل ما يحل به من جسر أو وثاق أو تقطع بالسيف. ولم يكن هذا القسم موجها كالعادة للآلهة في الكاثوليك (الآلهة العلوية) وإنما إلى الآلهة السفلية من سادة الموت وأمراء دروب الظلمات (Dei inferi).

هذه الروح، روح اشتياق الموت لدى الرومان والتي عبر عنها تيرانس (قرن ٢ ق م) ظلت لصيقة بالأداب اللاتينية، فقد استخدمها بعد ذلك بسنة قرون القديس أغسطينوس عندما شبه الخاطيء اليائس من الرحمة الإلهية بهؤلاء المجالدين الذين كتبوا على أنفسهم الهلاك. وهكذا تحول جمهور السيرك الروماني وقصرهم جميعا إلى جلادين،

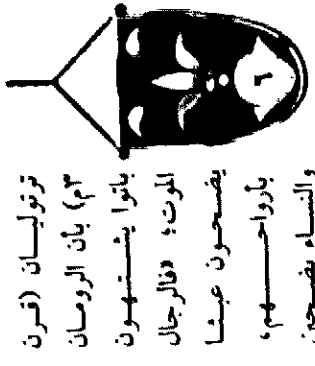
انتصار «كلويارترا»



احتفالات السيرك - لوحة من النيفساء - العصر الروماني



آثار مدينة روما



تروتوليان (قرن ٣م) بأن الرومان باتوا يشتهون الموت؛ «فالرجال يضحون عيشا بأرواحهم، والنساء يضحين بأجسادهن، وفي الحالين امتهان لكرامة الإنسان روحا وجسدا».

ويذكر في هذا الصدد أنه في سنة ١٧٤ ق م تجالده أربعة وسبعون رجلا على شرف روح والد تيتوس فلاقيوس. وبعد انتصار قيصر على يومى في واقعة فرسالوس، أقام قيصر حفل مجالدات بين مستماتة من الرجال ابتهاجا بالنصر، وكان قيصر يريد المزيد من المجالدين لولا اعتراض السيناتور على ذلك. وأما أغسطس فقد بلغ المجالدون في عهده عشرة آلاف من الرجال، وبعد أن ضم الإمبراطور تراجان ولاية داكيا إلى حظيرة الإمبراطورية، ظل آلاف المجالدين يقتلون واحدتهم الآخر في احتفال دام أربعة أشهر كاملة.



ويشبه الفيلسوف سنيكا المواطنين الرومان عن بكرة أيهم بحشد واقر من المجالدين الذين لا أمل لهم في الحياة الكريمة، فليس ثمة وطن مأمون، ولا قضية يكافحون من أجلها، ولا عدو واضح المعالم أمامهم، وإنما بات المواطن يقتل مواطنًا آخر دون سب معقول إلا شهوة في الموت.

ولقد فسر المعاصرون سفك الدماء الغزيرة في السيرك في الاحتفالات التي أقامها يوليوس قيصر سنة ٤٦ ق م على أنها خيبة لتمطش قيصر للمزيد من الدماء. كما أن نهاية شيشيرون الخطيب الروماني المرموق، في ٧ ديسمبر سنة ٤٣ ق م، في أعقاب مهاجمته لاستبداد قيصر، قد جاءت شبيهة بطقوس المجادلة، فعندما هاجمه زبانية قيصر وهو في محفته في شوارع روما، مد لهم شيشيرون عقه

طواعية لتطيح بها السيوف وهو في حال استسلام كامل. كما فسر البيض هذا الدم المهرق في السيرك والشارع الروماني على أنه طقس ونسب تروى من خلاله ربة الأقدار المتقمة «نيميسيس» (Nemesis)، جزاء وفاقا لأوامر الرومان.

كاليجيولا

يلاحظ أيضا أن روما قد ابتليت بعدد وانفس من الأباطرة الشهوسين بناء جنون العظمة، وكلما ازداد جنون القيصر ازدادت معه رذيلة الفئاق الاجتماعي المتعمدة شعائره من ساحة المجادلة: ويرى لنا سيوتوتوبوس كيف أن اثنين من منافقي البلاط في عهد الإمبراطور المنخل كاليجيولا وهما سيكوندوس وإفرائيوس أقسما عندما اعتلت صحة الإمبراطور بأن يدخلوا ساحة المجادلة إن منت الأبهة بالشفاء على صاحب المجلاة. وحدث أن شفى صاحب المجلاة من وعكته، فطلب من الاثنين المبادرة بتنفيذ وعديهما، وكان له ما أراد!

الصارعة حتى الموت



وصار «استعداد الموت» (amor mortis) وية رومانيا، ومع ترسخ هذه العلة من السادية والماسوكية في نفوس الرومان، رفع الرومان من رذيلة إهدار كرامة الإنسانية والتلذذ بهذه المهانة حتى صارت واحدة من فضائلهم!

وجريا وراء هذه القسوة اللا آدمية صار مألوقا عن الرومان إعدام أسرى الحرب بالجمل، وقتل الفارين من ميدان القتال دون محاكمة، وتعذيب الشهود في قضايا المحاكم. والتطور الآخر في هذا المجال أن الكثيرين من أبناء الشيوخ الرومان وطبقة الفرسان قد تحاملوا على القوائين ودخلوا ساحة المجادلة ولكأنهم يشتهون العار والموت معا، وهذا دليل دامغ على تسرب روح القنوط واليأس إلى نفوس المجتمع الروماني من عامة وخاصة.

ويروج «لوكان» هذا التدهور الأخلاقي إلى أيام الصراع بين ماريوس وسوللا (قرن ١ ق م)، وما تبع ذلك من حمامات الدم بعد سيطرة ماريوس على روما. كما يمثل عام ٣١ ق م، سنة انتصار أوكتافيوس أغسطس على خصومه وخروجه سيدا أوحدا على الإمبراطورية، بالنسبة للكثيرين حربا غير متكافئة بين مسكرين غير متكافئين، وبأنه بعد انتصار أغسطس والتحار أنطوني وكليوباترا، صار التقليد في المجتمع الجديد الركع أرضا لتقبل قدم «المواطن الأول»، وبات الفئاق السيل الأمل للنساق على سلم القيصر «المؤله». وقد عبر عن هذا التدهور والانحطاط خبير الفيلسوف إبيكتيوس بقوله: «كم من المهانة بات على المرء أن يتحملها كي يصبح مرسوقا في روما... لقد بات علينا أن نقبل القدم، وأن نلثم أيدى العبيد من حشم وخدم حتى يتم علينا بالوظائف العليا والقاب الشرف في الدولة». ثم يوجه الكاتب حديثه إلى واحد من أرسنطراطية روما الذي كان قد شغل منصب القنصلية مرتين قائلا له: «إنك لا تعدو أن تكون عبدا كأي عبد آخر بيع مرات ثلاثا في أسواق النخاسة، رغم أنك لم تعرض سلعة في أسواق العبيد، ورغم أنك قد تحدرت من أب وأم من الأحرار... ولكنك الآن لا تملك إلا أن تصيح واحدا من كثيرين تحت مظلة السيد القيصر... وهذا الشعور بالأمان الكاذب هو العبودية نفسها... إن سيدكم يسلك بالسوط تماما مظلما يفعل تاجر النخاسة».

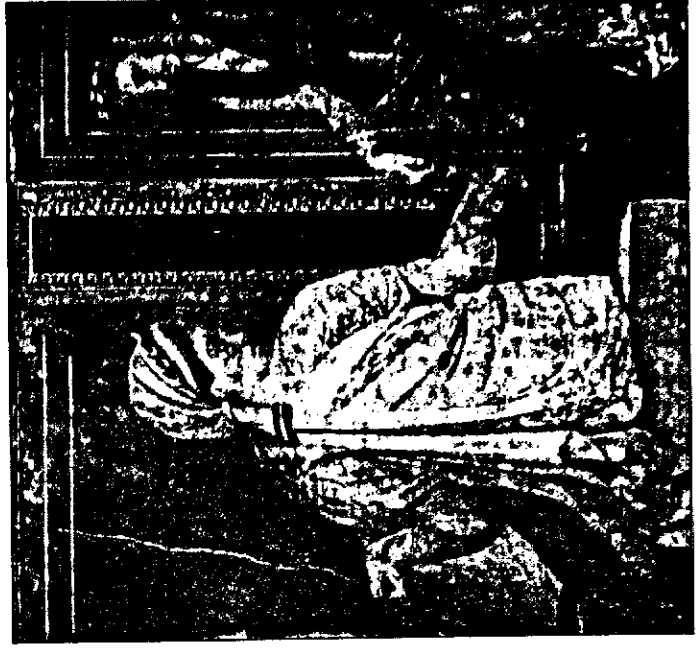
ليس غريبا في هذا الجو الخيف أن يقبل الجميع في روما على ساحة المجادلة، فهي أصدق الساحات للتعبير عن حال المجتمع الروماني وهو في مهيب الريح. وقد وصل الحد في السيرك إلى أن الجلادين كانوا يستعيقون بقضبان من الحديد المتهب لطائرة خصومهم في ساحة القتال. ويمكن تفسير المجالدة أيضا على أنها ضرب من ضروب الإلهاء لانتزاع التصفيق من الغوغاء في السيرك لشجاعة رائفة، بعد أن فشلت الفائق الرومانية في ميادين القتال ضد البارثيين في الشرق وضد جماعة الجرمان على الراين والدانوب، فهي على حد تفسير تروتيان «عزاء» (Solacium) للمصبح.



ويعد أن تغفل اليأس في نفوس الرومان، نمت في ضمائرهم مشاعر شبه رومانسية مع الموت نفسه، وصار المجال يرمز إلى عدة أمور، فهو عند الطبقات المغلوبة على أمرها يرمز إلى الأمل الضائع، وعند الخاصة من الأحرار والميسورين يمثل حالة من الانتحار الرواقسي، بعد أن مل أصحابه حياة الدعة والفجور. وعندما كتب بترينيوس قصة «أرملة إيسوس»، وذلك في عهد الإمبراطور المختل نيرون، فإنه كان يشير من طرف خفي إلى التدهور الذي أصاب المجتمع الروماني آنذاك. وتنبؤ القصة حول تلك الزوجة الشابة الجميلة التي مات زوجها، وعندما دفن في قبره رفضت أن تسبح القبر. ولما أن باتت رائحة الجثة المدفونة تزكم الأنوف، ارتقت الخادمة على سيدتها الخزينة تتوسل إليها بالخروج من عالم الموتى وآلا تدفن نفسها حية هكذا، ثم قدمت الخادمة لسيدتها كسرة من الخبز لتفتح شهيتها من جديد. وفجأة حدث تحول رهيب في سيكولوجية المرأة، إذ بادرت بهجران القبر، وأقبلت على الحياة في نهم زائد، وانغمست في كل ما هو حسي ولذيق وفاجر، حتى غدت امرأة كل عرديد في المدينة. وانتهى بها المطاف بقيامها برحلة إلى قبر زوجها، فأخرجت عظامه من التراب وراحت تشر عليها الأشواك وتوحلها بالتراب والسباب!

يتفق المصابرون على أن الحرب الأهلية في روما هي المشهورة عن الشرخ الذي أذاب الشخصية الرومانية في صميمها، فبعد مقتل كراسوس لم يعد العالم كله كافيا لطموحات وشهوة بومبي وقيصبر، ولذا فإن الحرب اشتعلت بين الاثنين، وهكذا كانت الحال مع أوكتاقيانوس ومارك أنطوني.

ويعنى هذا كله أن أوصال الإمبراطورية قد مزقت بعد السيف، ولم يعد البراء البحر ليكفي أطماع رجلين، حتى فصل إلى البطل الأوحده أو الأبد الأكبر.



تصوير جداري في غرفة الطقوس السرية - المعصر الروماني

لقد قهر القياصرة البر والبحر ومدايات الشمس والقمر، ولكنهم لم يشعروا أو يقنعوا، وهم في هذا أيضا يشبهون البطل الأساوي تانتالوس الذي سقط غريقا في لجة من الماء المذبذب، ولكنه يموت عطشا. وهم أيضا كذلك البخل الذي يرقد على كتف هائل، ولكنه لا يعرف كيف يمنع به أو يفيد بجزء منه أحدا من الآخرين، وحصيلة هذه الشهوات الفجة هي الغنيان (Taedium vitae) والشعور بالسأم؛ إذا لم يعد شيء في الحياة يثير الشعور بالسعادة أو حتى الاهتمام. ويشبه سنيكا معاصريه من الروم بقوم مؤرقين جافاهم النوم فاستحزروهم القلق، ولذا فإنهم يتحركون جيئة وذهابا دون هدف واضح وحتى يبلوا كالحذاء القديم.



مصارعة الحيوانات المفترسة - تصوير جداري - المعصر الروماني

إن هذا الشعور بالخواء هو الذي دفع الرومان وسادتهم إلى دروب من الشذوذ والميعة بحثا عن الإثارة: من قبيل ذلك ما يروى عن الإمبراطور فلبسوس الذي قيل: إنه كان يعد لنفسه طبقا غريبا من الطعام أسماء «خالطة منبرقا»؛ وهي مؤلفة من كسدة الحداة، ومخ الطاووس، ولسان الببل، وطحال الفئس. وقد جمع الإمبراطور هذا المعجب من الخليط من أركان الإمبراطورية من





حدود فارس حتى مضائق إسبانيا. وجاء الطبق الذي كان يمه الإمبراطور
الوجابالوس أشد غرابة وعجبا؛ فهو خليط من حوافر الخيل، وعُرف الديكة،
وأعناق البيغاوت، ولسان المنديب.

ويرى الكاتب المعاصر سيوتونيوس أن الإمبراطور كاليجيولا كان يهناج
عندما يكتمل القمر بدرًا، وبأنه كان يعطى سطح القصر لمغازلة القمر، كذلك
راح كاليجيولا يشيد عمارة يستحيل إقامتها هندسيا لشذوذها وخروجها عن
العقل المنطقي السليم. وأما نيرون فكان يحفر عمرات في الصخور دون هدف
واضح، وكان يعمل على إقامة تحصينات في بطن البحر، كما أنه أقام واحدة من فيلاته وسط
أكوام القمامة!

وكان كاليجيولا يشكو بأن عهده خال من المصائب الكبرى والأوبئة أو الهزائم المروعة
وكوارث الزلازل، ومذابح الحرس الإمبراطوري، ويود لو أن حكمه شهد هذه المصائب جميعا حتى
يشعر بالإثارة والسعادة، وحتى يذكر التاريخ اسمه مقرونا بهذه الأحداث العظام!

أما عن الرواية المترثرة عن حرق نيرون لمدينة روما، فهي ليست افتراءً أو ادعاءً؛ إذ يذكر لنا
سيوتونيوس صراحة أن نيرون قد دبر فعلا إحراق المدينة لكي يشيد على رمادها قصرا ذهبيا،
وأیضا كى تثير التيران المستعرة في خياله المرض أشجانا كذلك التي كابدها بريام ملك طروادة وهي
تتحرق على يد اليونان. وقد ألمح الفيلسوف سنيكا في روايته «مديناه» إلى هذا المعنى في قوله: «كم
هو جميل أن أجز العلم معي عندما تنتهى أيامي».

في هذا المناخ المضطرب فلما وقالبا كان من الطبيعي أن يشعر القياصرة أنهم وحدهم دون
سواهم على المسرح، فأصبح وقع الموت هنا وهناك مجرد تقليدية على خشبة هذا المسرح، وتبلدت
مشاعر القوم حتى باتوا يظهون بالوت نفسه تماما كما يتمضغون الطعام ويشربون الشراب أو حتى
يثرثرون. وهذا الشعور السلبي تجاه الأشياء هو الذي زاد من هوس الناس بالمجادلة والاستمتاع
بمنظر الدم وهو براق، وهو الذي جعل الموسرين يبحثون عن أندر الحيوانات في غابات أفريقيا
وآسيا بأسماء خيالية، تحملها السفن وهي مقيدة في أقفالها لجراد إطلاقها في السيرك ذات أسمية
لتفترس إنسانا مسنى الحظ، وذلك وسط هتاف ورفق العامة والخاصة وسيدهم القيصر في مدينة
المدائن روما.

ويشق الكتاب من معاصرين ومحدثين على أن فصر الإمبراطور الروماني نفسه قد انتهى به
الامر ليصبح قفصا كبيرا يخطو داخله الطاغية جنة وذهايا وهو متورم بنويات الغضب وجنون
العظمة. وبعد أن قتاله الإباطرة ولم يمد أحد يجرؤ على انتقاد أعمالهم المخبولة، راحوا يبحثون
عن سبل شاذة لإثارتهم وتلهتهم. ويروي عن كاليجيولا أنه كثيرا ما كان يقبض على أعضاء
مجلس الشيوخ ويامر بجلدهم أمام عينيه دون أي سبب يذكر إلا للتسلية، وبلغ به الحد أن أطاح

برقاب العديد من الناس على ضوء المشاعل ذات ليلة وهو يتبختر مع بعض
حريمه في ردهة قصر والدته. ويتوافق مع هذه التحولات شيوع ظاهرة الانتحار
بالسم، ويرى البعض أن انتحار كلوباترا ومارك أنطوني كان واحدا من سلسلة
الانتحار الجماعي هروبا من واقع الإمبراطورية المرير.

وينبئ القول عند هذا المنعطف الأساوى في تاريخ الحضارة الرومانية أن
الحكام والحكومين من جلادين وضحايا، صاروا جميعا في قفص واحد من
السأم. ويروى أن نبلاء روما في وسط الآدب التي يقبونها كانوا يتفجرون فجة
بالكباء والتحبيب، وأن البعض كانوا يقفون وسط ضيوفهم لرائه أنفسهم بالمرثيات والكنائيات
الشعرية. وكان الشذوذ واحدا من دروب الهروب من الواقع الأليم، بل إن بعض الرجال قد قاموا
بقطع أعضائهم الجنسية (galli)، والبعض الآخر من الرجال قد دخلوا في بيوت دعارة للذكور
(Indi). كما حفلت مجالس القوم بميث الكلام، وأفرط الجميع في الشراب والسهر، وراحت
النساء تفاخرن بعدم العفة، خاصة من بين الطبقات العليا في المجتمع الروماني من أمثال فولتيا،
وجوليا، وأجربينا، ودوماتيلا، وغيرهن كثيرات.

وقد صاحب هذا التدهور الأخلاقي إعجاب الرومان بمناظر الرعب والفرع، حتى إنه في
مزادات أسواق النخاسة كان النبلاء لا يهتمون بشراء العبيد الأصحاء أو أصحاب الظلمة البهية،
وإنما كان غرامهم بالمشوهين والمسوخين وذوى الخلفة الغريبة من أصحاب العيون الثلاثة أو ذوى
الزروس التي تشبه رأس النعامة والأبدى كأبدى السلاحف. ويحكى أن بعض الآباء قد عمدوا إلى
تشويه خلقة الأبناء كى يساعوا بسر خاص في أسواق العبيد المخصصة للمسوخين (Teraton
Agora).

المجتمع الروماني

ومع هذا المزاج الأكد راجت نخاسة الأتزام والماليق بل والهياكل العظمية، وكان الإباطرة
أشد الناس حرصا على اقتناء هذه المخلوقات المسوخة، فقد أمر الإمبراطور كلوديوس أن ينادى
النادون في شوارع روما لقبيل العمامة على السيرك على وعد بأن يروا هه ما لم تروه عين من
قبل.....

لقد غرقت الإمبراطورية الرومانية في مستنقع اختلطت فيه الأشياء بأصداها: ما بين نخمة
ومجاعة، تواجذ وغيبة، تبهج وجمال، تقوى وفجور، ثرثرة وصمت رهيب، إثارة وتبلد، حركة
وسكون، فرح وحزن، إحياء وإشباع. وعن هذا التشوش يقول مارتال في وصفه لوأحد حكم
عليه بإحراق يده اليمنى بأنه كان المنفرد الوحيد على مشهد إحراق ساعده الأيمن، وكان عليه أن
يصفق باليد اليسرى في جنازة على يده اليمنى!





نفس الوقت جثع الاغنياء: فلقد سخروا من أغسطس نفسه والمحو إلى أنه «الخصي الذي يحكم العالم»، كما أشاروا إلى طيبيريوس بأنه «كالعز» الطائفة، أما عن الإمبراطور ماركوس أوريليوس، فقد عرف عن زوجته فاوستينا أنها كانت على علاقة آتمة بشباب يدعى توتولوس. وفي واحدة من الأدب العامة، وفي حضور الإمبراطور نفسه ظهر أحد المهرجين يمثل دور «الغفل» وراح يسأل من حوله: «مع من تخونني زوجتي؟» فيرد القوم عليه «مع توتولوس - مع توتولوس - مع توتولوس». ولكن النسي لا يفهم، فيصبح القوم «لقد أخبرناك اسمه ثلاث مرات: توتولوس، توتولوس، توتولوس... أي توتولوس... هلا فهمت أيها الذكي؟».



الاحتفالات الرومانية المأجبة

لقد جن جنون الرومان واختلت الموازين تماما، فقد كانت عادة نيسرون أن يطلق بوابات المسرح ويبقى هو على الخشبة ليقيم بالتمثيل مفردا، ويظل هكذا ساعات طوال، والويل لمن يجرؤ على مناداة القاعة. أما كاليجيولا فكان يصر على بقاء الجمهور لمشاهدة تقطيع أوصال ضحايا حتى يصاب الناس بالإغماء. كذلك عرف عن نيسرون أيضا أنه في إحدى حفلاته المأجبة أمر أحد العبيد بأن يضاجح زوجة سيده على مشهد من الأضياف والسيد نفسه، كما أنه أمر أحد المجالدين باغتصاب إحدى الفتيات على مشهد من الضيوف ومن والدهما!



وفي محاولة لتشخيص الداء لا بد من الاعتراف بأن طغيان القيصر وحاشيته هو الذي جر الخراب على المجتمع الروماني، لقد كان الخوف من الحاكم الأبدي سببا في الشلل الاجتماعي، ويروى عن يوليوس قيصر ابن روما اللدال بأنه كان يأمر بعض النبلاء بالقيام بدمور «الهرج» لإدخال السرور على نفسه المكتسبة. وتعممت الثقة بين الناس، ولم يعد سادة الأوس يأمنون على أنفسهم، فهم لا ينامون في عسق خوفا من غدر عبيدهم بهم. ولهم نيام. وازداد النفاق والتملق، حتى إن تايكيتوس يشبه حاشية القيصر «بلاغى الأحذية

رجل وامرأة - نحت بارز - العصر الروماني
بلسان مسموم»، في حين أن سنيكا يصف المديح المترابيد «بالعدارة الكلامية» (Fasclinae lingua).
ولم يكن توزيع قيصر القمح بالمجان والسماح للعامة بدخول السيرك نجانا أيضا إلا ضربا من ضروب النفاق وإلهاء الناس عن مشكلات الفقر والبطالة والهوة السحيقة التي باتت تفصل بين من يملكون ومن لا يملكون، ومن نفس القبيل كانت الأدب العامة التي كانت تقدم للفقراء والمساكين، والتي وصفها المعاصرون «بولائم المهيايل» (Festa Stultorum). وفي هذه الأدب كانت السنة المحرومين تلتمع الطعام الدسم وتلتمع في



طغان حارقي يقرأ تصورا شمسية في غرفة الطقوس السرية - تصوير روماني



الضرائب من أبناء الطبقة الوسطى وصغار الملاك. وحتى هذا النظام الإدارى الصارم سرعان ما تصدع بسبب تناطح القياصرة والاباطرة فى النصفين الغربى والشرقى للإمبراطورية، كل يتأمر للانفراد بالسلطة ولو على جثث الآخرين من رفاقه. ومع هذه الفوضى والحرب الأهلية زاد عدد الساسة العاطلين الذين باتوا يلتمسون بتأييدهم تارة مع هذا الفيلق وأخرى مع تلك الفرقة، وذلك فى مقابل رشوة دسمة. وهكذا اشتعلت الحرب الأهلية، حتى إن اباطرة تلك الفترة عرفوا باسم «اباطرة المسكرات». أما موظفو الإدارة فى الولايات فقد فرضوا «إتادة» على المؤسرين من أهل البلاد فازدادت الأحوال سوءا على سوء.

يضاف إلى هذا أن العائلات السيناتورى كانت معفاة من الضرائب ليس فقط عن ضياعها فى إيطاليا وإنما أيضا عن الضياع التى كانت تملكها هذه العائلات خارج حدود إيطاليا. وفى القرن الرابع صارت عضوية السيناتو مجرد لقب شرفى بمن به الأستطس على من يشاء من أتباعه وخلصائه، وقد كان سخيا فى هذا الصعيد. وكان شرف السيناتورى يعنى صاحبه من دفع الضريبة عن ضياعه، وهكذا وقع عبء دخل الخزانة الإمبراطورية كله على الطبقة الوسطى. كما أن الحكومة الرومانية فرضت على صغار الملاك ضريبة أخرى لمواجهة عبء الإدارة التزايد تعقيدا، ثم ألزمت كل مدينة بالنضمام فى دفع مجمل الضريبة المقررة عليها كاملة، وألقت بهذه المسئولية فى توفية الدفع على هيئة من مواطنى المدينة المنتخبين (Curiales).

وقد أدى هذا النظام الضريبى إلى قسم ظهور الطبقة الوسطى، مما أدى بالكثيرين من أبناء هذه الطبقة إلى العزوف عن الزواج حتى لا يرث أبناؤهم تعاسة الآباء، ولقد اعتل السيناتوريون فرصة الخراب الذى حل بالطبقة الوسطى، وابتلعوا المكائيات الصغيرة فى القرنين الرابع والخامس، وبهذا تكدت أعداد وفيرة من أهل الريف إلى فلاحين معدمين تماما. والأدهى من ذلك بالنسبة للخزانة الإمبراطورية أن تحاليل الكثيرون على جامعى الضرائب بأن تنازلوا عن أراضيهم للسادة أعضاء مجلس السيناتو كى لا تجبى عليها الضريبة، وفى مقابل ذلك كان السيناتور يحصل مبلغا محمدا من المال من صاحب الأرض ليشتري عليه وهو يقوم بزراعتها والاستفادة بمحصولها، وقد عرف هذا «التحاليل» باسم (Patrocinium). ومع أن الدولة كانت تكافح هذا التحاليل، إلا أن أفراد الطبقة الأرستقراطية الزراعية كانوا يعرفون كيف يحشون جيوب القضاة وجامعى الضرائب برشوة دسمة. وهكذا اشتترى الفساد بين رجال المدالة أيضا، حتى إن أحد التشيرين قد جاهر بضرورة إصدار قانون يحرم على القضاة قبول حفلات المشاء على مآذب السيناتوريين. والمحصلة أن قوى بكاملها قد خضعت تحت سطوة الأرستقراطية الرومانية المشعة، وضاعت على خزانة الحكومة كل الضرائب التى كانت تجبى عليها سابقا. وألتهبت الحكومة ظهور من يتقوا من



من هذا العرض يتضح دون لبس أن المجتمع الرومانى كان فى حالة انحيار جماعى، وفى حالة اضمحلال وسقوط من داخله، وهذه حقيقة تؤيدها كل شواهد العصر. تحت «الاصحوال للمصصا ر»

الأحوال الاقتصادية

ولم تكن الإمبراطورية الرومانية تستند فى نظمها الاقتصادية إلى مبادئ سليمة، فالفتوحات الكبرى فى الغرب والشرق لم يكن يحركها هدف واضح. كفتح أسواق خارجية لإنعاش التجارة مثلا، أو بغرض توطين العاطلين من رعاى المدينة ودهماء. والجنزالات المتفاعلين الذين انحصر مهمهم الأكبر فى اكتناز الثروات حتى عن طريق الربا، وذلك على حساب أهالى الولايات وطبيعة الحال على حساب دخل الخزانة الإمبراطورية.

ويلاحظ أن هذه الإمبراطورية الكبرى لم تكن تعتمد فى الحصول على رخيص الخبز لعاصمتها من الريف الإيطالى المجاور، وإنما كانت لقمعة العيش تشحن للمعاصمة من شمال أفريقيا أو من مخازن الغلال فى الإسكندرية. كما وأن العملة فى القرن الثالث أخذت فى الانخفاض من الأسواق، ليحل محلها نظام القايضة البدائى، وصارت رواتب الجند تدفع لهم حصص من القمح بدلا من العملة، إلى جانب هذا أغفلت روما قوتها البحرية ولم تؤمن مجالات نشاطها البحرى فى البحر الأحمر والبحر الأسود وسواحل بلاد الفال الشمالية، ثم إن البحر الأبيض نفسه سرعان ما بات نهبا للقراصنة اليونان.

السياسة الاقتصادية

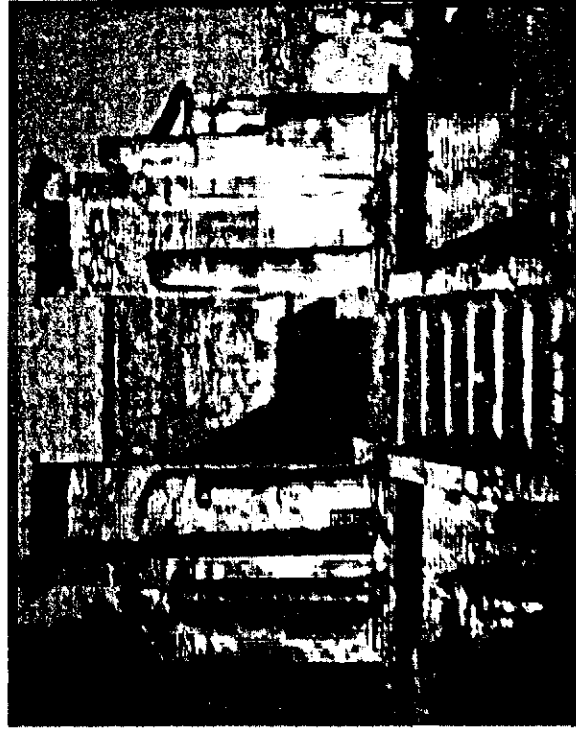
الإمبراطور دقلديانوس

وإذا نظرنا إلى الريف الرومانى، حيث الزراعة وتربية الماشية والتعدين، نجد أن العبء كله كان يقع على كامل العبد، وكان أقل صغار الملاك يملك عبدا أو عبيدين، فى حين أن كبار الملاك كانوا يملكون آلافا من العبيد. وعندما تحمل ضائقة بأحد صغار الملاك فإنه كان يلجأ إلى الاستدانة من كبار الملاك والمرايين الذين كانوا يتقاضون ربا على الديون تجاوز نسبة ١٢٪ أو يزيد. وفى القرن الثالث بوجه خاص صار الأهالى يفضون من وطأة الضرائب الثقيلة التى فرضتها الدولة لتغطية نفقات القبائل المنتشرة فى ولايات الإمبراطورية، ولسداد أعباء الأجهزة البيروقراطية المتعددة، وقد ازداد الأمر سوءا فى عهد الإمبراطور دقلديانوس الذى ابتدع نظام الحكم الرباعى (Tetrarchy)، وقسم الإمبراطورية إلى اثنتى عشرة ولاية تضم تسعين مقاطعة، ولكل من هذه الأقسام وتوابعها حكماها وأجهزتها وجيوشها. وقد وقعت أعباء تمويل كل هذه الأجهزة على كامل دافعى

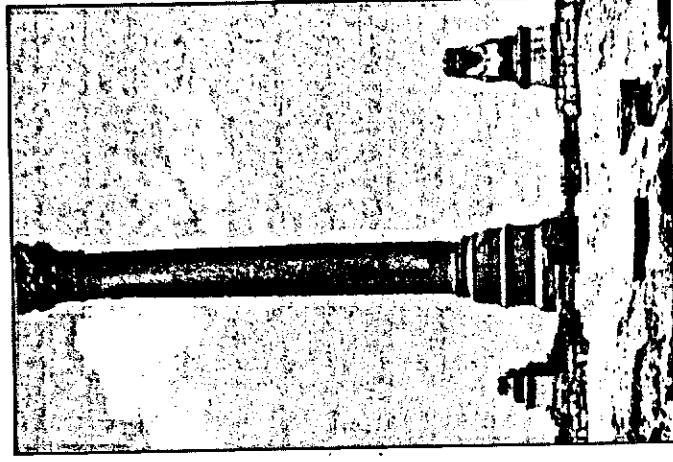


تدهش إذا علمنا أن الكثيرين من أبناء الريف قد هربوا سرا من ذوبهم وبيوتهم وعملوا عبدا عند المومنين والنسلاء. والأدهى من ذلك كله أن الحكومة أصدرت قانونا جعل الأعباء الضريبية على أبناء هذه الطبقة وراثية يتحملها الابن عن الأب (Decurio).

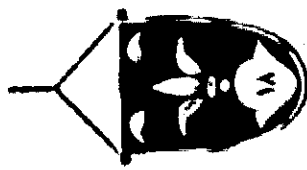
إن هذه الأماسة التي حولت أبناء الطبقة الوسطى وصغار الملاك - التي هي عماد الدولة - إلى وضع أشبه ما يكون بالعبودية كان واحدا من أهم العوامل التي عجلت بهم ببناء الإمبراطورية الرومانية. ولم تكن الأمور أحسن حالا مع التجار وأرباب الحرف، ففي نهاية القرن الثالث صدر قانون يثبت هذه الشريحة من المجتمع الروماني في حرفة حتى تصبح كادرا وراثيا ووضعوا اجتماعيا ثابتا (Status) يره الأبناء عن الآباء رغبرا في ذلك أم كرهوا.



معبد إيزيس - بومبي



صمود دقلديانوس - أقامة اليهود تحليدا له لاضطهاده للمسيحين - الإسكندرية - مصر



صغار الملاك بضرائب جديدة لتعويض ما التهمت بطون الشيخ.

قسطنطين الكبير

وما أن وصل الإمبراطور

قسطنطين الكبير إلى الحكم منفردا بعد قتل جميع خصومه من قيصرة وأباطرة (٣٢٤ - ٣٣٧م)، حتى أظهر اتجازا نحو المسيحية ثم أصدر مرسوما بإعفاء أراضي وأوقاف الكنائس من دفع الضريبة، فراحت الكنيسة تسيطر جناحها من الأخرى على أراضي شاسعة لتعفيها من دفع الضريبة للدولة. ولم يتعفف التاج نفسه من هذا الإنم، إذ كان الإمبراطور - وهو لا يدفع ضريبة عن مساياه - كثيرا ما يضع أراض شاسعة تحت لوائه كي تعفى من دفع الضريبة.

وعندما قل دخل الخزانة أنفقت الحكومة على دافعي الضرائب، ولكن الناس كانوا قد أرهقوا بما فيه الكفاية، فلم يتورعوا عن أن يظفروا جامعي الضرائب إذا ما حلوا بالقرى يوابل من السباب والحجارة. ولكن الحكومة ردت بفرض القوانين والإجراءات المجنفة لتستص دعاء الطبقة الوسطى وصغار الملاك، ولم تدر السلطات أن البقرة الحلوب قد جف ضرعها. ومنعت الحكومة الرومانية في سياساتها التمسفة فحسرت على صغار الملاك يتبع أراضيهم والتنازل عنها، كما منعهم من ممارسة حرفة أخرى غير الزراعة، ثم أغلقت في وجوههم باب الدخول في الجندية، ولا



الإمبراطور قسطنطين الكبير (٣٢٤ - ٣٣٧)



الواقدة من الشرق أنها كانت تختمن في رحابها الفقير كما تختمن الغنى، والمبد مثل الحر، والمرأة مثل الرجل.

ولقد وجد العبيد الذين بلغ عددهم عدد المواطنين الأحرار تقريبا، أن هذه العقيدة الجديدة لا تقيم وزنا للرق والنخاسة في ملكوت السموات، ولم تنرد في المجاهرة بأن عبدا (رقيقا) صالحا يحق له أن يصبح أبا روحيا للجميع من الأمير إلى الفقير. أما النساء فقد وجدن في سيرة العذراء مريم تكريما للمرأة، في حين أن المجتمع الروماني كان يضع المرأة دوما في مرتبة دونية بالنسبة للرجل.

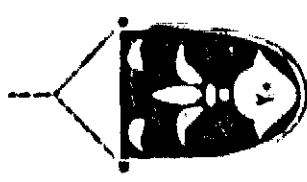
كان طبيعيا أن يمتعض السادة الرومان من هذه العقيدة الغريبة التي تطاولت على الكايسرول ونهت عن تقديم الأضحيات لهم، ثم ما لبثت أن استخفت بملوك هذا العالم، ومن بينهم «الواطن الأول» والمؤله ابن روما البار. ومن ثم فإن الحكومة الرومانية شعرت بانقوس الخطر يدق على الأبواب، فسارعت بمطالبة رعاياها بأن يرهنوا على الولاء والطاعة للإمبراطور بأن يقوم كل مواطن بإحراق حفنة من البخور عند قديمي شمال الإمبراطور الحاكم دلالة على الولاء والخضوع.

ولكن المسيحيين رفضوا أداء هذه المراسم الوثنية خاصة في الولايات، فجن جنون حكام الولايات، وظنوا أن هؤلاء القوم باتوا يتآمرون بالسوء ضد روما وسيد الرومان. وبالنسبة للبلاد الإمبراطورية فإن هذا الموقف الراض كان يرقى إلى درجة الحياة العظمى.

موجات الاضطهاد ضد المسيحيين

وهكذا بدأت موجات الاضطهاد ووصلت ذروتها في عهد الإمبراطور دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م)، والتي اقتصرت بيرانها ولايات الشرق على وجه خاص. ورد الكهنة المسيحيون على ذلك بأن دعوا أتباعهم في الدين الجديد إلى الامتناع عن خدمة الدولة وعن الدخول في الجندية في موجة من العصيان والتمرد.

واردادت مشاعر الشك والريبة في قلوب الرومان وخاصة أن أبناء هذه العقيدة الجديدة كانوا يلجأون إلى الكهوف وجحور الأرض يمارسون فيها شعائرتهم الغريبة ويتبرغون بالحن وأدعيات غير مفهومة. وراحت غوغاء المدن تروج عن هذه الجماعة روايات مختلفة ومختلفة عن ممارسات سرية تثير التساؤل. وعليه فإن الحكومة الرومانية ضربت هذه الجماعات بالجديد والنار، بل إن أعدادا كبيرة منهم قدمت فريسة للأسود المجرعة في الحلية الرومانية وسط صباح وعتافات الجصامير



العبيد

في عصر الازدهار الإمبراطوري كانت ظاهرة وفرة أعداد العبيد دليلا على التميز وبحبوحة العيش وضمانا لسير العمل في مختلف القطاعات، ولكن الملاحظ أن عدد العبيد أخذ يتناقص بشكل ملموظ في القرنين الثالث والرابع؛ مما يشير إلى أن عدد المورسين قد تناقص بالفعل، بحيث لم يعد أصحاب الأراضي قادرين على شراء العبيد ولا حتى إطعام أفواه القلة من الذين بقوا في حوزتهم. وتطور الوقت اختفت جماعات العبيد الذين كانوا يعملون في الضياع السيناتورية في كل من إيطاليا وغالة وإسبانيا. ولقد نتج عن هذه الظاهرة تطور هام ظل صفة مميزة للحياة الاقتصادية والأوضاع الاجتماعية في غرب أوروبا على مدار العصور الوسطى، فلقد لجأ أصحاب الأراضي الزراعية إلى إبرام اتفاقات مع فقراء الفلاحين في قراهم ومع العبيد أيضا على أن يقوم هؤلاء بفلاحة الأرض مقابل حصة هزيلة لا تكاد تسد الرمق من غلة الأرض، مع السماح للبعض الآخر بشرط هزيل من الأرض بفلحونه لحسابهم مقابل خدمات أخرى، وقد عرف هؤلاء الفلاحون باسم «Coloni» أي معسرى الأرض، وهم النواة الأولى للاتقان (Serfs) الذين ربطوا بالأرض لا يرحلون في ظل الهم الإقطاعي، كذلك استقدم فقر من أصحاب الأراضي في القرن الخامس بعض القسريين الجرمان لفلاحة الأرض بنفس الشروط السابقة، وعرفوا باسم «Inquilini».

وإذا نظرنا إلى الشعب الروماني في كلية من خاصة وعامة في أواخر القرن الثالث لوجدنا شعبا متقلب الزواج، وعلى درجة بالغة من الجبن والانحلال الخلقى سمره على مستوى طبقات النبالة أو العامة (Plebs). ومن الناحية الثقافية ظلت الصفوة الرومانية تلوذ تراث الإغريق القدامى أو تحاول تقليده، وسرعان ما غزت الفلسفات الانهزامية من رواقية مترنحة وأبيقورية فاضحة قلوب السادة الرومان. وما من شك في أن الإغريق قد نجحوا بذكائهم في إيهار سادتهم الرومان «الإغبياء»، كما عمل البرغاميون والمقدونيون والسلوقيون والبطالمة على إتهاك حيوية روما وامتناس دماء الرجولة اللاتينية.

الأحوال الدينية

ثم إن روما أصبحت تستقبل يوما بعد يوم عددا لا يحصى من الربات والأرباب يزاحمون أرباب الكايسرول وسيلهم جويتير في روما، وهكذا عرف الرومان إيزيس المصرية، والام العظمى الفريجية، وشرا الفارسي وغيرهم. ومع هذا السيل الذي لا ينقطع من الوافدين على روما تسلكت ديانة جديدة عرف أصحابها وقتل بأتباع المسيح. وكان هؤلاء في أول الامر قلة من يؤسب المجتمع من سطاء الناس والعبيد والنساء. والذي حفز هذه الفئات المقهورة إلى اعتناق هذه الرسالة الجديدة

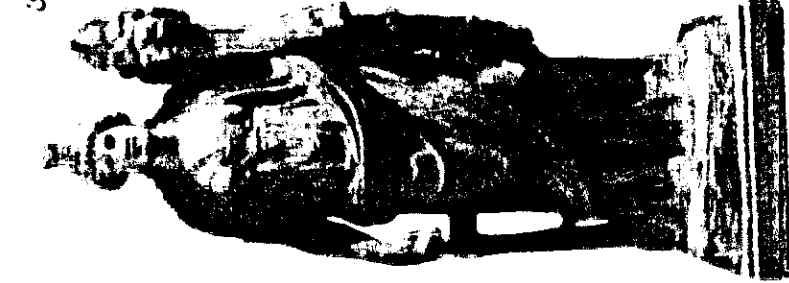


الفصل الثاني الغزوات المبريرة

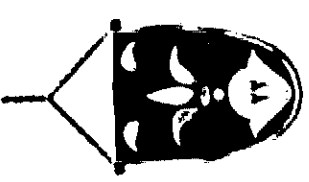
طلت الشعوب الجرمانية فيما وراء نهري الدانوب والراين في ملام مع الإمبراطورية خوفاً من قبالتها التي لا تهزم، ولكن هذا لم يمنع من حدوث صدامات بين الحين والآخر بين الطرفين. وجاء أول صدام في نهاية القرن الثاني قبل الميلاد وذلك عندما تحركت قبائل الكمبري والتيونون من شواطئ بحر الشمال قبالة حوض البحر الأبيض المتوسط مهددة في هجراتها ولايات الإمبراطورية خاصة في غالة. وقد وقع صدام بين قبائل الجيش الروماني بقيادة ماريوس وبين جماعة الكمبري سنة ١٠٢ ق م عند بلدة إكس - إن - بروفانس؛ ثم عند بلدة فورسيل سنة ١٠١ ق م، ولم تكن النتيجة حاسمة لأي من المعسكرين. وفي سنة ٥٨ ق م استنجد زعماء غالة بيوليوس قيصر لحمايتهم من هجوم جرمانى اسمه أريوست في منطقة الأرناس. وقد لى قيصر النداء وتصدى للزخم الجرمانى المهاجم وأجبره على التفتت إلى ما وراء الراين. وتابع قيصر حملاته على منطقة الراين سنة ٥٥ ق م، وتبعه بعد ذلك أغريبا سنة ٣٨ ق م، ثم دروسوس زوج ابنة الإمبراطور أغسطس الذى نجح في إخضاع المناطق الواقعة بين نهر الراين ونهر إلب، وإن كان قد قتل أثناء المعارك. بعد مقتل دروسوس خلفه في القيادة شقيقه طيبيريوس الذى عبر نهر الدانوب وانتفض على منطقة بوهيميا، غير أنه فى العام التاسع ق م زحف الجرمان مرة أخرى تحت قيادة زعيمهم أرمينوس، فتصدى لهم القائد الروماني فاروس، ولكن الجرمان أوقفوا بالرومان هزيمة ساحقة فى موقعة تيورجرفلد، واضطر الرومان إلى إخلاء الشط الأيمن لنهر



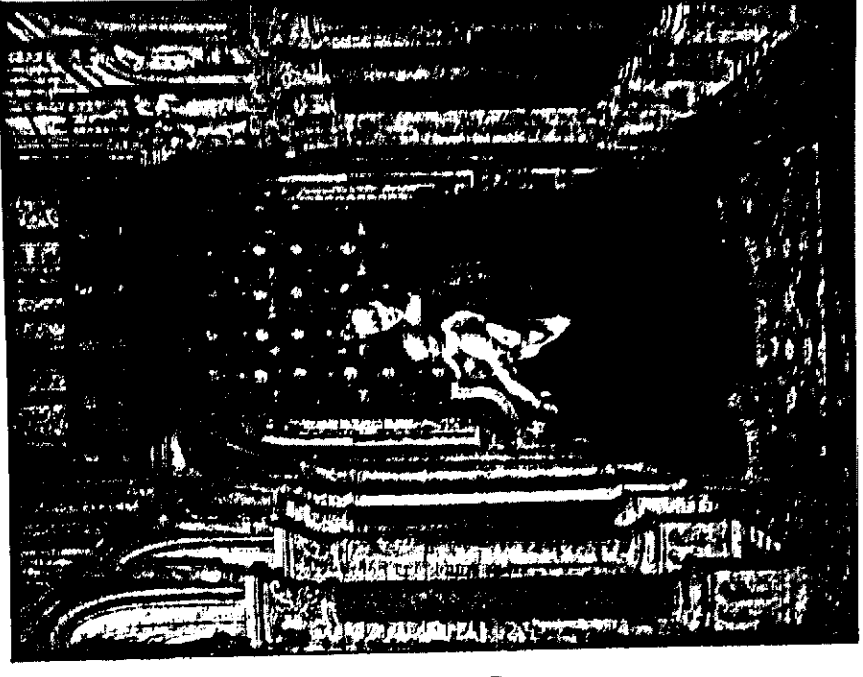
تغلب السجيين - تصوير روماني - فسيفساء



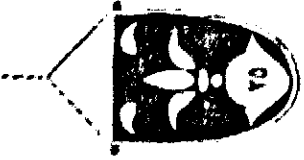
تمثال لإيزيس بملابس رومانية (رؤية الخط) تمثال من الرخام



المنصورة. ووجد في روما من يقول بأن أرباب الكايبول أصبحوا أشد عطشا لدماء هؤلاء «اللازقين»، وكان لايد من ارتواء هذه الآلهة وإطفاء ظمها وغضبها بدماء الذين كانوا لهم من المكرين! ولم تهذا الحال إلا بعد أن أصدر الإمبراطور قسطنطين الكبير مرسوم ميلان سنة ٣١٣م بوقف اضطهاد أتباع الدين الجديد والسماح لأتباع هذا الدين بممارسة شعائرتهم جنبا إلى جنب مع الوثنيين دون أن يتحرض طرف بالآخر!



العذراء - لوحة للفنان جان فان آيك



القوط

ورغم هذا فإن الحقيقة الشائبة هي أن شوكة «جرمانيا» كانت آخذة في القوة، فلقد تحركت جماعة من القوط من على ضفاف نهر فستولا قبالة شواطئ البحر الأسود، وتبعها جماعات مختلطة الهوية من «القواضي» (Quadi) والمالكرومان الذين عبروا نهر الدانوب وحاصروا المدن، حتى إن أهالي روما نفسها قد شعروا بالفرح رغم جهود الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٨م) في تعزيز نقاط الحدود على نهر الدانوب.

ولم تنقطع تحركات الجرمان على حدود الدانوب والراين، ففي عهد الإمبراطورين فاليريان (٢٥٣ - ٢٦٠م) وجالريان (٢٦٠ - ٢٦٨م) تمكنت جماعة من الفرنجة من تحطيم حواجز الراين والعبور إلى غالة ومنها إلى إسبانيا، حيث استولت على بعض السفن الراسية في البحر المتوسط وأبحرت بها إلى شواطئ موريتانيا. كذلك هجمت جماعة أخرى من الجرمان على إيطاليا عبر ممرات جبال الألب ونهبت مدن الشمال الإيطالي وصولا إلى مدينة رافنا، إلى أن تصدى لهم الإمبراطور جاليان عند مدينة ميلانو.

وفي سنة ٢٦٩م اجتاح القوط مناطق الدانوب واشتبكوا مع الإمبراطور كلوديوس (٢٦٨ - ٢٧٠م) عند بلدة نيش في البلقان. وفي نفس الوقت زحفت جمافل أخرى من الفرنجة والألمان على غالة وضربت قرابة ستين مدينة من بينها باريس ويوتايه ويوردو. ورغم جهود الإمبراطور بروبروس (٢٧٦ - ٢٨٢م) إلا أن غالة صارت نهبا للجرمان فعمت فيها القوضى والمخاضات. ولقد هدأت لحين جبهة الراين في عهود الأباطرة دقلديانوس (٢٨٤ - ٣٠٥م)، وماكسيان (٢٨٦ - ٣٠٥م)، وقسطنطين الكبير (٣٢٤ - ٣٣٧م)، ولكن الجرمان ظلوا يسلكون إلى قلب شبه الجزيرة في البلقان، واضطر الإمبراطور قسطنطين الثاني (٣٣٧ - ٣٤٠م) إلى قبول هؤلاء القوط «كصاهدين» (Foederati) في خدمة الإمبراطورية، ثم أرسلت السلطات الرومانية بالبشرين الذين نشروا المسيحية بين هؤلاء القوط على المذهب الأريوسي الذي كان الإمبراطور منحازا إليه.

الهون

وعندما زحفت حشود من مغول آسيا يعرفون باسم «الهون» (Huns) على شرق أوروبا أزهوا القوط بسيطاهم وخناجرهم، فانحصر القوط السلطات الرومانية كي تسمح لهم بعبور الدانوب هروبا من الهون. ولقد سمح إمبراطور النصف الشرقي للإمبراطورية فالنس (٣٦٤ - ٣٧٨م) للقوط بالعبور سنة ٣٧٦م، الأمر الذي أثار هياجا شديدا بين المعاصرين، عبر عنه الكاتب المعاصر إيمانوس مارسيلينوس، الذي شبه عبور القبائل الجرمانية لنهر الدانوب بعبور اليبين - في



الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧م)

كانت - في رأيهم - كافية للقضاء على المجتمع الروماني الذي استشرى فيه الفساد.

على أن الحدود مع الجرمان قد شهدت هدوءا نسبيا في القرن الثاني للميلاد، وخاصة بعد أن نجح الإمبراطور تراجان (٩٨ - ١١٧م) في إخضاع منطقة داكيا، وبعد أن أرسى الإمبراطور أنطونينوس بيوس دعائم السلم على حدود الدانوب (١٣٨ - ١٦١م)، حتى إن الخطيب إليوس

أرستيس استنح حصاة الإمبراطور، مفخرا بعودة السلام الروماني، ومهددا بالمصا الرومانية الغليظة لكل من تسول له نفسه التطاول على مدينة اللدائن روما «فهى الأم المنظمى والمؤئل لسائر شعوب الأرض، والتي بوسع الإغريقي والتبرير جميعا التمايش تحت مظلتها سواء بسواء».

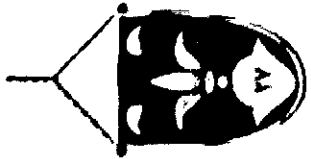
الراين، ولما أن اعتلى طيبيريوس العرش الإمبراطوري قرر اتباع سياسة دفاعية في تلك المناطق بدلا من السياسة الهجومية السابقة.

وتعكس كتابات المعاصرين الشمعور العام في الإمبراطورية الرومانية تجاه الخطر الجرمانى الذى

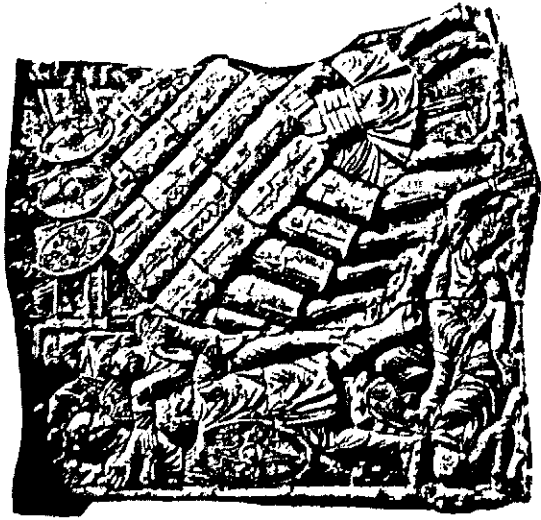
بات يهدد كيان «السلام الرومانى» (Pax Romana): فلقد عبس كل من أوكويد، وبلينى الأكبر، والفيلسوف سنيكا، واللؤرخ تاكيتوس عن مخاوفهم من زحف القبائل الجرمانية، مع الإشادة من طرف خفى بشجاعة الجرمان وأخلاقهم التى



الإمبراطور أنطونينوس (١٣٨ - ١٦١م)



وجسروتهم. أمام هذا الموقف الشهير أفاق الإمبراطور فالنس من غيبته وسارع بإعداد حملة قادما بنفسه لتفليم طاغر القوط. والتقى لطفان عند مدينة أدريانوبل في ٩ أغسطس ٣٧٨م، وانتهت المعركة بكارثة مهولة، ففقدت الهزيمة كاملة بالجيش الروماني، وقتل الإمبراطور فالنس في أرض المعركة. وبعدها دانت البلقان للقوط فنهروا البلاد، وزحفت جماعة منهم حتى شارفت أسوار القسطنطينية نفسها.



تشكيل عسكري لجيش روماني تحت بارز - العصر الروماني

الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٨ م)

القديم - لمضيق الدردنيل. ويقدر عدد القوط الذين عبروا نهر الدانوب إلى قلب البلقان بحوالي مائتي ألف، دون حساب عدد ذريتهم وعبيدهم.

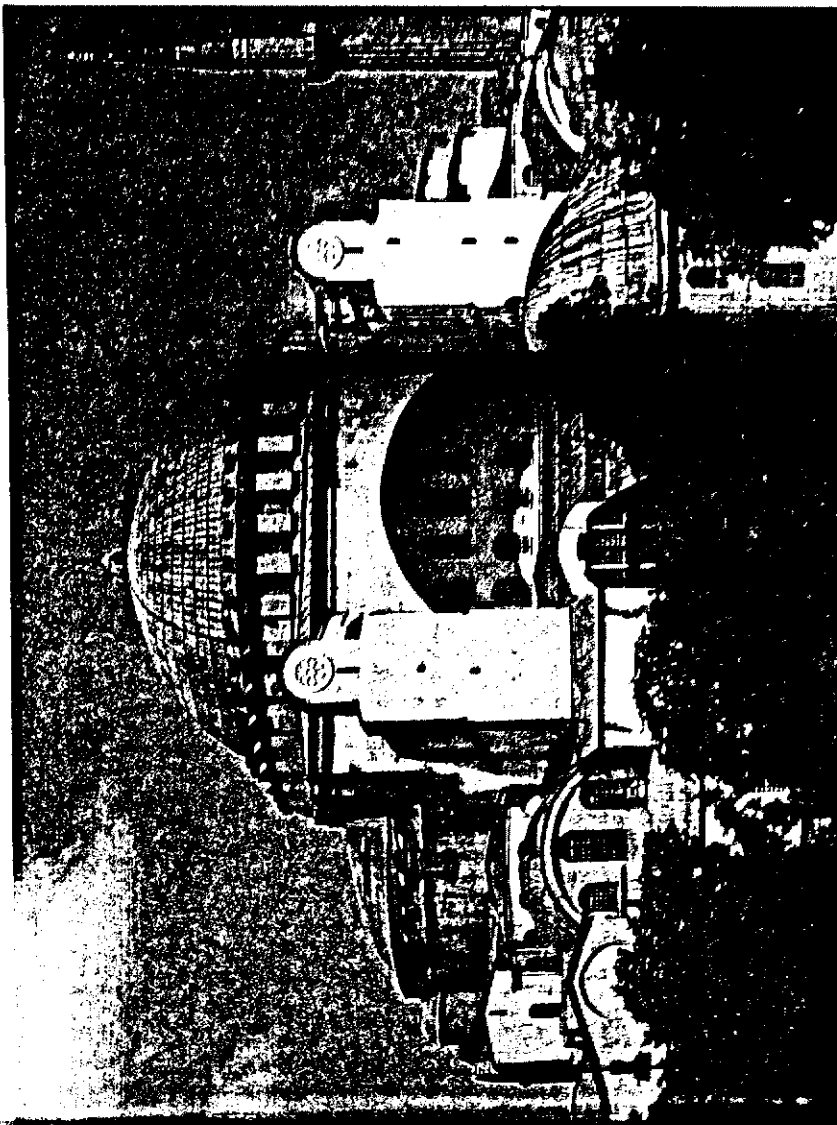
موقعة أدريانوبل

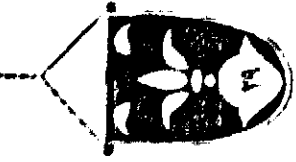
كان من ضرب المستحيل تزويد هذه الأعداد الغفيرة بما يسد رمقها؛ ولذا فإن القوط انقضوا على أهالي القرى يتهبون ويسلبون، فخربوا مناطق مؤنزا وتراقيا، وضج الأهالي من غلظة القوط

كنيسة آيا صوفيا - القسطنطينية



تمثال سيرابيس من الحشب المتحف الروماني - الإسكندرية





ويقال: إن الآرك قد أمر رجاله بعدم تخريب أثينا، لأنه قد أصيب بالدمع عندما وجد نفسه وجها لوجه أمام تمثال الربة أثينا ومن ورائها البطل الملحمي أخيل سيد الشجعان في حرب اليونان ضد طروادة!

لقد فزع الماصرون أمام ذلك الخراب الشامل الذي حل بأرض اليونان على أيدي التبريريين، فكتب جيروم سنة ٣٩٦م رسالة تفيض حزنا وأسى ينمى فيها بلاد اليونان بقوله: «كيف لسى أن أعدد المآسى التي حلت بزوماننا والحزن يعصر قلبى... فعلى مدى عشرين عاما متتالية والدماء تنسك بين القسطنطينية وجبال الألب البيرلانية... لهفى على العذارى والأمهات المرضعات، وعلى المواطنين الأحرار الذي سيقرا عبيدا في أيدي البرابرة الشريرة... لقد قيد الأساقفة والقسيسون بأغلال الذلة والمهانة، ودمرت بيوت العبادة وحولت جنباتها المقدسة إلى إسطوانات للخيل... لقد تندست أيقونات القديسين، وعمت الأحران في كل مكان، وعلا النجيب في مختلف الأركان وراحت على الكل علامات الموت... أين شهجاعتك كورنثة، وأين أتم يا أبطال أثينا وصناديد أركاديا؟».

غير أننا نجد زعيم الفلاسفة الوثنيين آنذاك وهو ليبانيوس يقدم تفسيرا آخر لتلك الأحداث المهولة؛ فهو يرجع البلاء كله إلى غضب الآلهة الوثنية التي استشاطت غضبا عندما اغتال المسيحيون الإمبراطور جوليان (٣٦١ - ٣٦٣م) الذي كان قد نذ المسيحية وارتد إلى الوثنية. فلو أن العبادة القديمة - كما يقول - بقيت مفتوحة الأبواب لتقبل الأضحيان للأرباب لما سمحت الآلهة بأن تمس الإمبراطورية بهذا الجحيم من الحديد والنار!

الإمبراطور أركاديوس

توفي الإمبراطور ثيودوسيوس سنة ٣٩٥م بعد أن قسم الإمبراطورية بين ولديه: أركاديوس للنصف الشرقى، وهونوريوس للنصف الغربى. ولقد استغل خطر القوط في القسطنطينية في عهد أركاديوس، إذ تزوج هو من ابنة أحد ضباط الجرماني، بينما تغفلت القوط في قلب الجيش الرومانى وملأوا أجنحة القصر الإمبراطورى، وعلا نجم زعيمهم غايئاس الذى أصبح يعين ويقبل الزوراء كفيشا يشاء. وثار الرأى العام فى القسطنطينية ضد هذا الوضع الخطير المهنى. وتحرك أسقف مدينة قورينا ويدعى سينيوس من أراضى ليبيا قاصدا قصر الإمبراطور على البينور لكى يوظف هذا الإمبراطور الصسى العاقل من غفلته، وألقى أمام الإمبراطور ورجال بلاطه مقولة جريئة هاجم فيها تسلط القوط على أمور الدولة، ساخرا فى نفس الوقت من مظاهر الترف والذعة التى تردى فيها الإمبراطور وبلاطه من زمرة المنافقين. وما قاله سينيوس لأركاديوس: «قم أيها الرأى واحترس من الذئاب فهى وإن أخفنت من صغرها ويذت مسنأمة فلا بد يوما أن تكشر عن



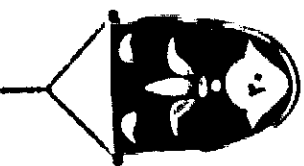
الإمبراطور ثيودوسيوس

أثار مقتل إمبراطور النصف الشرقى للإمبراطورية على أيدي القوط ردود فعل عنيفة فى النصف الغربى للإمبراطورية، وعلت الأصوات مطالبة جراتيان إمبراطور الغرب بضرورة التحرك للانتقام من القوط. واستجاب جراتيان باختيار جندى مرموق ليحكم النصف الشرقى للإمبراطورية وهو ثيودوسيوس الذى لمع نجمه بعد أن حقق انتصارات على قبائل السرماتيين. واتفق على أن يتولى جراتيان تأمين حدود الراين، وأن يقوم ثيودوسيوس بتجميع فلول الكتائب المنهارة فى الشرق لطرد القوط من سالونيكاً ومؤيريا العليا. ونجحت هذه الخطة فى إيقاف زحف القوط ولو إلى حين. وقد لجأ إمبراطور القسطنطينية الجديد ثيودوسيوس (٣٧٨ - ٣٩٥م) إلى سياسة الدبلوماسية فرحب فى بلاد بيزنطة بملك القوط أثنارك بعد أن خلعه شعبه، بل ومنحه أيضا حق اللجوء السياسى أملا فى أن يفيد به فى معالجة المشكلة القوطية التى باتت تهدد كيان الإمبراطورية فى الشرق والغرب على حد سواء. وفى نهاية الأمر نجح ثيودوسيوس فى إبرام اتفاق مع القوط على أن يسمح لهم بالاستقرار فى منطقة تراقيا مقابل تزويد الجيش الإمبراطورى بضع كتاب قوطية.

الآرك القوطى

ولقد استخدم الإمبراطور ثيودوسيوس كتيبة من القوط فى صراعه ضد خصمه يوجينوس المطالب بالعرش، وبهذا قويت شركة القوط فى العاصمة نفسها، مما اضطر الإمبراطور إلى إبعاد هذه الكتيبة إلى أراضى الدانوب، ولكن هذا الإقصاء إلى الدانوب أغضب جماعة القوط، فأخذوا يتجمعون حول زعيم جديد يدعى الآرك، وراحوا يغيرون على أراضى تراقيا ونساليا وآتيكا والمورة. وأصببت بلاد اليونان بخراب أتى على الأخضر واليابس. ولقد فر الكتاب الوثنيون الماصرون هذا الدمار الذى أوقعه القوط ببلاد اليونان على أنه مؤامرة دينية حاكها الإمبراطور الشرقى ثيودوسيوس مع القوط للقضاء على بقايا الحضارة الهلينية الوثنية. والمعروف أن ثيودوسيوس كان شديد الوطأة على الوثنية وسماحها وكهنتها فى مختلف الولايات الخاضعة للنصف الشرقى للإمبراطورية، فلقد أصدر سنة ٣٩٢م مرسوما إمبراطوريا بتحطيم معبد سيرابيس فى مدينة الإسكندرية، كما أمر بإيقاف تقديم الأضحيان فى المعابد، ونعت الوثنية صراحة بأنها «شعيرة سوقية» (Gentilicia Superstiti).

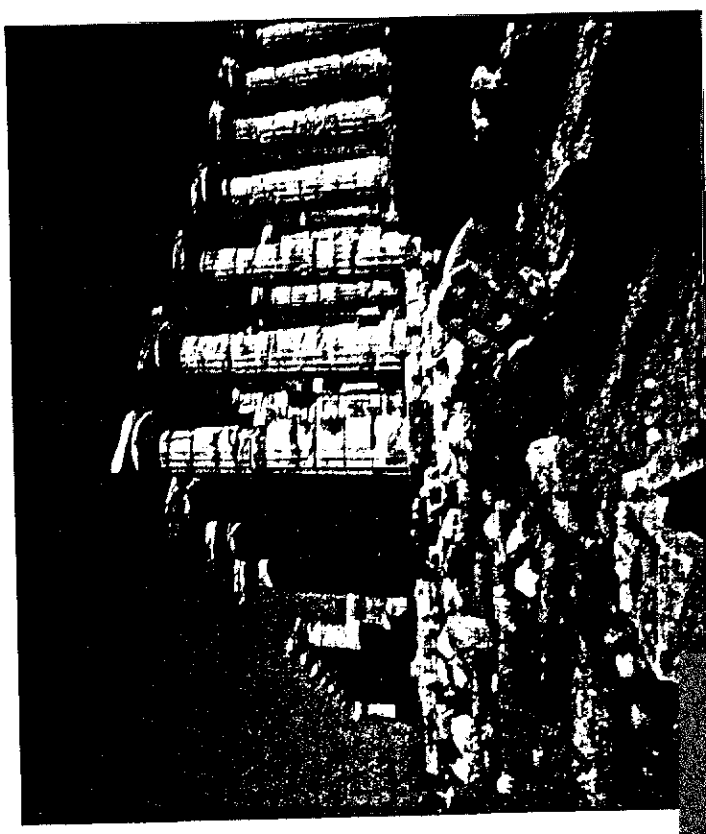
سقطت مدن اليونان الواحدة تلو الأخرى فى أيدي الآرك، وباتت مدائن كورنثة وآرجوس وميخارة وإسبرطة وبيره خرابا بيابا. ولم تملك أثينا إلا أن تفتح بواباتها للفشارى القوطى الجبار،



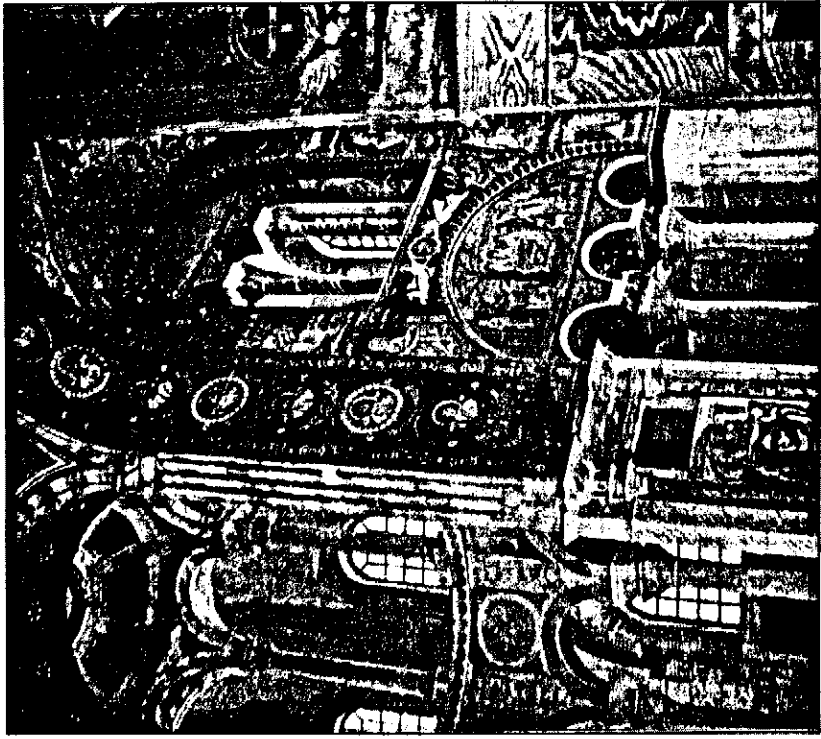
أبوابها لتنتهم القطع، ثم لا تلبث أن تنفض على الراعي نفسه لتأتي عليه تماما كما فعلت مع القطيع....

لقد أتت مقولة سبسيوس أكها، إذ أثارت الشاعر في العاصمة الشرقية ضد القوط وزعيمهم غايناس، وفي نهاية سنة ٤٠٠م دبرت السلطات مؤامرة تم فيها اغتيال غايناس وأتباعه في ضربة واحدة. وقد هلك الناس فرحا، وكتب الشعراء قصائد طوال هذه المناسبة. وتصور القوم أن الغنم قد اقتضت وما كانوا يعلمون أنه بعد غايناس سوف تتولى الإمبراطورية بقوطي آخر أشد وأكثي ألا وهو الأراك.

لقد جاهد النصف الشرقي من الإمبراطورية الرومانية لكي يحاشي الخطر القوطي دون أن يصاب بالانهيار، وساعد على ذلك الصمود موقع بيزنطة الاستراتيجية المتميز، إلى جانب أسوارها العالية الحصينة، كما لعبت الدبلوماسية البيزنطية الذكية دورها في التخفيف من غلظة الزعماء الجرمان تارة بالهدايا وحفلات الاستقبال في القصر الإمبراطوري وأخرى باستضافة أبناء زعماء القبائل ضيوفا في القصر الإمبراطوري، حيث تلقوا أساليب الحضارة وقواعد الدبلوماسية.



معد أبوللو
قورنية - ليا
- العصر
الروماني

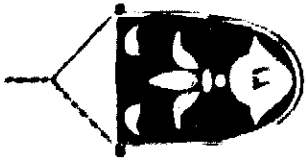


كنيسة رافينا البيزنطية

بعد أن قسم الإمبراطور ثيودوسيوس الإمبراطورية إلى قسمين، جاء النصف الغربي من نصيب ابنه هونوريوس الذي كان بدوره يتعين بزعم جرمانى خطير اسمه ستيلكون كقائد أعلى للجيش الروماني. وكان ستيلكون يخطط للاستيلاء على إقليم الليريا التابع للنصف الشرقي للإمبراطورية، ولهذا فإن السلطات في النصف الشرقي لم تجد غضاضة في تشجيع الزعيم القوطي الأراك على التصدي لمخطط ستيلكون، بل وأتمت عليه بلقب مسيد الجند الأعلى في الليريا (Magister Militum Illyricum).



أسلحة رومانية





أدرك أهل روما أن الكارثة واقعة لا محالة، فأودعوا سفارة إلى معسكر الآرك يفاروضونه في تسليم المدينة إليه على أن يؤمنهم على حياتهم وأموالهم، ولكن الزعيم القوطي رد على السفراء بقول ساخر: «اعلموا أنه على قدر ما يشتد صلب العود يسهل جزؤه بالمنجل»، ثم طلب إلى السفراء أن يسلّموه ما تختموه المدينة من كنوز ذهبية وفضية إلى جانب الأسرى من الجرمان.

وعندما تأزم الموقف إلى هذا الحد طالب نفر من الوثنيين في روما بضرورة



مجلس السيناتور - روما

تقديم الأضحيات للآلهة القديمة، ووجد محافظ زوما نفسه مضطرا إلى أن يلفت نظر البابا أنوسنت الأول بأن يفضض عينيه عن قيام الشعب الروماني بتقديم الأضحيات للآلهة الوثنية بشكل علني. ثم وجه الرومان سفارة جديدة إلى معسكر الآرك يعرضون عليه خمسة آلاف قطعة من الجلود الأرجوانية اللون، وثلاثة آلاف رطل من الثوابل. ولسداد كل هذا قرضت السلطات صيرية خاصة على اغنياء المدينة، ولقد استجاب البعض بينما تحامل الكثيرون للتهرب من الدفع.

ولما أن طال الحصار وتمتدت المفاوضات واشتد الجوع هاجت المأمة وجمسوا على محافظ

أما الآرك فقد قرر أن يزحف غربا ليستولي على إيطاليا نفسها، فبعبر برجاله جيال الآلب البوليانية، وخوفا من الحصار والمجاعة اضطرت مدن الشمال الإيطالي إلى فتح بواباتها للغازي القوطي الجديد، بينما جمع الموسرون كنوزهم ولاذوا بالفرار بحرا إلى جزر سردينيا وصقلية اتقاء لعائلة التيرينين.

في هذا الجو الخيف نشطت صنوف شتى من الأراجيف، فهرع الكهان لاستشارة آلهة المعابد، ولكن وجهها نطق بسوء المصير. وقد تزامن هذا الشعور بالهلع مع علامات طبيعية مرعبة من خسوف للقمر ونشوب للحرائق وهبوب للمواصف هنا وهناك. وفسر الناس كل ذلك بنذير للسوء القادم. وانتقلت حمى الفزع إلى القصر الإمبراطوري الذي نقل من روما إلى ميلان، وفكر أفراد الحاشية في الهرب. ولكن ستيليكون أقنع الإمبراطور هونوريوس بضرورة البقاء في ميلان لرفع معنويات الشعب، ثم روح ستيليكون لرواية خيالية مؤداها أن ذئبين قد هاجما الإمبراطور هونوريوس وهو يتجول في ضواحي ميلان ولكن الذئبين قد قفلا بمنعزة، وعندما بقرت بطن الذئبين عثر بداخلهما على كفين آدميين. وقد بادر عرافو القصر بتفسير تلك العلامة بأن يدي زعيما القوط والوندال سوف تقطعان بواسطة الجيش الروماني.

وقعت مفاوضات بين الزعيم الجرمانى آرك وبين الجيش الروماني بقيادة الزعيم الجرمانى (المترنق) ستيليكون، وفي آخر الأمر اتفق كل من الآرك وستيليكون على غزو إقليم الليريا سويا. ولما أن فاحت أخبار هذا الاتفاق ارتفعت الأصوات في الغرب تنهم ستيليكون بالخيانة، وقد عبر عن ذلك صراحة القديس جيروم مؤكدا أن هذا التبرير قد جر الخراب على روما. كما أن الجنيد الرومان عبروا عن تذمرهم بسبب ازدياد أعداد الجرمان في صفوف الجيش الروماني، مما اضطر الإمبراطور هونوريوس إلى تدبير مؤامرة تم فيها اغتيال ستيليكون في ٢٢ أغسطس ٤٠٨ م. وخير دليل على خيانة ستيليكون أن الفرق الجرمانية التي كانت تخدم في الجيش الإمبراطوري سرعان ما هجرت المعسكر الروماني وانضمت علانية إلى معسكر الآرك، وفي أثناء ذلك كانت تعزيزات قوطية تقف من وراء نهر الدانوب على معسكر الآرك، وبمدها وصلت فرقة أخرى بقيادة صهره أتولف. وعندما قرر الآرك أن يزحف على مدينة روما نفسها!

استولى القوط على مدن أوقوليا ويادوا وكريونة، وقطعوا على العاصمة روما سبل الاتصال بالعالم الخارجى بضرب حصار حول أسوارها، وسرعان ما شححت المؤن وانتشرت الازمة، وسقط الكثيرون من الجوع أو الخوف أو منها مسمما، واضطر بعض الاغنياء إلى التبرع ببعض مما لديهم لشراء الخبز من السوق السوداء وتوزيعه على الجوعين في المدينة المحاصرة، وكان على رأس المتبرعين أرملة الإمبراطور الراحل جراتيان، غير أن أرملة القائد الجرمانى ستيليكون لم تتبرع بشيء للفقراء، فحامت حولها الشبهات وسرت إشاعة بأنها على اتصال سررى بالعدو القوطى، فقبض عليها وتم إعدامها.

وسرعان ما دب الخلاف بين الزعيم القوطي الآرك وحليفه الروماني أتالوس من منصب العرش؛ ولذا فقد قبض الآرك على أتالوس وابنه واحتجزهم جميعا رهائن في معسكره. وعندما قرر الآرك أن يشق طريقه بالسيف ثم ضرب حصارا حول روما للمرة الثالثة في أغسطس لسنة ٤١٠م.

سقوط روما

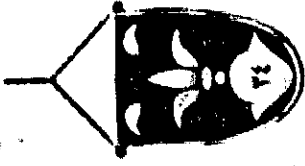
اشتدت وطأة الحصار على أهل روما فهلك الكثيرون منهم جوعا، وتورى المصادر أن نفرا من الجوعى قد جن جنونهم فأقدموا بالفعل على أكل لحوم البشر. وفي ليلة الرابع والعشرين من أغسطس ٤١٠م قام بعض العبيد الذين كانوا في خدمة سيده نيابة تدعى آيشيا بروما بفتح بوابة سالاريا لقوات الآرك، ويقال: إن هذه السيدة قد أمرت عبيدها بفتح البوابة بدافع الشفقة على أهالي روما الذين بلغ بهم اليأس حد الجنون والهوس.

اتقمت القوط بوابات روما وهم يتصايحون ويقرعون الطبول، وأشمولوا الحرائق في المبانى، والنهيم ألسنة النيران بعض القصور الفاخرة، ثم أطلق الآرك رجاله لنهب المدينة، وتحدثت المصادر عن حالات اغتصاب عديدة للصبايا والعذارى والراهبات. ويؤكد المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس (القرن ٦م) أن بعض النبايات قد سويت بالأرض ولم يبق منها أثر ينمى من بناء، وأن القتل كان جماعيا للشباب والنساء والأطفال. ومن المبانى التي انتهمتها النيران: قصر فالريوس، وقصر أقتين، ومعبد يونو، والمئبح القضى في قصر اللاتيران، وهو الذى كان الإمبراطور قسطنطين الكبير قد قدمه هدية للبابا سلفيستر، وكان وزنه ٢٠٤٥ رطلا من القضة الخالصة، كما التهمت ألسنة النيران صالة الكيوريا (المجلس) البابوية.

وبعد نهب وسلب دام ثلاثة أيام قرر الآرك الخروج من مدينة روما وعبور البحر الأبيض لإرساء قواعد مملكة قوطية على الساحل الأفريقى. وقد جر الآرك فى موكب جلالا بلاسيديا شقيقة الإمبراطور هونوريوس إلى جانب عدد كبير من رجال الدين.

الهون

لم تنته محنة روما عند هذا الحد، ففى كل فجر جديد كانت أمواج من البرابرة تجرف الناس فى كل صوب. وهذه المرة جاءت الكارثة من جوف آسيا، من رعاة متفروكا المعروفين باسم «الهون» (Huns). وحدثنا المؤرخ إيمانوس مارسلينوس (نهاية القرن الرابع) عن وحشية الهون، وكيف أنهم عندما يولد لهم وليد فإنهم يقومون بحرق وجته حتى لا يبيت له شعر فى ذقنه. وهو يشبه بنتهم الجسمية بجدوع الشجر المشوثة، وهم لا يظهرون طعامهم بل يحفنون اللحم تحت أظفارهم على ظهور الخيل التى يبلدر أن يترجلوا عنها. وهم يظنون أجسادهم بجلود الفئران ولا



المدينة وأسطوره بوابل من الحجارة حتى هلك. واختلط الخابل بالنابل، واقتحم الدماء بيوت السادة ينهبون تماثيلها الفضية والذهبية والقرا بها فى النار لتصهر فيحولونها إلى عملات.

بعد أن تسلم الآرك جزءا من القدية المطلوبة سمح لأهل روما بالخروج من الحصار لمدة ثلاثة أيام عسير بعض البوابات المحددة وذلك للتزود بالمؤن. ولم يفوت جند الآرك هذه الفرصة، فأخذوا يسيمون للناس بعض أغراضهم بأثمان خيالية. هذا، وقد استجابت السلطات فى روما لمطلب الآرك فأطلقت سراخ من فجاء هؤلاء ليرفوا من عدد الجند فى المعسكر القوطى المتحضر.

تراجع الآرك بعد هذا إلى منطقة توسكانيا لكى يراقب مدى التزام السلطات الرومانية بتنفيذ ما اتفق عليه بين الطرفين، ويبدو أن الإمبراطور هونوريوس لم يكن جادا فى مراعاة تنفيذ الاتفاق البرم، فلقد اختار شريكا له فى حكم النصف الغربى للإمبراطورية اسمه قسطنطين شريطة أن يزوده ببعض الفرق العسكرية للتصدى لالارك. وعليه فإن الآرك أخذ يشدد من موقفه مرة أخرى، فطلب من هونوريوس مزيدا من النضة وأن يسمح له بإقامة معادل قوطية فى البندقية وإستريا وبلاتشيا، وأن ينعم عليه بلقب «سيد الجند الأعلى» لسانه جيوش الإمبراطورية فى الغرب. وكانت هذه المطالب بمثابة إلقاء الفشار فى وجه الإمبراطور، وعليه ففى نهاية سنة ٤٠٩م زحف الآرك لحصار روما مرة ثانية، فاستولى فى طريقه على ميناء بورتو على نهر التيسر كى يحرم روما من وصول المؤن، ثم وجه طلبا إلى مجلس السيناتو بضرورة خلع هونوريوس عن العرش وتنصيب شخص يدعى أتالوس بدلا منه.

وكان أتالوس هذا ابنا لمحاظ سابق لروما، وكان على المذهب الأريوسى، كما كان على علاقة طيبة مع الآرك. وبالفعل نصب أتالوس نفسه إمبراطورا على روما، وراح يوزع مناصب الدولة على أتباعه، وأفصح أمام السيناتو عن أمه فى توحيد الإمبراطورية شريكها وغربها تحت صولجانه بمزارة القوط وسيدهم الآرك.

فى أثناء ذلك كان الإمبراطور الشرعى هونوريوس حيسا فى أحد القصور فى مدينة راقنا، ولما كان عاجزا عن التصدى لالارك ولغريه أتالوس فإنه عرض على الأخير أن يعترف به شريكا له فى الحكم، ولكن أتالوس رفض العرض وهدد بالقبض على هونوريوس وتشويه خلقته ثم نفيه إلى إحدى الجزر. وفتح هونوريوس وكفر فى الهرب إلى القسطنطينية للاحتباء بجوار ابن أخيه ثيودوسيوس الثانى، ولكن إمبراطور القسطنطينية كان هو أيضا يترعد خوفا من الآرك، إذ باتت الإمبراطورية الرومانية بنصفها المنزولين - على حد تعبير المعاصرين - «العسوة فى أيدي منقلب معتمه هو أتالوس ومتبرير فاجر هو الآرك».

اسمهم الرعب في قلوب سكان أوروبا، حتى إن صلوات الناس قد تضمنت صيغة جديدة من الإبهال إلى السماء بأن «تجنّي العالم من شرور إبليس وكيد آتيللا!» وكان آتيللا قد أسر آلافًا من القوط وجرهم معه في موكبه كميند جنوبي نهر الراين لاقتحام أرض غالة (فرنسا القديمة). وقد وصلت جمافل الهون إلى مدينة متر في ٧ أبريل سنة ٤٥١م، ودمرت المدينة تمامًا، ثم رحف الهون صوب



باريس، ولكن آتيللا سرعان ما عدل عن خطته وجم جنوبًا شطر مدينة أورليانز. وجدت السلطات الرومانية الغربية نفسها في موقف حرج للغاية، فكلف الإمبراطور فالتيان الثالث (٤٢٥ - ٤٥٥م) قائد جيوشه أتيوس بالتصدي لآتيللا وجهجاقته. ولم يجد القائد

جنود وقرود

رومان في معركة

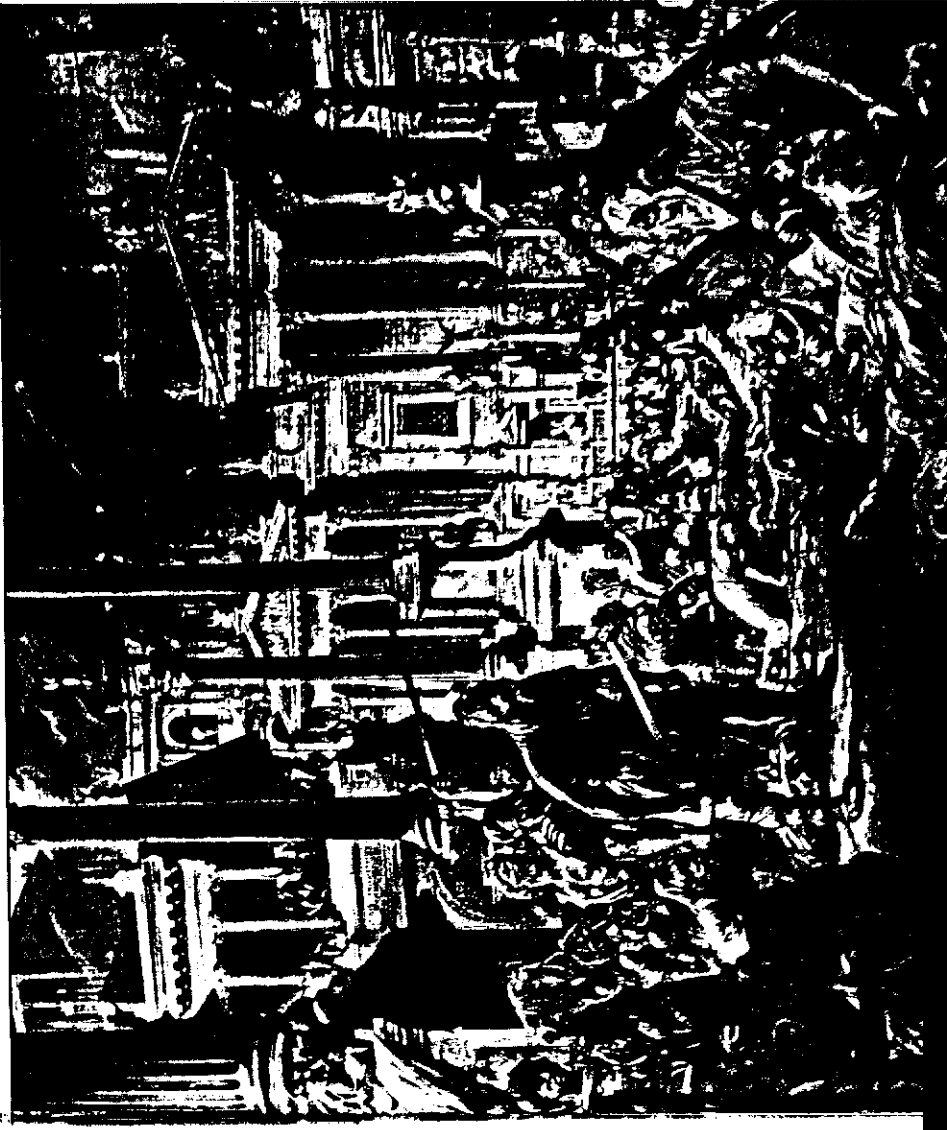


يخلمونها حتى تلبى تمامًا، وهم أيضًا يغطون سيقانهم بشمور الماعز. ولا تلمس أقدامهم الأرض حتى وقت الظمام والشراب، بل إنهم ينامون على ظهور جيادهم، وقد مالوا على رقابها قليلاً، كما أنهم يعتقدون مؤثراتهم مع رؤسائهم في دائرة وهم على ظهر خيولهم.

آتيللا

لقد تمكن الهون من الاستيلاء على منطقة بانونيا (المجر حالياً) بعد أن نجح قائدهم الجبار آتيللا في تدمير القوى الجرمانية التي صادفته من بحر قزوين إلى البحر الأسود إلى شواطئ الدانوب. وبات آتيللا يتسرع على عرش إمبراطورية مغولية كبرى امتدت من جوف آسيا إلى قلب أوروبا، وكانت تزقد تحت قدميه تلال من الذهب لا يحصر لها. والهون هم الشعب الوحيد من بين الجماعات الشبيهة الذين لم يدخلوا كجنود مرتزقة في خدمة الرومان. وقد آثار

مقطر روما



جنزريك

تمكن الوندال بأسطولهم البحري وبالسفن الرومانية التي استولوا عليها من غزو جزر البليار واكتشاف شواطئ موريتانيا. وكان جنزريك مقتنعا بأن مستقبل أمته لن يكتمل إلا بالسيطرة على حوض البحر الأبيض وتحويله إلى بحيرة وندالية، ومن ثم فقد أخذ يخطط للسيطرة على الشمال الأفريقي لكي يحرم الرومان من الغلال حتى تصيح كل من روما والقسطنطينية تحت رحمته!

وعندما تسربت أخبار المشروع الوندالي إلى بلاط القسطنطينية، أشارت أصابع الاتهام إلى يورنياس حاكم ولاية أفريقيا الروماني بالخيانة، ويأته يتآمر مع الوندال مقابل أن يسمحوا له بالانسلاخ بجزء من ولاية أفريقيا يحكمه لحسابه. وقد بادرت السلطات الرومانية بإرسال حملة تاديبية ضد يورنياس، وهكذا تمزق الصف الروماني. كما أن المنازعات الذهبية بين فرقة عرفت باسم «الدوناتيين» وبين الكاثوليك في قرطاج قد خلقت جوا من الفوضى والشاحنات العقائدية في الشمال الأفريقي.

شجعت هذه الأحوال المضطربة الملك الوندالي جنزريك على الإبحار من جنوب إسبانيا قبالة الساحل الأفريقي. وقبل رحيله انقض جنزريك على قبيلة جرمانية من جماعة «السوف» وأبادها تماما. ثم أبحرت أمة الوندال وفي ركايبها آلاف من الأسرى والعيبد، ويقدر عدد أفراد هذه الهجرة بقرابة ٨٠.٠٠٠ من رجال ونساء الوندال. رسا الأسطول الوندالي في طنجة ومنها تحرك الجند الوندال نحو موريتانيا القيصرية رحفا نحو العاصمة قرطاج. وكانت مسيرة الوندال تتراوح بين ستة إلى ثمانية كيلومترات في الساعة، ويرجع السبب في بطء الحركة إلى نقل العربات وأحمالها على الخيول التي تجرها، وأيضا بسبب اشتغال رجال الحملة في نهب وسلب جميع البقاع التي مروا عليها.

كان مجرد ذكر اسم الوندال كافيًا لإثارة الذعر في نفوس الناس، فلقد أتت الأخبار من غالة وإسبانيا وإيطاليا عن وحشية هؤلاء القوم وبربريتهم التي فاقت كل وصف. وكان أشد الناس ملها رجال الدين الكاثوليك بسبب ما عرف عن الوندال من تعصب سهوس للمذهب الأريوس ومن كره بالغ للكنائس. وقيل عن الوندال: إنهم تفردوا في سلب فروة رموس ضحاياهم ليؤتروا بها سروج جياهم وقت المسمة!



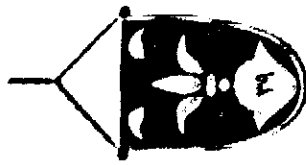
الروماني حلا إلا بمخاطبة ود الزعماء الجرمان - الأعداء التقليديين لروما - لمجابهة العدو الآسيوي المشترك. وهكذا فإن الجيش الروماني الذي تصدى لآتيلا في غالة كان يضم عناصر مرتزقة أو معاهدة من مختلف القبائل الجرمانية؛ من برغنديين، وآلان، وفرنجة، وسكسون، وقوط غربيين وشرقيين. وأطلق الجميع على معسكر الهون في حقول قطالونيا على مقربة من بلدة تروي (Troyes) في غالة، ولأول مرة تلمح الهزيمة بجيوش آتيلا الجبار. وقد هلك في هذه المعركة ملك القوط الغربيين الجديد ثيودريك وذلك تحت لسوء العلم الروماني. واضطر آتيلا بعد هذه الهزيمة المرة إلى التقهقر قبالة مقر إقامته في باتونيا. وفي طريقه عرج على إيطاليا. وضرب حصارا حول مدينة أقريليا ثم دمرها بعد أن هجرها أهلها جميعا، ثم سال على مدينة البندقية وضربها ثم هبط على سهل نهر بو ودخل مدينة ميلانو.

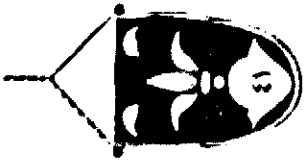
ازداد خطر آتيلا على إيطاليا واضطر الإمبراطور فالنتينيان إلى الفرار من راقنا إلى روما، بل إن القائد أتيوس نصح الإمبراطور بأن يهرب إلى غالة؛ لأن آتيلا كان عازما على شن طريقه بالسيف إلى روما نفسها، ثم تقرر إيفاد سفارة من روما مؤلفة من البابا ليون الكبير والقنصل إتيانوس للتوسل إلى آتيلا كي يعدل عن مهاجمة روما مقابل جزية مهولة من الذهب والفضة. وبعد أن وصلت كتوز الذهب والفضة بالفعل إلى معسكر آتيلا، قرر الانسحاب إلى بلاطه في باتونيا، وفي الطريق انتشر الرواه بين رجاله. وفي صبيحة أحد الأيام اكتشف أتباعه أن نوبة جنونية قد أتت عليه وهو مخمور أثناء الليل فمات، وكان ذلك في سنة ٤٥٣م.

وتفنى الرومان الصمداء، وفسر المعاصرون موت آتيلا بمحزة سماوية أنقذت روما والرومان من مخالب التنين الآسيوي الرهيب!

الوندال

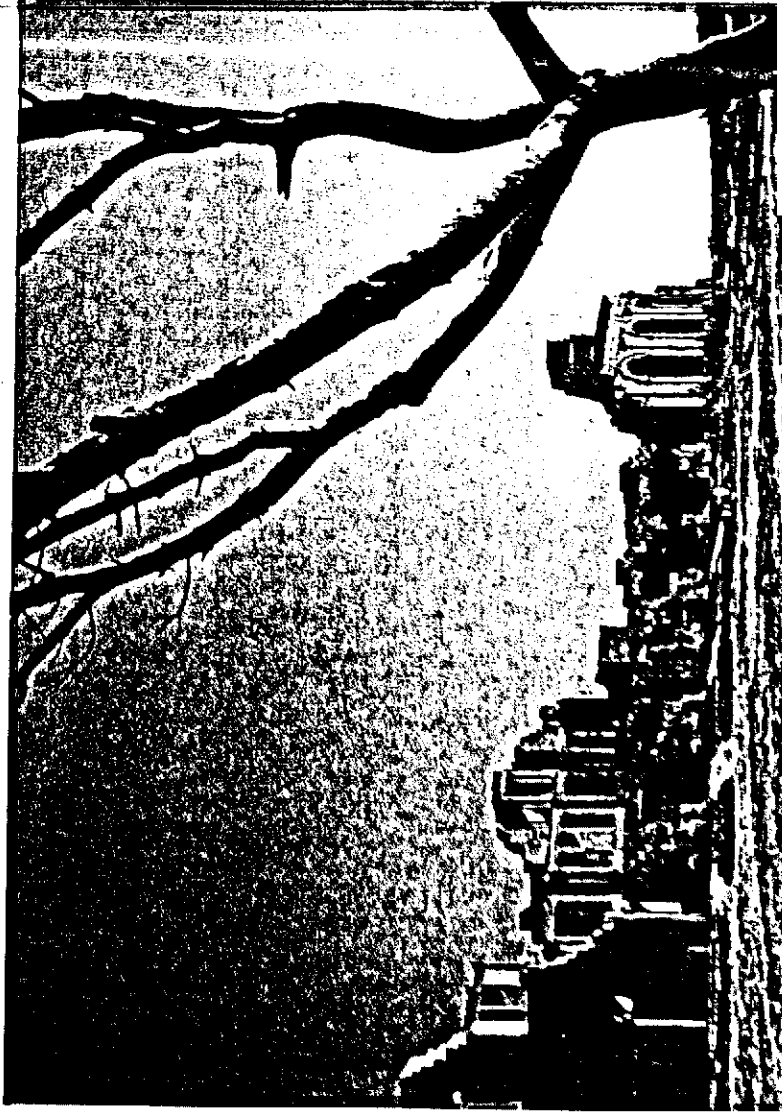
في أثناء ذلك كانت جماعة جرمانية أخرى تعبت بأقدار الناس في كل من غالة وإسبانيا، وتلك هي قبيلة الوندال. فبعد أن اصطلت الوندال بسيط آتيلا، لاذوا بالفرار من غالة إلى إسبانيا. وفي إسبانيا هجم الوندال على الكنائس الرومانية المرابطة هناك وفرضوا أنفسهم سادة على البلاد. وما لبث الوندال أن شيدوا لهم أسطولا بحريا، ويقال: إن نفرا من الخيراء الرومان قد نقلوا سرا أسرار بناء الأسطول للوندال مقابل رشوة ضخمة. ولقد ارتبطت سيرة الوندال في إسبانيا بتخريب الكنائس ونهبها خاصة تحت حكم ملكهم جوندريك. وبعد موت جوندريك تولى الحكم على الوندال ملك جديد اسمه جنزريك، الذي كان مقلا في الكلام، غضوبا إلى حد الجنون، تواقا إلى الذهب وملسه، ماكرا في زرع الخصومة بين مناصبه، جبارا في كبح جماح رجاله الأشداء.





الخلق وهم يولولون. ولما أن اتربت جحافل الوندال من بوابات قرطاج، أصيب الناس وراء الأسوار بالفرع الشديد، وهربت أعداد منهم إلى الجيوب، ولكن الوندال تصيدوهم وقتلوهم عن بكرة أبيهم. ولقد قام الوندال على مرأى وسمع الجميع بإحراق بعض الأساقفة أحياء، ومن بينهم بامباتوس، ومانسيوتوس. في أثناء ذلك كان الكونت بونيفاس - الذي اتهم بالخيانة - يمسكر مع رجاله خلف أسوار مدينة هيو التي اغتصت باللاجئين. وفي نفس الوقت كان القديس أغسطينوس يوقد داخل نفس المدينة التمية وهو في حالة مرض شديد. وورثه شدة الإعياء وحمل السنين، ظل الرجل يلهم تلاميذه ومريديه بجمل العزاء كي يجازوا معه التجربة المرة، ولما أن دنت ساعة الخلاص من أوزار هذا العالم صنع أغسطينوس على مسرع من تلاميذه: «اللهم أطلق عبدك بسلام»، وتلقف الجميع الصرخة الأغسطينية ودوت بها الحناجر. وبعد قليل فاضت روح الرجل إلى باربيها، وكان ذلك في ليلة الثامن والعشرين من شهر أغسطس سنة ٤٣٠م. وسقطت مدينة هيو في أيدي الوندال، وكان نصيبها النار والدمار عن آخرها.

آثار من حضارة مدينة قرطاج



القديس أغسطينوس

بينما كان الإحصار الوندالي يجتاح الساحل الأفريقي، كان الفيلسوف أغسطينوس متكئا في مدينة هيو (عناية حاليا) وهو في حيرة شديدة من أمور هذا العالم، فلقد أصيبت الرعية من خاصة وعامة بالهلع، واختفى الرعاة من منابهم، وخرست النواقيس، واشتمعت آلسة النيران في الكنائس. وقرر صغار الكهنة من وجه العدو بضربون الطرقات والبراري كالشحاذين. ودوت صرخة صاحب «مدينة الله» تقول: «إن الإنسان الماقل هو الذي لا يهتم على انهيار عمود من الخشب، ولا على انهيار كرم من قويد الحجر، ولا حتى على موت يصبه؛ لاننا جميعا مخلوقات ذائقة كأس الموت لا محالة، فعلام الخزن إذن؟». ولا يملك هذا الرواقى المملاق إلا أن يعلن لسامعيه وتلاميذه بأن كأس الموت حتى على الجميع، وأن لآم الجسد تظهر الأرواح، وأن على الناس أن يتهلوا إلى السماء وقت الضيق لاجتياز مرارة الكأس التي لا مفر من تجربها، وأنه على الراعى الصالح ألا يفر هاربا من القطيع المروع؛ لانه لا يلبق بريان السقية أن يهجر سقيته وهي تغرق.

لقد بلغ جرم الوندال في الشمال الأفريقي حدا بشعا للعباية، فحين نعلم من رسالة للبابا ليون الكبير أن أعداد الزاعيات اللاتي هُتكت أعراضهن وتم اغتصابهن على أيدي الجند الوندال كانت أعدادا مهولة؛ ولذا فإن البابا يطلب في رسالة إلى أساقفة شمال أفريقيا وموريتانيا أن يهتموا أن يعاملوا هؤلاء الضحايا ولكأنهن «عداى أرامل من غير ذنب أتيه».

وفي نوميديا ضرب الوندال الحصار حول سائر المدن، فانشرت للجاهات وتفتت الأرونة بسبب كثرة الجش، وامتلأت الطرقات بأسواج من

ولاية أفريقيا الرومانية - بقايا كنيسة بيزنطية - ليبيا



وفي التاسع من أكتوبر ٤٣٩م اقتحم الوندال أسوار قرطاج، وسقطت العاصمة سقوطاً مروعاً، إذ استولى البرابرة على كل ما فيها من أخضر وباس، ونهبوا الكنائس من نقائشها وأدوات طقوسها، كما اعتدوا على الحرمات دون تمييز. وما لبثت معارل الهدم والتخريب أن اجتاحت آثار قرطاج القديمة وكاتدرائياتها، كما حولت بعض كنائسها إلى إسبيلات للخيرول. وبعد السقوط أصيب رجال الدين الكاثوليك بحال من الجبن الشديد، ففي سراظهم أيام الأحاد تجنبوا الإشارة من قريب أو بعيد إلى الكارثة الكبرى التي حلت بقرطاج. ولكن حدث في ذات موعظة أن أشار أحدهم من على منبره - ولو بطريق السهول - إلى اسم فرعون أو نبوخذ نصر، فإن جتزريك كان يفسر ذلك بأنه هو المقصود من وراء هذا الاسم أو ذلك، فيأمر بالقبض على الكاهن الواعظ ويسام العذاب ألواناً.

فرض الوندال سيطرتهم على الشمال الأفريقي بقبضة من الحديد، كما همين أسطولهم على حوض البحر الأبيض المتوسط، وهكذا فإنه بعد سقوط قرطاج في أيدي جتزريك باتت كل من روما القديمة وروما الجديدة (القسطنطينية) في خطر داهم. ولقد عمل الإمبراطور الغربي فالنتيان على إصلاح أسوار روما التي تهدمت وعلى إقامة التحصينات لحماية ميناء نابلي. وفي سنة ٤٤٠م. قام جتزريك بحملة بحرية من ميناء قرطاج، ولكنه لم يعلن عن هدف الحملة مكفياً بالقول: ونحن نقصد قوماً أغضبوا السماء. غير أن الإمبراطور فالنتيان شعر بأن الحملة موجهة ضده، فطلب إلى رعاياه التحلي باليقظة ومقاومة العدو حينما ترسى سفاته إلى أن تصل إليهم النجدة الإمبراطورية.

مرست سفن جتزريك أول الأمر على شواطئ بلدة ليبيا، ومنها هبط الجند على جزيرة صقلية فنهبوا تماماً. ولما أن علم جتزريك قرب وصول أسطول من القسطنطينية إلى صقلية، أبحر مسرعاً بالعودة إلى قرطاج.

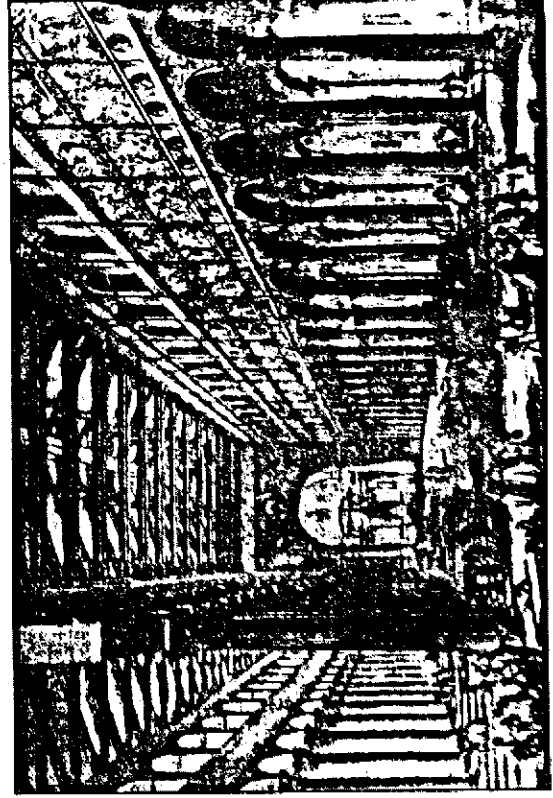
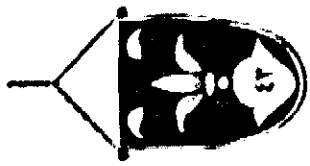
اضطر الإمبراطور الغربي فالنتيان إلى فتح باب المفاوضات مع العدو الوندالي الذي لا يرحم، وقد عرض الإمبراطور أن يزوج شقيقته الأميرة يودوكسيا من ابن لجتزريك، غير أن هذه الصفقة لم تتم، إذ قام قائد روماني يدعى بترونيوس ماكسيموس باغتيال الإمبراطور والجلوس على العرش، ثم زوج الأميرة يودوكسيا من ابنه المدعو أتشيوس. وقد كانت هذه الأحداث ذريعة كافية لجتزريك كي يجرّد حملة جديدة يؤدب بها بترونيوس منتصب العرش.

أبحر الأسطول الوندالي إلى ميناء بورتو، ووست الكنائس لتزحف برا قبالة مدينة روما. وفي الطريق أشعل الوندال الحرائق في كل مكان، فأصيب أهل روما بالفزع الشديد، وهرب الكثيرون لا يلبون على شيء، وكان من بين الفارين الإمبراطور بترونيوس ماكسيموس نفسه. ولقد كان هذا الهروب المخزي مدعاة لان يقوم واحد من رجال حرسه الخاص بقتله بحجر فأراده

فيلا، ثم هجم الجمهور الغاضب على جثة الإمبراطور وسلطوا بها ثم القوا بها في نهر التيبير. وبعد ذلك الحادث بثلاثة أيام اقتحمت كتائب جتزريك مدينة روما، ولم يكن في المدينة من يتولى التوسل من أجلها سوى البابا ليون الكبير، الذي قصد بنفسه إلى معسكر جتزريك عارضاً أن يسلم له كتور كاتدرائية القديس بطرس مقابل العفو عن المدينة.

وافق جتزريك على التماس البابا ليون، وأصدر أوامره بإيقاف الحرائق وقتل الأنفس، ولكنه أذن لرجاله بنهب المدينة. واستمر النهب الوندالي لمدينة روما أسبوعين كاملين، ثم خلاهما فرغ القصور من كل محتوياتها النفيسة، كما استولى جتزريك على النياشين والعلامات الإمبراطورية، والأعجب من هذا كله أنه أسر رجاله باقتطاع جزء من سقف جويستر في معبد الكابيتول فلما منه أنه من الذهب الخالص، وهو في الحقيقة من البرونز الأصفر. هذا، كما استولى الوندال أيضاً على كم وافر من التماثيل القديمة والكتور التي كان القائد تيطوس قد حملها إلى روما بعد تخريبه لهيكل سليمان في بيت المقدس (القرن الأول الميلادي).

وحمل الوندال تلك الكتور والآثار النادرة على ظهر إحدى سفنهم، غير أن هذه السفينة بالذات قد غرقت بما كان على ظهرها من كتور ونقائش، وهكذا ابتلع اليم حضارة باكملها! وقد حمل جتزريك معه عدداً من الرهائن، من بينهم أتشيوس ابن الإمبراطور بترونيوس، وأرملة الإمبراطور فالنتيان وابنتها، إلى جانب نفر من أعضاء السيناتو والكنبة وخبراء السلاح. ونفيض المصادر بأخبار مؤسفة عن أحوال الأسرى الرومان الذين اقتادهم الوندال إلى قرطاج، فنقد -



كاتدرائية القديس
بطرس القديمة



الفصل الثالث شارلمان والنهضة الكارولنجية (٨٠٠م)

في سنة ٤٨٦م اقتسم كلوفس الزعيم الجرمانى لقبيلة الفرنجة حدود نهر الراين واحتل منطقة باريس فى غالة. وكان كلوفس قبل ذلك يخدم هو وأتباعه كجنود «معاهدين» فى الجيش الرومانى. وفى غالة أخذ كلوفس وأتباعه يتمثلون بالسادة الرومان فى الملابس والعادات، إذ رأى فى نفسه نملا للإمبراطورية الرومانية فى بلاد الغال. وقد وقع اختيار كلوفس على أميرة برغندية على المذهب الكاثولىكى اسمها كلوتلد (Clotild) وتزوج منها.



كيسة راتنا

وينسب هؤلاء الفرنجة
البيرونجيون إلى جد أسطورى اسمه
ميروفنش، ويعتقدون أنهم تحددوا من
نسل الآلهة الجرمانية القديمة، ومن ثم
فإنهم كانوا يرخون شعور رهبهم حتى
تتدلى تحت أكتافهم علامة على هذه
الأصول القديمة. وكان ملوك الفرنجة
ينظرون إلى غالة على أنها ملك خاص
لهم ولأولادهم من بعدهم؛ فعندما مات
كلوفس قسم الملكة بين أبنائه الأربعة:
ملكة أوسترايا الواقعة على ضفتى نهر
الراين؛ وملكة نوستريا الواقعة شمالي
غالة؛ وملكة برغنديا فى وديان نهري
الرون والساون؛ ثم ملكة بروغانس فى جنوبى غالة. وقد دخل الأبناء الأربعة (يُسهريك؛
كلودبير؛ شلدبرت؛ كلوتار) فى صراع دامى، كلٌ يسمى لتوسيع رقعة مملكته على حساب إخوته
الأخرين. ثم شهدت الملكة صراعا مريرا بين اثنين من أحفاد كلوفس هما الأخوان سيجرت،
وشلبريك. وقد هلك فى هذا الصراع عشرات من أمراء البيت المالِك ومن كبار النبلاء. وكان

(*) نسبة إلى كارل مارتل جد شارلمان (كارل أو شارل العظيم).

وصولهم إلى المناطق الأقرىقى، قام القادة الوندال باقسام هؤلاء الأسرى فيما بينهم، بعد أن عزلوا النساء عن أزواجهن والآباء عن أطفالهم.

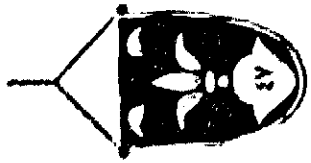
بعد هذه الحملة راح جتزيك يرهب أراضي النصف الشرقى للإمبراطورية، فأرسل حملات بحرية نهبت الجزر اليونانية وأسرت العديد من أهلها. وقد حاولت السلطات فى القسطنطينية التصدى لاسطول الوندال، كما جرت حملة من مصر للهجوم على طرابلس، ولكن الأسطول الوندالى دمر هذه الحملة (٤٦٨م).

مكلا باتت كل من روما القديمة وروما الجديدة عاجزين تماما أمام جيوت الوندال. وفى أثناء ذلك كان جتزيك قد أطلق سراح الإمبراطورة الأسيرة ولكنه استبقى ابنها يودوكسيا ثم زوجها بالقوة من ابنة هونريك، وظلت هذه الأميرة القديمة زوجة لهونريك لمدة ستة عشر عاما، ثم هربت سرا بعد ذلك إلى بيت المقدس.

بعد وفاة جتزيك سنة ٤٧٧م، خلفه عدد من أبنائه وأحفاده هم: هونريك (٤٧٧ - ٤٨٤م)؛ جوتساموند (٤٨٤ - ٤٩٦م)؛ ترازو موند (٤٩٦ - ٥٢٣م)؛ هلدريك (٥٢٣ - ٥٣١م)؛ وأخيرا جلمير (٥٣١ - ٥٣٤م) الذى قدر له ولدوته السقوط النهائى على أيدي الإمبراطور الشرقى جستنيان العظيم (٥٢٧ - ٥٦٥م) وقائده المرموق بلزاريوس وذلك فى ديسمبر لسنة ٥٣٣م.

الإمبراطور الشرقى جستنيان العظيم (٥٢٧ - ٥٦٥م)



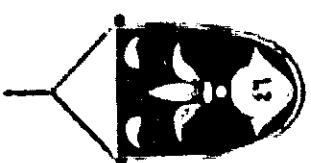


بين القصير

ولما أن انفرد بين القصير بحجابه البلاط الفرنجي في مملكتي نوستريا وأسترايا أخذ يفكر في وضع تاج الملك على رأسه هو، فأرسل سفارة إلى روما يطلب من البابا زكريا الفتوى في سؤال مارك: أيهما أحق أن يكون ملكاً؟ ذلك الذي يحمل اللقب والساج وليس له حول ولا قوة، أم هذا الذي يبسه كل السلطات فيما عدا اللقب؟ ولما كان البابا زكريا في حاجة ملحة إلى حليف قوي يناصره على أعدائه اللومبارد في الشمال الإيطالي، فقد بادر مجيباً بأن صاحب السلطة الحقيقية هو الأجدد بأن يتوج ملكاً. وعليه فقد انعقد مجلس في مدينة سراسون سنة ٧٥١م، واقتد الملك الميروفنجي شلدريك الثالث إلى قاعة المجلس حيث اجتر شعره وأجبر على ارتداء لباس الرهبنة، ثم ألقى به في أحد الأديرة النائية. ثم قام كبير أساقفة الفرنجية بونيفاس بإعلان بين ملكا على الفرنجية، وقام بمسحه بالزيت القدس علامة على التقيؤض الإلهي له في الحكم.

اللومبارد

وكان اللومبارد وهم من عتاة القبائل الجرمانية قد دخلوا إيطاليا سنة ٥٦٨م، واتخذوا من مدينة عاصمة لهم، ثم ما لبثوا أن سيطروا على كل أراضي السهل الإيطالي الشمالي، ودوقيتي سبولتو وبنيفنتو. وقد قلب على عرش اللومبارد ملوك كثيرون بلغ عددهم اثنين وعشرين ملكاً، بدءاً بالملك البوين (٥٦٨ - ٥٧٢م) وانتهاء بالملك ديزديروس (٧٥٦ - ٧٧٤م). وقد دخل اللومبارد في صراع ضد بقايا المعازل البيزنطية في رافنا، وضد البابا الروماني. وكان الملك اللومباردي استولف (٧٤٩ - ٧٥٦م) من أشد المناهضين للبابوية، وكان يحفظ للزحف على مدينة روما ليخضعها للتاج اللومباردي. وفي طريقه زاحفاً أرسل «استولف» بشير إلى البابا ستيفن الثالث (٧٥٢ - ٧٥٧م) يطلب منه الاعتراف بسيادة التاج اللومباردي على الكرسي البابوي. وغضب البابا من هذا التعرش بسلطانه، فأرسل قرار «الجرمان» على استولف، ثم التفت البابا إلى ملك الفرنجية بين القصير يطلب منه الحماية ضد عدوه استولف اللومباردي. ثم قرر البابا السفر بنفسه إلى مملكة الفرنجية سنة ٧٥٤م ليطلب بنفسه المساعدة العسكرية من الملك الفرنجي. واقتد للبابا استقبالات حافلة في مملكة الفرنجية، وخرج بين القصير ورجال بلاطه للاقاة البابا لحظة وصوله، وأمسك بلجام الجواد الذي كان يعطيه البابا علامة على الولاء والود. ثم استمع الملك الفرنجي إلى شكوى البابا وطيب خاطره ووعده بالمساعدة ضد اللومبارد. وفي أبريل ٧٥٤م عقد بين القصير مجلساً تقرر فيه أن يعمل الملك الفرنجي على أن يعيد للبابوية أملاكها في إيطاليا



المحرك لهذه المؤامرات والاختيالات الأسيمة بروهنلدة زوجة سنجيرت التي دبرت سلسلة من الاغتيالات ضد خصوصها، حتى قبض عليها أعداؤها وقتلوا جميع أحفادها، ثم وضعوها على ظهر جمل، وفي آخر المطاف قيدوا بشعر رأسها وأوثقوا ذراعها وقديمها بذيل حصان جامع، فألهبوا ظهره بالسياط فمزقتها إربا، وكان ذلك في سنة ٦١٤م.

إن هذه الصراعات الدامية قد جعلت من أحفاد كلوفس ملوكاً ضعافاً من أمثال سنجيرت الثالث، وداجويرت الثاني، وشلدفيج الثاني، الذين صاروا مجرد دمي في أيدي «صاحب البلاط» (Major Domus)، حتى إن التاريخ قد شيع هؤلاء الملوك الضعفاء باسم «الملوك العاطلين» (Les Rois Fainéants).

وسرعان ما نشبت الخلافات بين حاجبي البلاط في مملكتي نوستريا وأسترايا، ودارت معركة بين الطرفين في بلدة تستري (Testry) سنة ٦٨٧م، والتي انتهت لصالح مملكة أسترايا وحاجب بلاطها بين هرترال الأكبر (٦٨٧ - ٧١٤م).

وكان لهذا الحاجب ابن غير شرعي اسمه كارل، وحفيد يدعى ثيدوالد، ولقد قامت أرملة الحاجب (بلكرويس) بالوصاية على هذا الحفيد بعد أن ألفت بكارل في السجن، غير أن النبلاء ثاروا ضدها وساعدوا كارل على الهروب من السجن، ثم اعترفوا به حاجباً على بلاط أسترايا. وكان عهد كارل الملقب «بالطرفة» (Marte) مليئاً بالحروب ضد السكسون والفرينين والباغار واللاتي. وفي سنة ٧٣٢م اشتبك كارل مارتل مع عرب إسبانيا تلبية لاستجداء الكورت بود (Endes) صاحب أقطانيا ضد الأمير عبد الرحمن الغافقي، ووقعت بين الطرفين المعركة المعروفة في المصادر العربية باسم «بلاط الشهداء» في بواتيه أو تور بوسط فرنسا.

كارل مارتل

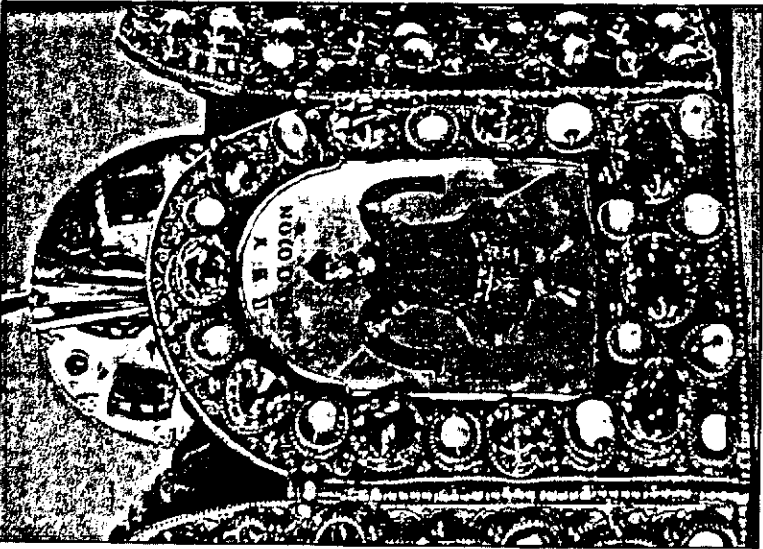
توفي كارل مارتل سنة ٧٤١م بعد أن قسم حجابة المملكة بين ولديه كارل، وبين، ولم يعبا بتعيين ملك للمملكة لمدة أربع سنوات، إذ كانت مقاليد السلطة في يده - كحاجب للبلاط - ولم يشتر أحد أن مملكة الفرنجية بحاجة إلى دمية أخرى من البيت الميروفنجي للجلوس على العرش الشاغر. وقد أمضى الاخوان كارل وبين الاعوام السبعة عقب وفاة والدهما في حروب ضد أقطانيا وباقاريا وسكسونيا وبعض الجماعات السلافية. ولكني يعين الاخوان في السخرية من البيت الميروفنجي فقد اختارا واحداً من هذا البيت يدعى شلدريك الثالث وأجلساه على العرش، ولكنه ظل مجرد شيع متزوج وهو بحق آخر «الملوك العاطلين». وفي سنة ٧٤٧م تنازل كارل عن السلطة لانيه بين والكني به «الفصير» (Le Bref)، واعتزل شتون العالم، ثم ارتدى مسرّح الرهبان منزوا على قسم جبل سوراكت على مغربة من روما.



الأسرة الفرنجية الجديدة. ولكن كان الملك بين قد جنى من هذه الزيارة مكاسب وافرة، فإن مكاسب البابوية من ورائها كانت يفخر حدوده؛ فبالى جانب الحماية التي ضمتها البابوية من جانب ملوك الفرنجة، أمكن للجالس على العرش البابوي فيما تلى من تاريخ أن يدعى لنفسه الحق في تعيين وخلع الملوك، مستنفاً في هذا الادعاء بحق «الحمل والربط» على هذه السابقة مع ملك الفرنجة.

في أثناء ذلك عبرت كنيست الفرنجة جبال الألب ونزلت على السهل اللومباردي، ثم أجبرت الملك استولف على التعهد ببرد الأملاك التي كان قد استولى عليها من البابوية، إلى جانب أداء بين الولاء عن مملكته للملك الفرنجي.

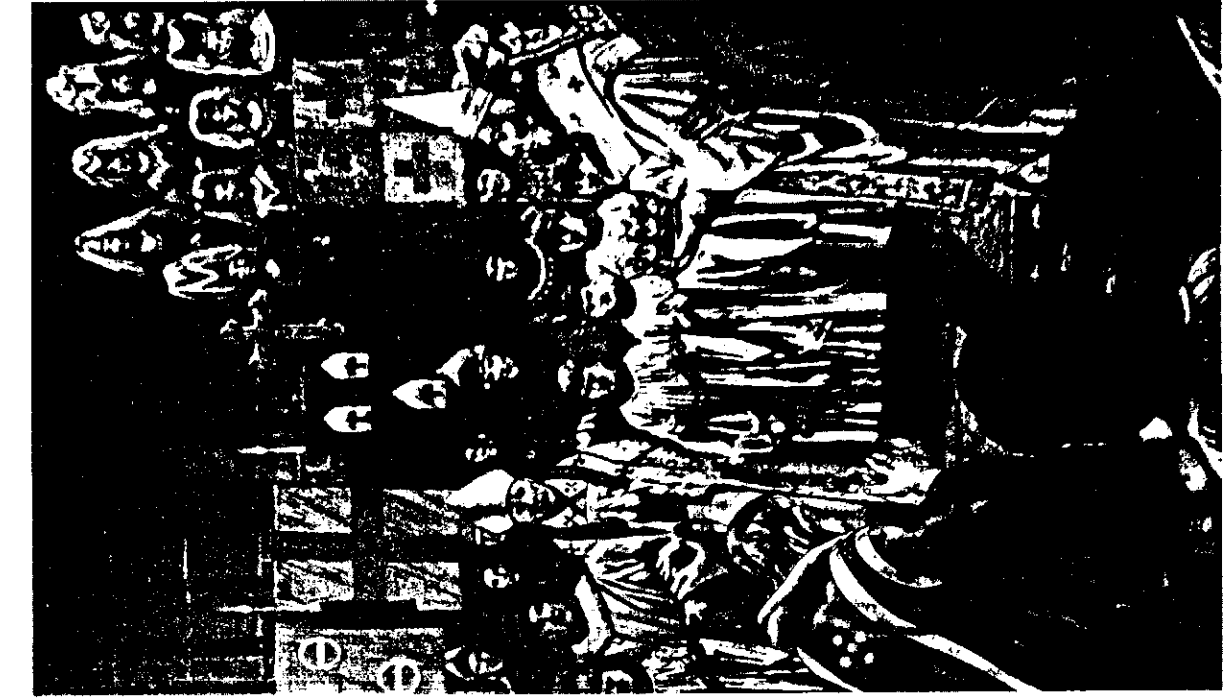
تاج ذهبي - العصر الكارولنجي



عقود

بالنفساء

- رائحة

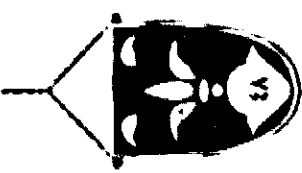


كان التسويج يتم بيد البابا في العصور الوسطى

وطلب من كبار نبلاء المملكة في هذا الحفل المهيّب أن يقسموا بين الولاء والطاعة لبيت بين والآ يختاروا لهم ملوكاً إلا من هذا البيت. وبهذا الوقت الكنيسة الرومانية قيام ملكية «مقدسة» في هذه

(Patrimonium) من إيندى اللومبارد، كما تعهد بين بفرض الحماية على روما ضد أعدائها، ولقد بقى البابا ضيفاً على ملك الفرنجة لبضعة أشهر، قام خلالها بإعادة تسويج بين في بلدة سان دينيس، كما أنتم عليه بلقب «البابا» الرومانية أو «باتريكيان» (Patrician).

كذلك قام البابا بتسويج برترادا روجة بين ولديها كارل وكسرتومان،





ولكن استولف سرعان ما تنكر لوصوده تلك، وزحف بجيشه ليحاصر مدينة روما، فاستنجد البابا بالملك الفرنجي مرة ثانية. وعبر الجيش الفرنجي جبال الألب مرة أخرى، وأجبر استولف على رفع الحصار عن روما وإلى عقد صلح مع الملك الفرنجي والبابوية، مع دفع جزية سنوية وتقديم بعض الرهائن للملك بين القصير. وفي أثناء المفاوضات وصل سفراء الإمبراطور الشرقي من بيزنطة يطالبون بإعادة راقنا للإمبراطورية الشرقية. ولكن بين صاح في وجه السفراء البيزنطيين بأنه لم يدخل الحرب ضد اللومبارد لحساب أحد، وإنما هو قد حصل بسيفه لحماية البابا الروماني، مبينا لهم أن الإمبراطور الشرقي لا حق له في بداية السلطان الزمني لبابوية العصور الوسطى والتي ساهمت مع حلفائها الفرنجة في بعث ما قد تبقى من حطام روماني من الألفان.

توفي الملك بين القصير في ٢٤ سبتمبر ٧٦٨م، بعد أن قُسم المملكة بين ولديه كرومان على النصف الجنوبي، وكارل على النصف الشمالي. ولم يكن الاخوان على وفاق، ولولا تدخل الأم في أكثر من مناسبة لاشتعلت الحرب بينهما؛ فلقد رفض كرومان مساعدة أخيه كارل ضد كونت أقطانيا التسمرد. ولما أن تزوج كرومان من ابنة الملك اللومباردي ديزديريوس واسمها جريجة، سمى كارل بدوره إلى الزواج من شقيقتها ديزدراता حتى لا يتفرد أخوه بالحظوة في بلاط باقي اللومباردي. غير أن البابا انزعج عند سماع تلك الأخبار، فكتب إلى كارل يهمس إليه أن الأميرة ديزدراता عقيم عاقر، محذرا إياه من مصاهرة البيت الملكي اللومباردي، ولكن كارل تزوج بالفعل من ديزدراता اللومباردية، غير أن همس البابا ظل يستحوذ على عقل كارل، وانتهى الأمر بطرد العروس بعد فترة رواج قصيرة إلى بلاط والدها في باقي. ثم حدث أن توفي كرومان سنة ٧٧١م فجأة، فهربت أرملته جريجة وأطفالها إلى بلاط أبيها تشكو إليه من تحرشات كارل، ولتزيد من مشاعر الغضب بين أبيها وبين كارل.

رفع ديزديريوس (٧٥٦ - ٧٧٤م) مظلمة ابنته الأرملة جريجة وأطفالها إلى البابا هادريان (٧٧٢ - ٧٩٥م) طالبا منه إجبار كارل على إعطاء أبناء أخيه الثروفي حقوقهم المشروعة في ملكة الفرنجة. ولكن البابا لم يكسرت بهذا الطلب، فقام الملك اللومباردي بشن حملة على الأراضي البابوية وزحف لضرب الحصار حول مدينة روما.

شارلمان

استنجد البابا بحليفه كارل الذي بادر بإرسال جيشه وحاصر مدينة باقيا سنة ٧٧٣م، التي استسلمت إليه، ثم قبض على الملك وأودعه أحد الأديرة، في حين أن ابنه أدلجيس هرب لاجسا إلى القسطنطينية ليترقى بها بعد بضع سنين. وهكذا وضع كارل نهاية للمملكة اللومباردية وأعلن نفسه ملكا عليها، في حين حصلت البابوية على نصيبها من الغنيمة بما في ذلك مدينة راقنا التي كان البيزنطيون يلحون في استردادها.

هبة قسطنطين المزيفة

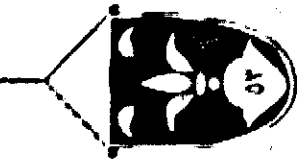
في هذه الفترة من تاريخ العصور الوسطى الأوروبية ظهرت في الغرب اللاتيني الوثيقة الشهيرة باسم «هبة قسطنطين العظيم» (Donatio Constantini Magni)، وهي وثيقة مزيفة من الألف إلى الياء، ولا تعرف كاتبها وإن كانت في أغلب الظن من فعل مسنون في البلاط البابوي وروما بيد البابا نفسه. ويرجع الفضل إلى اكتشاف زيف هذه الوثيقة التي ظلت مقبولة في غرب أوروبا على أنها وثيقة أصيلة إلى العلامة الإيطالي لورينتيوس فاللا في القرن الخامس عشر، أي في عصر النهضة الإيطالية.

وتروى هذه الوثيقة المدسوسة أن قسطنطين كان مصابا بمرض عضال هو مرض الجدام، وأن الأطباء وكهنة الأوثان لم يجدوا له علاجا، فأشاروا عليه بأن يجمع عددا من المواليد ليدبحوا ويغسل الإمبراطور المريض بدمهم كي يبرأ من مرضه. وتقصي الوثيقة لتقول بأن قسطنطين أمر بإعداد عدد من الأطفال الأبرياء الرضع قسرا، رغم ولولة أمهاتهم استمدادا للمجزرة البشعة. غير أن قسطنطين أشفق على هؤلاء الصغار الأبرياء فجأة وأمر بإعادتهم إلى صدور أمهاتهم المتاعبات. وفي هذه الليلة زاره في المنام القديس بطرس وأرشدته إلى المخبأ الذي كان يتوارى فيه البابا الروماني سلفستر، وبشرو بالشفاء من مرضه إن هو قابل البابا. ولبي قسطنطين النداء فقصد إلى مخبأ البابا سلفستر الذي رحب بمقدمه وغسله بلقاء القديس وعافاه من مرضه الرجس. ولما أن عرفى قسطنطين من داته اللعين أراد أن يكافئ البابا على حسن صنيعه له، فقرر أن ينسحب من مدينة روما للإقامة في عاصمة جديدة في الشرق، وأن يتترك روما وإيطاليا ولايات الغرب جميعا تحت صولجان البابا وحده. كما سمح للبابا أن يقيم في قصر اللاتيران، وأن يزودان كالإمبراطور بالتاج والعبادة الملكية، وأن يمتطي جوادا أبيض.

إن هذه الوثيقة المزيفة ظلت أهم الوثائق التي بنيت عليها نظرية السمو البابوي روحيا وزنيا

سور الوسطى!





وسلطتها على فكرة الإمبراطورية
الضائعة، وأُخذ أيدعها في هذا
الشعور مذهب عقائدي
واحد ومائل في
الطقوس في شتى
أصقاع الغرب
اللاتيني. كذلك
كان للجانس على كرسى البابوية
البد الطرلي في نشر المذهب
الكاثوليكي بين شعوب الغرب
الوثنية، فصارت للبابوية هالة روحية
كبرى وصار للبابا سمات الكاهن الأكبر
على كل كنائس الغرب. ونظرت شعوب

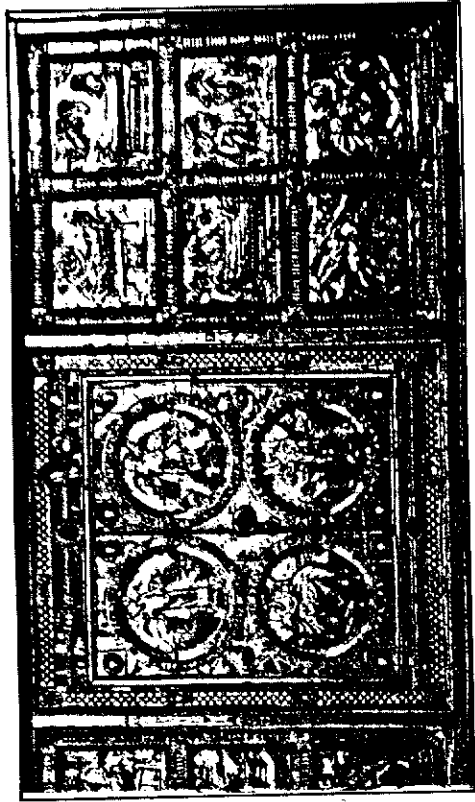
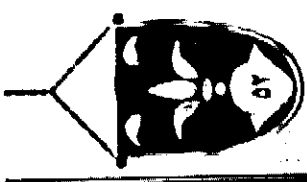
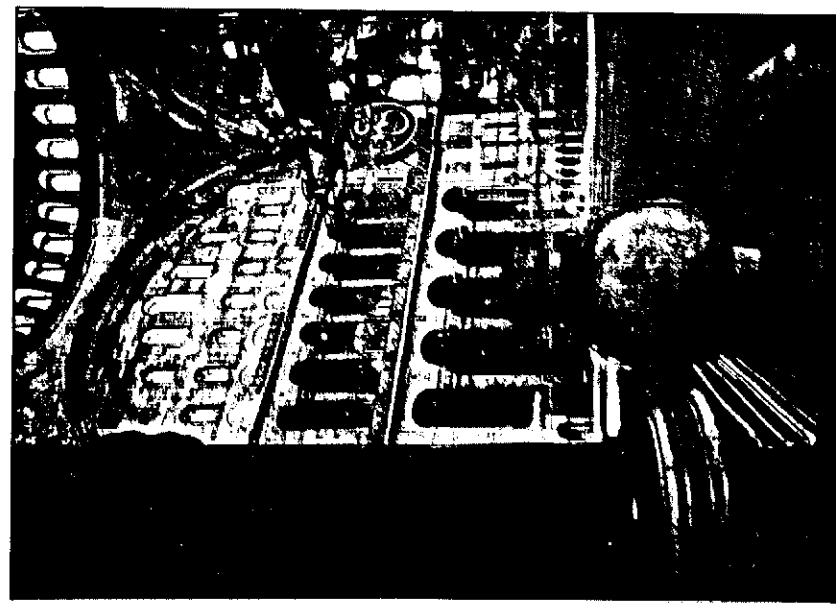


أيقونة بيزنطية

أوروبا إلى البابا على أنه والقانون
الروماني يمتلان الرابطة التي تشد جميع
بلدان الغرب اللاتيني تحت لواء واحد،
خاصة بعد أن استأصلت شائقة المذهب
الارثوسى المخالف بين القبائل الجرمانية
الغارية. وعلى هذا باتت كنيسة روما
بمثابة الإمبراطورية الروحية الشاملة،
على أنه في نفس الوقت لم يغفل
البابوات عن حقيقة أن الإمبراطورية
الدينيوية الشرعية التي أرسى قواعدهما
قسطنطين الكبير كانت ولا تزال قائمة
في بيزنطة؛ ولذا فقد كان لزاما على

كنيسة وآيا صوفيا،

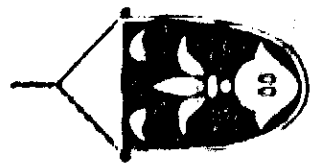
القسطنطينية من الداخل



نحت بارز في باب من الذهب - العصر الكارولنجي

بعد أن قضى كارل على مملكة اللومبارد، اشتبك سنة ٧٧٨م مع عرب إسبانيا في معركة
سراجوسا، ثم مع قبائل الباسك، حيث كان يعبر جبال البرانس عائدا إلى فرنسا، ثم دخل في
حرب شرسة مع السكسون والبافار، وأجبر هذه القبائل الوثنية على الدخول في المسيحية على
المذهب الروماني، وذلك تحت وطأة الحديد والنار. ثم أقام لهذا الغرض عدة أسقفيات في بلدان
مدن، وبادربورن، وفران، وبرمن، وهالبرشتات، ومونستر، وهامبورج. وعندما تمرد عليه
تاسيلو زعيم البافار سنة ٧٨٢م، قضى عليه وأودعه وذويه في أحد الأديرة، ثم مال على بوهيميا
وأخضعها لسلطانه. كما شيد كارل أسطولا استولى به على جزر سردينيا وكورسيكا والبيار.
وأدخل تعديلا على الأراضي التي اقتطعها من إسبانيا تحت مسمى «المارك» وهو وحدة عسكرية
إدارية يحكمها نائب عنه بلقب «مارك جراف»، ومن هذا الشغل بدأت عمليات التوسع جنوبا حتى
نهر الإيرو فيما تلا من تاريخ.

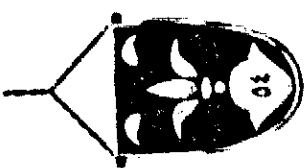
وقد كان النجاح حليف كارل في أغلب هذه الحروب، واتسعت دائرة سلطانه، الأمر الذي
أعاد للأذهان ذكريات الأيام الحمرالى ومجد الإمبراطورية الرومانية القديم، ومن هنا تولدت فكرة
إحياء الإمبراطورية الرومانية في الغرب، والتي كانت قد سقطت نهائيا سنة ٤٧٦م على أيدي زعيم
جرماني أسخر اسمه أودواكر. وألحق أن فكرة الإمبراطورية كانت قد طمست في مخيلة سكان
الولايات بعد الغزوات الجرمانية المتكررة والتي نجح رعماء هذه الغزوات في سلخ تلك الولايات
عن الحكومة المركزية وإقامة ملكيات مستقلة عن الناح الإمبراطورية، الذي وإن كان قد سقط في
الغرب إلا أنه ظل ولو من الناحية النظرية قائما على ضفاف البسفور في روما الجديدة أو
القسطنطينية. ولكن كنيسة روما وعلى رأسها البابا قد بقيت صلبة تدلل براسمها وهيبتها



واسبانيا، وهكذا فإن الإلهام العقائدي الذي كان يعد من الشرق قد نصب، ولم يعد يفقد - في نظر الرومان - من الشرق إلا سلسلة من الهولطقات والتجديف والتناول على أيقونات القديسين وآثارهم. كذلك فإن الغرب اللاتيني قد أنجب علماء لاهوتيين أمسوا يغلثون الخاصة والعامة بغناه روحي لايتبي جديد بدلا من السفسة اليونانية العقيمة، وأصبح في مقدور روما أن تفاخر برجالاتها من أمثال جيروم، وأمبروز، وأغسطينوس، وجريجوري الكبير، وكولومبا، وبونيفاس وغيرهم كثيرين. كما أن عدة مراكز ثقافية قد ترعرعت في الغرب الأوروبى وأصبحت منارات للعلوم اللاهوتية والفلسفة الأفلاطونية، ولم يعد هناك مبرر في الغرب لتلقف ما يتساقط من على موائد الإسكندرية وأنطاكية وغيرهما من مراكز الثقافة القديمة، خاصة بعد أن استلخت هذه المراكز عن جسد الإمبراطورية بعد الفتح العربى. وراح الرومان ينظرون في القرن الثامن إلى مدارس باريس، وتور، وبيز، وكاتربرى، ويورك، وميتر، وكولون ليطلقوا عنها القاهيم اللاهوتية الصحيحة لسان يفهمونه.

من هذا السياق كله فإن البابوية أخذت تفكر جديدا في التمرد على الإمبراطور الشرقى أو «اليونانى»، وفي البحث عن بديل كاثولى قوى في الغرب يشد أزرها ويسيطر عليها الحماية، حتى وإن كان من دم جرمانى، شريطة أن يكون هذا البديل قد نشرب بالعقيدة الكاثوليكية وتأثر بالتقاليد الرومانية. ولقد وجدت روما ضالتها في الجالس على عرش الفرنجية في غالة، في شخص كارل الخليف المخلص الذى نجماها من مخالب اللومبارد والذى نشر لواء الكاثوليكية بحد السيف بين السكسون والبافار الوثنيين وبين العناصر السلافية التى سيطرت على وسط أوروبا.

هنا، وقد ظهر في مدينة روما حزب قوى راح يفكر جديدا في إعادة الامجاد القديمة إلى العاصمة القديمة التى كانت ذات يوم سيدة حوض البحر الأبيض المتوسط جميعا، إلا أن أعضاء هذا الحزب كانوا ساخطين على شخص البابا الجالس على العرش البابوى آنذاك وهو البابا ليون الثالث؛ بسبب طبعه الاستبدادى وتسلطه على شعب روما، وبسبب بعض الشهوات التى حامت حول ثرواته المنضخمة هو وأفراد عائلته، ولذلك فإنه في سنة 798م ثار أعضاء هذا الحزب على البابا وأوقعوا به في أحد شوارع روما وطرحوه أرضا من على ظهر جواده، ثم أوسعوه ضربا ولكما، وقيل: إنهم قطعوا جزءا من لسانه! غير أن البابا قد نجح بمسونة أحد أفراد حاشيته في الهرب من روما إلى غالة يتصرخ حليفه كارل ملك الفرنجية ليجدته. ولقد استقبل كارل البابا الهارب في معسكره في بادربورن، وبادر بإعصاده إلى روما مكرما تحت حماية فرقة فرنجية. وبعد قليل قدم كارل بنفسه إلى المدينة العظمى ليحسم الموقف، ففقد محكمة مثل أمام قضاتها كل من البابا ليون الثالث وخصومه، وأقسم البابا أنه برى من الاتهامات التى وجهت إليه. وقضى المعامل



الجالس على كرسي البابوية أن ينظر في حذر إلى الجالس على عرش فلسطين العظيم، فهو الراس الأكبر لهذا الجسد الدينوى.

غير أن البابوات كانوا قد امتعضوا من مواقف كنيسة بيزنطة ومن أباطرتها أيضا؛ فلقد أمين بابوات كيرون، وتكل بعضهم ونفوا عن كراسيهم بسبب استبداد إمبراطور القسطنطينية، كما وأن سلسلة من البع والهراطقات وتخطيم الأيقونات في النصف الشرقى من الإمبراطورية قد سببت آلاما مبرحة للبابوية. في روما، ناهيك عن مزاعم بطريك القسطنطينية الذى لم يكف عن زعمه بأنه صتر للبابا الرومانى. وأمم من هذا وذاك فإن صرخات البابوية المتكررة للنجدة لم تجد أذانا صاغية في القسطنطينية عندما كان اللومبارد وغيرهم من الأعداء يضمرون الشر للبابا وترصصون سوا للبابوية.

والحق أن الإمبراطور البيزنطى كان منصرفا إلى دفع التهديدات التى لم تنقطع عن حدود إمبراطوريته الشرقية تارة مع الفرس وأخرى مع العرب وثالثة مع السلاف والآقار، وعليه فإن الإمبراطور الشرقى بنا عاجزا المعجز كله عن أن يد يد العون للبابوية ولروما في وقت محتها. كذلك كانت التقاليد في النصف الشرقى للإمبراطورية منذ عهد قسطنطين الكبير (324 - 337م) أن يضطلع حامل التاج بحمة حماية العقيدة من مخالب الهرطقة، ومن ثم كان يرأس جميع للجامع السكونية الخاصة بالجدل اللاهوتى، كما أن بطريك بيزنطة كان يخضع لمشورة الإمبراطور إن لم يكن لأوامره، بل وكان من حق الإمبراطور أيضا أن يخلع من البطارقة من يشاء وأن يرفع على عرش أيا صوفيا من يشاء أيضا، ولقد تزوجت البابوية تماما بل واستتكرت هذا التدخل العلمائى البغيض في شؤون كان البابا يرى دورا أنها من صميم اختصاصه هو فقط كراس للكنيسة السكونية غربا وشرقا، وكصاحب الحق الأوحى في «الحل والربط». كذلك عندما احتدم الجدل حول الأيقونات وأخذ الأباطرة الإسوريون في بداية القرن الثامن في تحطيم الأيقونات على أنها أصنام وهند هؤلاء الأباطرة بالزحف غربا لتحطيم أيقونات الكنيسة الرومانية في عقر دارها، فزع البابوات من هذا الشهيد، وأيقنوا أن الجالس على عرش قسطنطين قد تروى في الكفر، فكتب البابوات تباعا إلى أباطرة القسطنطينية الإسوريين بحقيقة مشاعرهم، مندبرين بأنه إن هم اقتربوا من أيقونات روما وحرمتها المقدسة، فإن شعوب الغرب قاطبة وعلى رأسهم جماعة الفرنجية في غالة سوف تحمل دروعها وسيفها للزود عن السيد البابا وعن الأيقونات المقدسة في بيوت العبادة في روما.

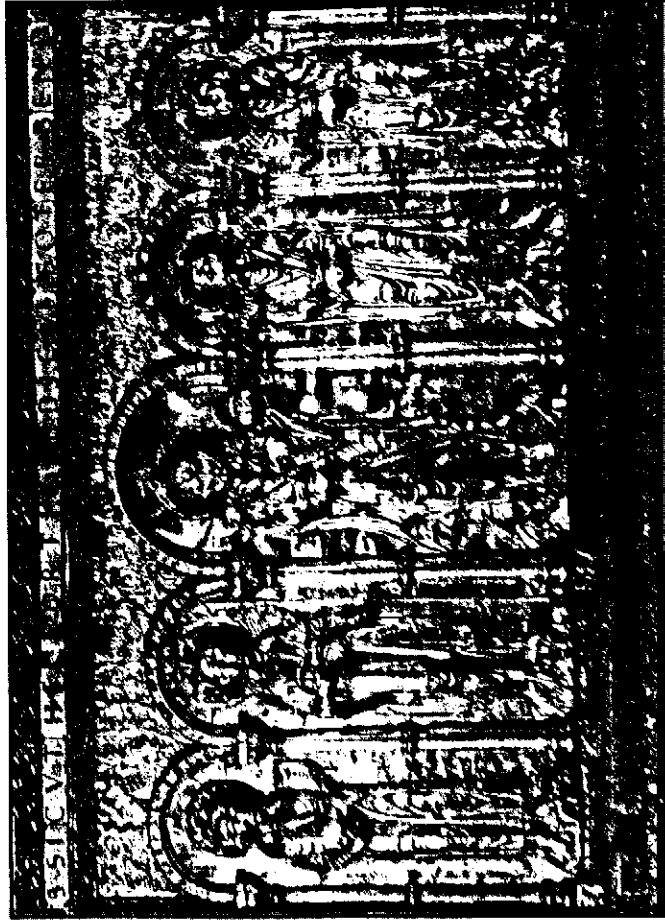
ومن الحقائق الهامة التى ينبغى ملاحظتها في هذا الصدد أن مراكز الفكر اللاهوتى في القرن الثامن قد انتقلت من الإسكندرية وأنطاكية وبيت المقدس إلى مراكز جديدة في غالة وبسربانيا



كيسة إيريني - القسطنطينية



بلاط القسطنطينية ليطلب يد الإمبراطورة الأرملة إيريني الجميلة على العرش وصية على ابنها القاصر في الزواج. وليس بمسبب أن يكون قد طرح على إيريني مسألة الاعتراف به إمبراطورا



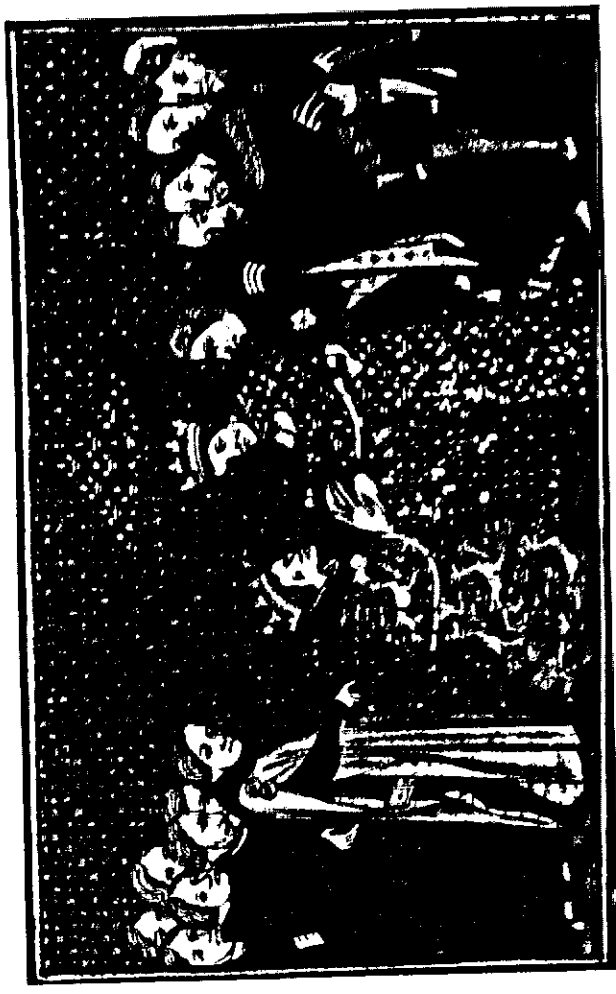
نحت بارز ذهبي - العصر الكارولنجي

الفرنجي كارل بيراة الببا، وأروع جمع خصومه في السجن تحت تهديد السيوف والخنجر.

تتويج شارلمان إمبراطور رومانيا

ثم حلت ليلة عيد الميلاد لسنة ٨٠٠م وامتلأت كاتدرائية القديس بطرس بالصلين، وأيضا بعدد وافر من ضباط كارل الفرنجي المدججين بالسلاح، وبينما كان كارل يركع للصلاة إذ بالببا ليون الثالث يطل على القوم ممسكا بتاج ذهبي ويضعه على رأس المعامل الفرنجي، ثم انحنى له وفق عادات القدامى، وسط صياح الجميع في صوت واحد بلائيبية رصينة: «إلى كارل العظيم - الأوغسطس المنج من قبل الله - ناشر السلام - إمبراطور الرومان - له الحياة والنصر وطول العمر»!!

وهكذا أصبح كارل الفرنجي هو كارل العظيم (Karolus Magnus) أو شارلمان، وهو الذي بعثت على يديه الإمبراطورية الرومانية من الألفسان. ورضم مزاعم لإنهارد كاتب سيرة شارلمان بأن سيده قد فوجئ بالتاج الروماني، إلا أن الدلائل جميعا تؤكد أن شارلمان كان راغبا الرغبة كلها في أن تزدهن رأسه بتاج أوغسطس، فمنع نعلم أنه قبل التتويج بوقت وجيز كان قد أرسل سفراءه إلى



(التتويج) تصوير جداري



الثالث في جملة نادرة هو وكرادته على التفرقة بين الخيال النظري (De Jure) وبين الواقع العملي (De Facto)، فقرروا تنويع شارلمان إمبراطورا للرومان.

يضاف إلى هذا أن الشعور التحفز في روما القديمة كان شعورا لا يخلو من الغيرة من تلك المدينة الواقعة على السفور والمسماة بروما الجديدة والتي لم تكن في نظر الرومان أكثر من مدينة محدثة النعمة. كذلك لم يفسر البابوات لبيزطة اطماعها في منازعة روما في حقوق الإمارة على الكنيسة العالمية غربا وشرقا، تلك الاطماع التي وضحت في جلسات المجمع المسكونية السبعة المتتالية. لقد كان لروما دورا الحق في انتخاب الإمبراطور وتوجيهه، فهي العاصمة الاولى للإمبراطورية دون نزاع، فكيف تستحل بيزطة لنفسها اختصاص هذه الحقوق التليدة؟ لقد حان الوقت لروما كي تسترد حقوقها المنتصبة، ولم يكن هناك سبيل لتحقيق ذلك إلا بان تغض روما عن كاهلها ذاك العيب البيزنطي «التأخرق» الكره، وذلك بأن تلتصم لنفسها إمبراطورا قويا يجاورها جغرافيا ويؤازرها في الغرب اللاتيني. كما وأن البابا قد رأى بنفسه أن شارلمان هو رجل البابا الاول في الغرب الأوربي، وهو الذي نشر العقيدة الكاثوليكية بعد السيف، وهو الذي حفظ للبابوية كرامتها وحقوقها الدنيوية مثلما فعل والده بين القصير وجده كارل مازتل من قبله.

يضاف إلى هذا أن البابوية كانت ترغب في مقاومة توجهات الحزب الجمهوري في روما الذي كان يسمى لإقامة «كوميون» (Commune) في المدينة يتحرض بالمصالح البابوية، ولكي تؤمن البابوية نفسها تماما كان لا بد من إيجاد حليف قوي يرهب هذا الحزب الجديد. وليس يستبعد أن يكون البابا ليون الثالث قد تدارس الموقف من كل جوانبه مع مستشاري شارلمان أثناء وجودهم في روما، وأيضا مع بعض مواطني المدينة من جماعة السيناتوريين وبعض الأسر النبيلة، ذلك أنه لا يمكننا أن ننصوّر إقدام ليون الثالث على هذا العمل الخطير (التزويج) دون أن يكون قد ضمن تأييدا كافيا لمشروعه من جانب أغلبية من شعب روما.

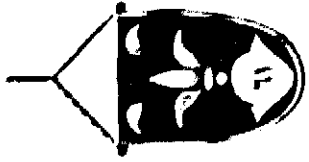
أرسل شارلمان سفراءه إلى البلاط البيزنطي ليلبغوا السلطات هناك أن سيدهم قد توج إمبراطورا للرومان، وكان القصد من هذه السفارة الوقوف على ردود الفعل في القسطنطينية. ولقد أبدت إيريني غضبا شديدا من فعلة البابا وحليفه «التبرير» شارلمان، واعتبروا ذلك اغتصابا للقب والناج، إذ إن الإمبراطورية كانت قائمة بمصمتها وجيوشها ومجلس شيوخها وكامل أجهزتها على ضفاف السفور. واتهم البيزنطيون البابا ليون الثالث بأنه كاهن آثم قد تأمر ضد الحقوق الشرعية لخطفاء قسطنطين العظيم. كذلك قام الاسطول البيزنطي بمهاجمة السفور الإيطالية لتخريف شارلمان، ونشطت الأحزاب الموالية لبيزطة في إيطاليا خاصة في مدينة البندقية، كما تلقى شارلمان إهانات بالغة في رسائل مرسلة من الجالس على عرش القسطنطينية. ولكن شارلمان لم يكن بحال



على النصف الغربي جنبا إلى جنب معها، مثلما كانت الحال في القديم عندما كان للإمبراطورية سيدان، واحد في روما القديمة، وآخر في روما الجديدة. ونجد فيما كنيه واحد من رجالات بلاط شارلمان وهو العالم الإنجليزي الكوين (Alcuin) ما يلقى المزيد من الضوء على هذا التسويع؛ فهو يقول بأن العالم تحكمه قوى ثلاث: البابوية في روما وهي التي تم إنقاذها من الضياع بفضل همة شارلمان وحسن صنيعة؛ والإمبراطورية الشرقية في القسطنطينية وهي التي صارت أمورها تدعو إلى الأسي والشعور بالعار؛ ثم الإمبراطورية التي بعثت من الإكفان على يد شارلمان في الغرب وهي أفضل هذه القوى جميعا، حيث تسود العدالة وتتواصل شاقة الشروق وترفع أركان الخير والفضيلة.

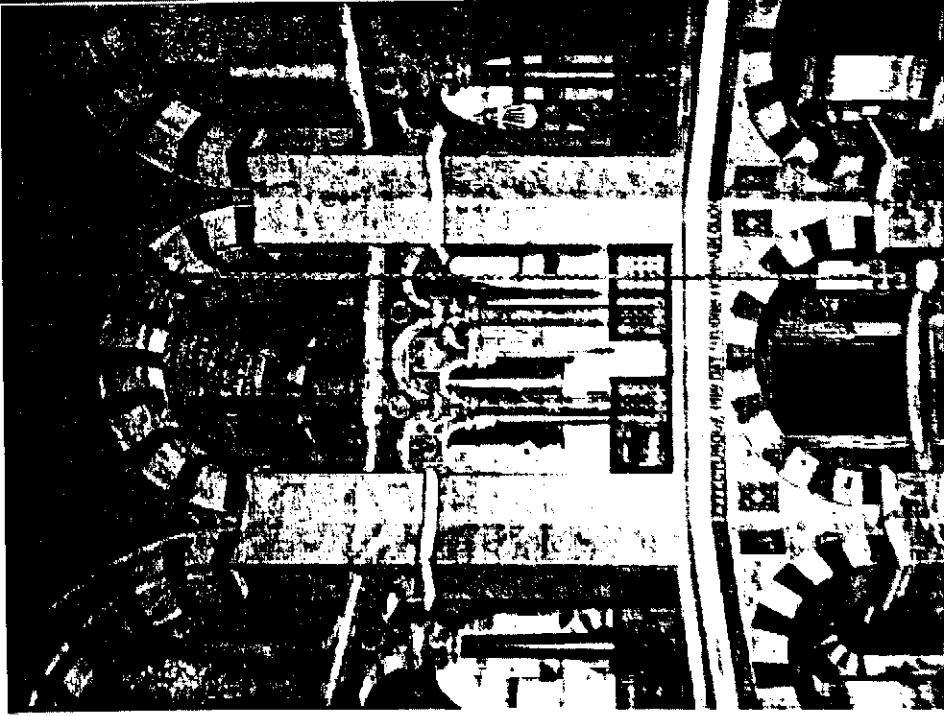
هنا، وقد كانت لدى البابوية أسباب عدة للإقدام على نقل التاج الإمبراطوري من على رأس صاحبه الشرعي خليفة قسطنطين الكبير إلى رأس زعيم فرنجي ينتمي إلى جموع المتبرزين. وفي مقدمة هذه الأسباب حقيقة أن حامل التاج الشرعي في القسطنطينية آنذاك كان صيبا قاصرا عاجزا فقد بصره على يد والدته إيريني التي سملت عينيه لكي تزججه عن العرش وتجلس هي بدلا منه بمفردها، وهذه سابقة شاذة في التاريخ الروماني؛ لأن الناس لم يألفوا أن يروا امرأة ترتدي عباءة أرجوانية. والأدهى من هذا أنها حملت لقب «بارليوس» أي «صاحب الجلالة» وليس لقب «بارليسا» أي «صاحبة الجلالة». كذلك لم تكن الكنيسة الرومانية على استعداد لأن تغفر لإيريني جرمتها النكراء ضد ابنها القاصر، ومن ثم فإن إيريني فعلتها الشبعة التي استاء منها البيزنطيون أشد الاستياء تكون قد سهلت على كل من البابا وحليفه شارلمان إيجاد الذريعة لإتمام هذه الدراما في كاتدرائية القديس بطرس في روما. ومع أن إيريني كانت قد أعادت عبادة الأيقونات في مجمع نيقيا المسكوني السابع سنة ٧٨٧م، إلا أن الأسرة التي كانت تنتمي إليها وهي الأسرة الأيسورية كانت قد لطخت سيرة الأسرة برمتها بوصمة الهرطقة والتناول على المقدسات والآثار الكنسية القديمة، وذلك بطبيعة الحال من وجهة نظر الغرب اللاتيني.

كذلك كان البابا ليون الثالث مدركا لحقيقة أن الجالس على عرش القسطنطينية، حتى يوم أن كان رجلا وليس امرأة، كان عاجزا كل العجز عن تقديم الحماية للبابوية ضد مخالب العدو اللومباردي في شمال إيطاليا، بل إن وقتا قد جاء حينما عقدت بيزطة وركزتها إكزارحية راقنا في إيطاليا حلفا مع العدو اللومباردي ضد البابوية ذاتها. وكانت الحجة القوية لدى الحزب البابوي أنه طالما أن الإمبراطور الشرقي عاجز عن الدفاع عن رعاياه في روما، فإنه من حق هؤلاء الرعايا أن يلقوا ولاهم لمن يستطيع بسط الحماية عليهم. ولم يكن هنالك على الساحة من يستطيع القيام بهذا الدور سوى شارلمان الزعيم الفرنجي المرموق. وعلى ثقل هذه الحجج والأسانيد أقدم البابا ليون

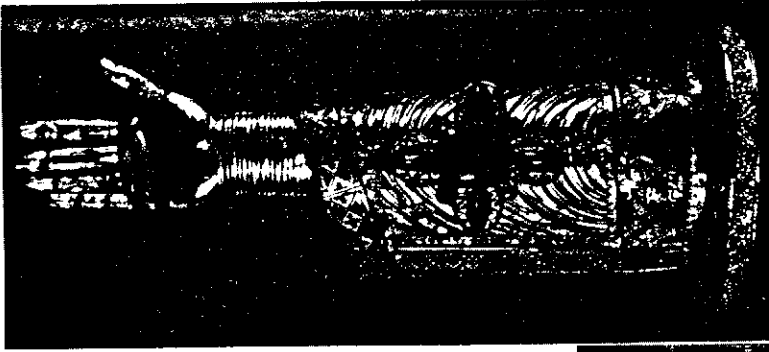


شارلان بحد السيف، لما فكر فيه أحد
كامبراطور.

على هذه الشاكلة أعيد إحياء
الإمبراطورية الرومانية في الغرب اللاتيني
بعد أكثر من ثلاثة قرون ونصف من
سقوطها على أيدي الجرمان، ولقد أحدثت
توزيع شارلان تغيرات خطيرة في خريطة
أوروبا، ومن أبرز هذه التفسيرات الصراع الذي اندلع بين
خلفاء شارلان بين الإباطرة وبين البابوية، إذ برز على المسرح
السؤال الخطير؛ أيهما أسمى مقاما: هذا الذي يمنح التاج أم
ذاك الذي يتلقى التاج؟ وأي السلطين هي الأسمى: السلطة



كنيسة آخن



يد القدرة - المصراع الكارولنجي

ليسخلى عن اللقب والتاج. وأخيرا، في سنة ٨١٢م عقد الإمبراطور البيزنطى
الجديد ميخائيل راجيايه صلحا مع شارلان واعترف به إمبراطورا على الغرب.

بعد أن اعترفت بيزنطة بشارلان إمبراطورا لم يفكر فى اتخاذ خطوات
عدائية ضدها، ولكن أهل روما لم يشعروا بالارتياح لهذا الموقف الودى؛ ذلك
أن البابا وأتباعه قد ظنوا أنهم بهذا التويج قد أنهلوا انقلابا خطيرا، وبأنهم قد
خلعوا الإمبراطور البيزنطى نهائيا، وأعادوا السيادة الإمبراطورية غربا وشرقا إلى
إمبراطور واحد فى الغرب اللاتينى؛ ولذا فإن قواته الإباطرة فى مسجلات روما
تسجل اسم شارلان خلفا مباشرا للإمبراطور البيزنطى قسطنطين السادس (الذى خلعتة أمه إيرينى
عن العرش بعد أن سملت عينه)، وتصفى هذه السجلات على شخص شارلان نفس الشرعية التى
كان يتمتع بها أغسطس وقسطنطين العظيم، وكان البابا يعتقد اعتقادا راسخا أن شارلان هو أصلح
الأمراء فى الغرب لحمل التاج الرومانى، ولم يكن هناك فى الغرب من هو أهم من رأس الكنيسة
الرومانية ليقتنع الناس بهذا التغيير فى نقل التاج.

لقد أبرز ليون الثالث تاجا ووضعته فى حفل
مهيب على رأس الزعيم الفرنجى، ولم يكن من حق
البابا أن يقتضى تاجا ولا أن يتمتع به على أحد. ونحن
لا نعلم من أين حصل البابا ليون على التاج أصلا.
على أنه يتسنى القول بأن ليون الثالث قد استند فى
فعلته على موقعه كجالس على عرش الكاهن الأكبر،
وعلى الهالة التى كانت تحيط بمدينة روما، وأيضا على
الشعور السائد فى الغرب اللاتينى آنذاك. ولولا أن
البابا كان مطمئنا إلى أن ما سيقوم به سوف يقابل
بالارتياح فى الغرب لما أقدم عليه.

كان هذا موقف الحزب البابوى، أما الحزب
الإمبراطورى، فقد جاهروا صراحة بأن سيدهم شارلان
قد اكتسب التاج الرومانى بحد السيف، ومن ثم فهو
ليس مدينا لأحد بهذا التاج؛ لأنه جائزة كفاحه.
ولمحق أن هذا التفسير هو أوقع التفسيرات وأقربها إلى
مطلق الواقع، فلولا الفسوحات الضخمة التى حفنها



شارلان



الديوية (Regales) التي يعيها الإمبراطور، أم السلطة الروحية (Sacerdos) التي يعيها البابا؟ كذلك كان من نتائج الترويج أن ضمت إيطاليا وألمانيا في إطار إمبراطوري واحد، الأمر الذي جر الحراب على كل من الإيطاليين والألمان جميعا، فقد ظلت إيطاليا عينا على كواهل الأباطرة الألمان سبعمئة عام تقريبا، كما هلك من الدساتر وبموضحة الملايا الإيطالية عدد وافر من الأباطرة الألمان. كما أن سلسلة من البوابات قد هلكوا أيضا في زخم هذا الصراع. ويقال: إن بعض الأباطرة الألمان قد ماتوا بالسّم الذي دسه لهم الإيطاليون التعمردون ليتخلصوا منهم.

أما ألمانيا فبدلا من أن تنجح إلى تأمين رقعة أراضيها على الجهة الشرقية، فإنها أرهقت مالها ورجالها في حملات مضنية عبر جبال الألب لتروض هذا «التسوء» السياسي في شبه الجزيرة الإيطالية، وفي ملكة صقلية وفي الجنوب الإيطالي. ولكم أضاع الأباطرة الألمان زهرة شبابهم وهم يلهثون من سكسونيا أو بافاريا إلى روما أو كاتونسا أو كلابريا أو بالرمو على حساب مصالغ وهيبة التاج الألمانى، الأمر الذى جعل الإقطاع يعمق جذوره في تربة الألمان تحت إمرة الأذواق الأربعة في سكسونيا وبافاريا وسوايا وفرنكونيا. ولا نبالغ إن قلنا أن إحياء الإمبراطورية الرومانية على يد شارلمان سنة ٨٠٠م جعل الاتحاد الألمانى والوحدة الإيطالية حلما بعيد المثال لم يتحقق حتى حلول أواخر القرن التاسع عشر.

استحدثت شارلمان بعض النظم التي تليق بخليفة الأباطرة الرومان، فأصدر مراسيم عامة يطبقها على كل رعياه دون تفرقة، وكلف مبعوثيه (Missi Dominici) الخاصين بمراقبة تنفيذ هذه المراسيم ومعاينة من يسيء استخدامها من الكونتات والأقصال. كذلك عقد المجالس التي كانت تقسم كبار رجال الدين ونفرا من وجهاء العلمانيين لتنظيم شئون الكنيسة. وكان على المبعوثين أن يوافوا الإمبراطور بتقارير مفصلة عن تنفيذ أوامره وتوجيهاته. ولم يكف شارلمان بإصدار القوانين بل اضطلع أيضا بمهمة القاضي الأكبر في الإمبراطورية، وأعطى لنفسه الحق في الفصل في أية قضية، وكان حكمه فيها نهائيا، هذا، إلى جانب حقه في النظر في قضايا الجرائم الكبرى، كما كان من حق الشخصيين من عليه القوم استئناف النظر في قضاياهم أمام محكمتهم، سواء أكانت هذه القضايا مدنية أم كسبية.

توكلت حكومة شارلمان لإمبراطوريته الواسعة في بلاط قصره (Palatium) في عاصمته إكس - لا - شابل (آخن). وكانت سياسة الإمبراطورية تُرسم في هذا القصر بواسطة شارلمان نفسه مستمينا بمجلس خاص يتكون من خلصائه ومستشاريه. كذلك كان القصر بينا للمال، ففيه توجد

الجزارة الإمبراطورية، واليه كانت تعود الضرائب من الأقاليم والموراث من الاتباع والمكوس من التجار والهدايا من متسلمي حامل التاج من مختلف الطبقات، إلى جانب رسوم النظر في القضايا والأمور المصادرة والقرارات الجزية المفروضة على الشعوب المغلوبة وغنائم الحرب من ذهب وقضبة وحرثات ثمينة ومجوهرات ومقتنيات نادرة.

وكانت نفقات القصر ومصروفات إقامة الحفلات واستقبال الضيوف والسفراء تدبر من دخول الضياع الإمبراطورية المنتشرة في سائر أرجاء الإمبراطورية. ولقد ورت شارلمان هذه الضياع من الملوك الميروثجيين، ومع أنه هب بعض هذه الأراضي للكنائس والأديرة، إلا أن هباته كانت ضئيلة إن هي قيست بالهبات التي أتم بها الملوك الميروثجيين على بيوت العبادة والأديرة من قبل.

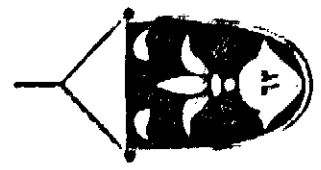
كذلك كانت هذه الضياع تمد القصر الإمبراطورى بالغال والثيران والحماير والأبنة والجمعة وزيت الزيتون والأسماك إلى جانب الخيول لإسطبلاته الكبيرة. وقد جلبت فتوحات شارلمان إليه ضياعا أخرى كثيرة في لمبارديا وسكسونيا وبافاريا، وقد أقطع الإمبراطور هذه الأراضي الجديدة لأقصائه المقربين ولكبار موظفى بلاطه.

وكان شارلمان مجا للبناء والمعمار، فشيّد كنائس كبيرة أشهرها في آخن وهي التي دفن فيها، كما شيّد قصرا رائعا في عاصمته وآخر في مدينة إنجلهايم، وثالثا في مدينة نيميجن، كما أقام قنطرة على نهر الراين عند مدينة ميتر. وكان مهندسو شارلمان من الإيطاليين المهرة الذين أتوا في العمارة على أسلوب المدرسة البيزنطية بطرزاها الجميلة من القسيفساء.

النهضة الكارولنجية

ولعل أهم جهود شارلمان تشمل في برنامجه الطموح من أجل إحياء الحياة الأدبية والتعليمية، وهذا ما يطلق عليه عادة اسم «النهضة الكارولنجية»، فلقد استقدم شارلمان إلى بلاطه نفرا من مشاهير العلماء من مختلف البلدان الأوروبية وهم الذين ساهموا في إقامة مدرسة القصر (Scola Palatina).

ولقد اتخذ كل من هؤلاء لنفسه اسما كلاسيكيا شمل فيما شمل اسم هومر نفسه. ولقد اهتم الشعراء في مدرسة القصر بالشعر اللاتينى الكلاسيكى، بينما اهتم آخرون بالثر والخطابة، واشتغل فريق ثالث بالتاريخ والأساطير. ومن بين الأساتذة الذين استفاد بهم شارلمان في نهضته: الكوين الإنجليزي الذي كان شاعرا متأثرا بأشعار فورتيناتوس، ولهذا الإنجليزي التابه عدة قصائد بعضها يتناول أحداثا تاريخية قديمة وبعضها عن سير القديسين، بينما يعالج البعض الآخر تاريخ





كان قد بدأ المؤرخ الروماني يثروبوس من قبل، كما كتب سيراً لبعض الاساقفة وللبا جيرجورى الكبير. وكتاب بولس الشماس عن اللومبارد سجل تاريخى فى قصده ولكنه ملئ بالاقاصيص والاحاجى الخيالية المخططة بين الواقع والبيولوجيا البيوتونية وأدب البطولة، وقد وضع هذا بشكل خاص فى تناوله لحياة كل من الملكين البيرين وكوثبرت.

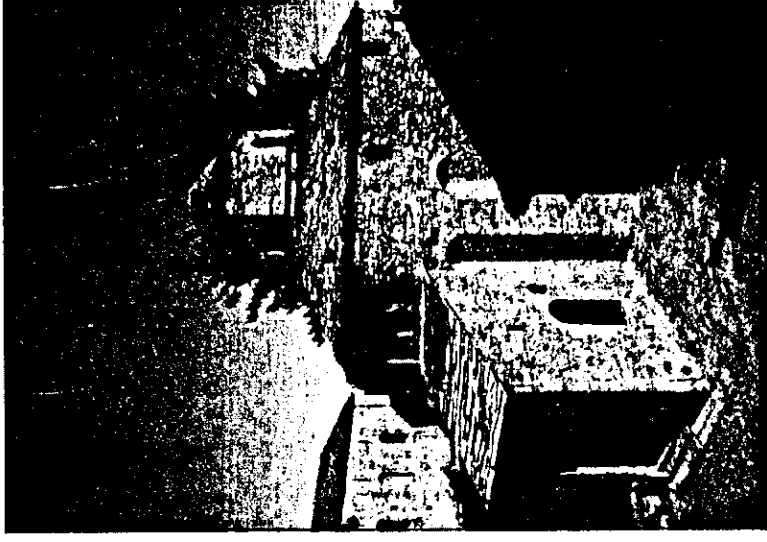
أما أشهر مؤرخى عصر شارلمان على الإطلاق فهو إينهارد صاحب «سيرة شارل العظيم» (Vita Caroli Magni). ويقارنه مؤلف إينهارد هذا بما ورد فى تاريخ بولس اللومباردى فبين الفرق الشاسع بين شطحات الخيال عند الشماس وبين التأمل الواحى عند إينهارد، تماماً كما نلمس نفس الفرق بين خيال هيرودوت فى «تواريخه» وبين دقة ثيوكديدس فى «حرب البولينيز» مثلاً. لقد وضع إينهارد نصب عينيه وحدة محددة ذات نسب وأبعاد كان مدركاً لها، ومن هذا المنطلق أخذ يسجل أحداثاً تاريخية، مقدراً أهمية الخط العلمى عند كتابة التاريخ. والحق أن الرجل كان قد أفاد الكثير من طرائق القدامى وقواعدهم فى التأليف قبل أن يمسك بقلمه ويخط سيرة شارلمان، فهو لا يقتبس عن القصص الخرافية والمغامرات فى حياة بطله، على الرغم من إعجابه الشديد بشخص شارلمان وإعجاب شارلمان نفسه بهذا النمط من القصص البطولى، بقدر سمية نحو رسم صورة موضوعية صادقة لعصره ولرجال العصر، مسترشداً فى منهجه بكتابات ثيوتوبوس. وإينهارد من أصل فرنجى من بلدة «مين»، وقد تلقى تعليمه فى دير «فولدا»، ثم أرسله مقدم الدير هدية إلى بلاط شارلمان فلقى من الأخير كل الترحيب والإعجاب. والقارئ لكتابات إينهارد يلاحظ أن الرجل لم يلتقط من التراث الأسطورى البيوتونى والحكايات الثيريرة (Carmina antiquissima Barbara) إلا ما يمينه على تفهم سمات البطل وسلوكياته فى واقعة بعينها، خاصة فى مهمة القتال ومواقف البطولة. وإينهارد بعد هذا ينثر بطيعة من أدب الملاحم والأناشيد، فهو مثلاً عندما يعرض لمعركة جبال البرانس بين مؤخرة جيش شارلمان وقبائل الباسك التى سقط فيها البطل الفرنجى رولان ورفاقه: إينهارد ساقى الملك، وأنتلم كونت البلاط وغيرهم، فإنه يكتبفى بسجيل الأحداث فى وقار وصدق المؤرخ ووضوح الرؤية، وقد حرر ذهنه من انفعالات وخيالات العصور الوسطى.

إن هذه المدرسة الكارولنجية بعمدها من جنسيات أوروبية متنوعة كانت بمثابة الشعلة التى بددت بعضاً من ظلام العصور الوسطى، وكانت تعتمد أساساً على بعث التراث الروماني القديم من الإكتفان. ومن الأشياء الأخرى التى أولاهها شارلمان كبير الاهتمام تلك الضخامة الثقافية لدى رجال الدين فى القرن الثامن، وأغلاطهم الفاحشة فى النحو والصرف والأسلوبية. ويضع ذلك من واقع

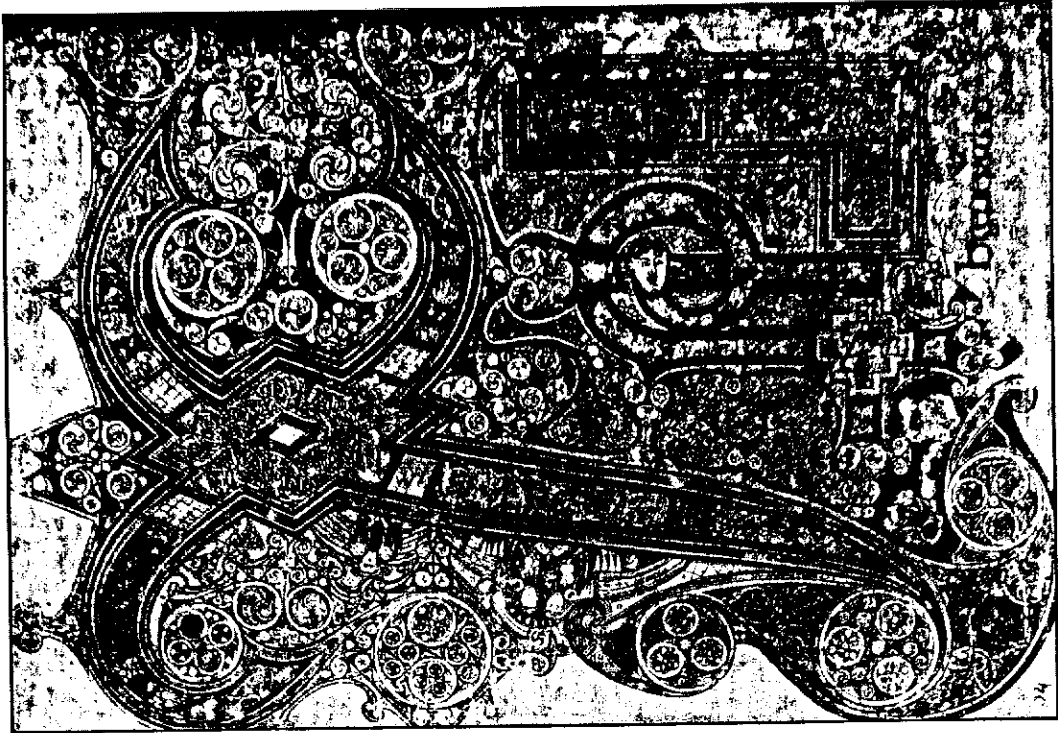
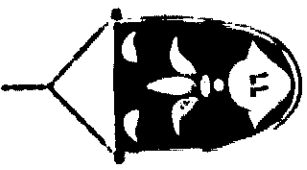
بعض المدن مثل مدينة يورك ومدينة لندرفان. ومن أشهر قصائد الكورين تلك المسجلة بين الشتاء والربيع، وهى من النمط الشائع أتخذ فى الأوساط الثقافية الأنجلو - سكسونية.

ولالكورين أيضاً مجموعة ضخمة من الرسائل الثرية التى تميل إلى الأسلوب الخطيبى، ومن بينها رسالة إلى صديقه أرنو أسقف ستراسبورج تخلو من التكلفه والضمنة.

ومن أصلام هذه النهضة أيضاً ثيودلفوس أسقف مدينة أورليان وهو قوطى الأصل، وكان بمثابة الشاعر الأول فى البلاط، وقد تميز أسلوبه بالوقار والشجاعة وقوة الحق. ونجده فى إحدى قصائده المطولة يقدم النصح لقضاة الفرنجة وينهاهم عن الرشوة من ذهب مغربى وجليد قوطى وكترس فضية مزينة. ويذكر أن هذا الشاعر قد تعرض فى شيخوخته لاضطهاد من قسبل لويس الثفى ابن شارلمان الذىلقى به فى السجن وأتهمه بالحياة. ومن وراء القضبان راح الرجل الكهل يتذكر الشاعر أوفيد وينهل من أفكاره، فصور لنا ربة الحكمة وهى تتبنى قضيه وتدافع عنه وتطلب براءته. وقد تميز هذا الشاعر الشجاع بالتزامه وحب الحق، فهاجم نقاق رجال القصر وريذة التملق التى كانت متفشية فى البلاط، كما أنه استخف بالانقلاب التى خلعتها الاساقفة على أنفسهم وعلى سيدهم الإمبراطور، فلقد أسموا شارلمان باسم «داود» وآخر باسم «هوما»... الخ.

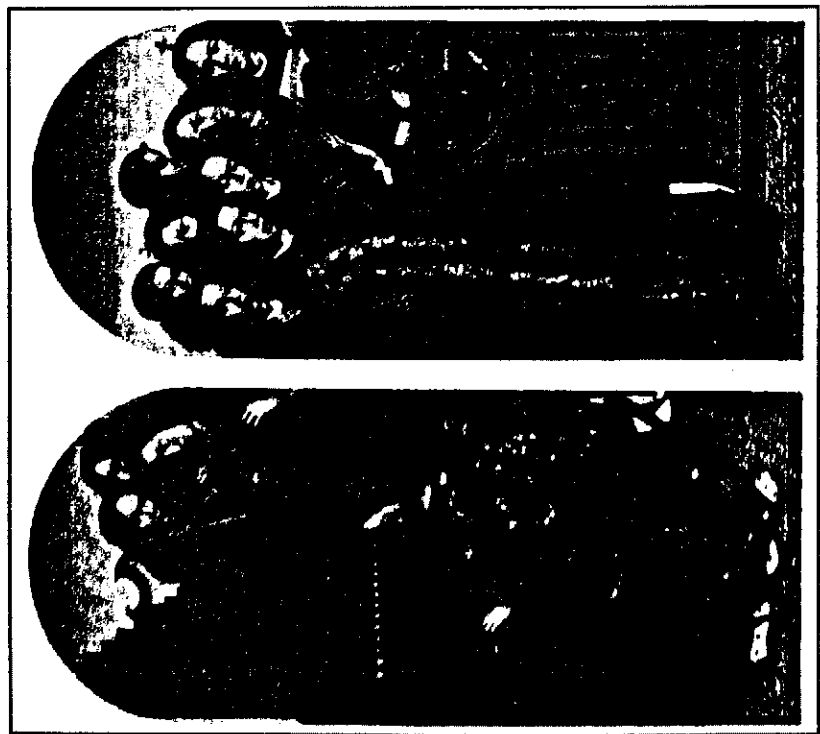


كنيسة كارولنجية



مخطوط من العصر الكارولنجي

الرسائل التي كتبها بعض هؤلاء إلى البلاط الإمبراطوري، والمعروف أن شارلمان نفسه كان أميا لا يجيد الكتابة، ولذا فإنه كان يجلس في قاعة الدرس في القصر مع أبنائه وبناته يتعلم قواعد اللغة اللاتينية الصحيحة في صبر رائد. ولكن يعالج النقص المعب في رجال الدين في مجال اللسان القويم فإنه أمر بأن تعد عدة مسراظ سليمة الأسلوب والأجرومية وتوزع على كهنة الأبروشيات ليستفيدوا منها في مسراظهم. كذلك أنشا العديد من المدارس الكاتدرائية في كل من ريمز وأورليان، إلى جانب عدد آخر من المدارس في البيوتات الديرانية في سانت جال، وتور، وريشيو، ونولدا،

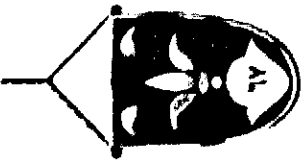


آلة الأرخون

وهريفلد، وكورفي، وهرشو. وكان الهدف من هذه المدارس تخرج الكهنة للتعليم، إلى جانب تنقيف نفر من العلمانيين أيضا. وكانت الدراسة في هذه المدارس تنصب على قواعد اللغة اللاتينية في صيغتها المبسطة الدارجة (Vulgata)، إلى جانب دراسة أعمال الفطاحل القمامي من أمثال فرجيل، وهوراس، وأوفيد، وسالوست، وجوفال، وسنيكا.

كذلك كان شارلمان مهتما بالموسيقى والألحان الكنسية، فطلب من البابا أن يرسل له نفر من المتخصصين في الألحان الدينية، وأسس لهذا الغرض مدرستين للموسيقى واحدة في متر، وأخرى في سواسون، وقد أدخل الإيطاليون آلة الأرخون إلى غالة في عصر شارلمان، الذي كان شخصا شديد الشغف بأنغام هذه الآلة المعجبية.

لقد أتت هذه الجهود أكملها وكان من أهم نتائج هذه النهضة الكارولنجية تنقية اللسان اللاتيني المستخدم من شرائب السرقية والتبرير، وإن كانت هذه الخطوة قد وسعت الهوة بين لغة الكتابة ولغة التخاطب، ولذا فإن هذه الأخيرة قد تطورت فيما بعد إلى لهجات شعبية محلية





اختصاص الإمبراطور ومستشاريه فقط. وتضخ مفاهيم شارلمان لسلطانه على الكنيسة ورجال الدين ومن بينهم البابا نفسه من موقفه من البابا ليون الثالث نفسه، فلقد فرض عليه شارلمان القول بين يديه، ثم أمام المحكمة التي عقدها خصيصا في مدينة روما ليبراً نفسه من التهم والجرائم التي نسبت إليه!

ولم يكن في مقدور البابا ليون الثالث أن يعود للجنوس على عرش البابوية إلا بعد أن قرر شارلمان براءته وسمح له بذلك. وهذه الحجج والسوابق هي التي التقطها فيما بعد الإباطرة الألمان في صراعهم العنيد مع البابوية، ذلك الصراع الذي جرّ الحراب على كل من البابا والإمبراطور.

كان شارلمان قد تزوج أربع مرات، وأنجب ثلاثة أولاد وعدداً وافراً من البنات، وقبل وفاته قسم الإمبراطورية بين أولاده الذكور: شارل، وبين، ولويس. ولكن شارل وبين توفيا قبل أبيهما، ولم يبق إلا لويس (الملقب بالثقي) لييرث كل أراضي الإمبراطورية، وذلك سنة ٨١٤م وهي سنة وفاة شارلمان عن عمر يناهز السبعين عاماً.

لا جدال في أن بنيان شارلمان الضخم قد دفن مع مؤسسه في قبره بمدينة إكس - لا - شابل سنة ٨١٤م. ولقد وضع سنة من ورثته الشاح الإمبراطوري على رؤوسهم وهم: لويس الثقي (ت ٨٤٠م)، ولويس (ت ٨٥٥م)، ولويس الثاني (ت ٨٧٥م)؛ وشارل الأصلع (ت ٨٧٧م)، وشارل السمين (ت ٨٨٧م)، وأرنولف (ت ٨٩٩م)، ثم لويس الطفل (ت ٩١١م) والذي انتهت بوفاته سلالة البيت الكارولنجي في مملكة الفرنجة الشرقيين أو ألمانيا.



ودارحة هي التوة الباكرة للفرنسية واللغات «الرومانيسك» الأخرى من إسبانية وإيطالية وغيرها.

على أن الاهتمام الزائد باللاتينية الكلاسيكية قد ساهم في حفظ عدد بالغ من المخطوطات لكتابات القدامى، ولولا هذا لضاع هذا التراث القديم. كذلك كان لشارلمان الفضل في أن يحدد للمصور الوسطى على مدارها اللسان اللاتيني كأداة للتعليم في مختلف المدارس والجامعات الأوروبية.

ولا بد لنا أن نذكر في هذا المجال أن شارلمان ظل وفيها ومحياً للسانه الجرمانى الأصلي؛ ولذا فإنه أمر بأن تصاغ لهذه اللغة أجرومية على أسس علمية لكي تصبح لغة أدب خالية من فجاجتها القديمة. وقد نجح العلماء في بلاطه في جمع عدد وافر من الملاحم والأساطير الموزلة في القدم والمعروفة باسم «Nibelungen Lied» ولكن الأمر المؤسف أن ابنه وحفله لويس «الثقي» قد أهمل هذا المشروع بحجة أنه تراث وثني فاسد!

اعتبر شارلمان نفسه سيدا على الكنيسة بحكم منصبه كأمبراطور متوج، فهو الذي دافع عن الكنيسة الرومانية ضد أعدائها اللومبارد، وهو الذي نشر الكاثوليكية بحد السيف بين مختلف القبائل الوثنية، وهو بعد هذا «المختار» من قبل السماء والمسروح بالزيت المقدس بواسطة البابا الروماني نفسه؛ ولذلك فقد أعطى لنفسه الحق في اختيار الأساقفة ورؤساء الأساقفة، وكثيراً ما كان يعينهم دون انتخاب. كذلك كان يمارس حقه في عقد المجمع الدينية ورياستها وتوقيع قراراتها لتصبح نافذة المقبول. وكانت الكنيسة ورجالها يخضعون جميعاً لقوانين الإمبراطورية شأنهم في هذا شأن العلمانيين من الرعية.

وشارلان بعد هذا هو أول من فرض ضريبة العشور وجعلها إجبارية تدفع للكنيسة، وقد تلقف رجال الدين هذا القرار ورضعوا أنه نص ملزم في الكتاب المقدس، وراحوا يطبقونه في سائر بلدان غرب أوروبا. ولم يكف شارلان بهذه السلطات الواسعة على الكنيسة بل طالب بحقه أيضاً في رسم السياسة العامة وفي اعتماد الطقوس والعقائد. ويضخ هذا من موقفه من المجمع المسكوني السابع الذي كانت الإمبراطورة إيريني البيزنطية قد عقدته سنة ٧٨٧م لإعادة عبادة الأيقونات، فقد أرسلت إيريني قرارات هذا المجمع إلى البابا هادريان (٧٧٢ - ٧٩٥م) الذي وافق عليها وسرّبها سروراً بالغا، ثم أرسلها بدوره إلى شارلان لكي يذيعها على رجال الدين في غالة، غير أن شارلان لم يتبع بكل ما ورد في هذه القرارات، فجمع مجلداً من الأساقفة سنة ٧٩٤م وأخذ ينفذ بعض هذه القرارات، ثم أرسل إلى البابا هادريان بهذه التفتيدات في مكتوب عرف باسم «كتاب شارلان» (Libri Carolini)، مشفوحاً برسالة غاضبة تصحح البابا ألا يتخذ موقفاً في أمور العقيدة قبل أن يستشير شارلان! وفي رسالة أخرى كتب شارلان إلى البابا يفهمه أنه كرجل دين ينبغي عليه أن يحصر همه في القيام بالصلاة فحسب، وحذره من مغبة التدخل في المسائل الشائكة التي هي من



من حظ الصغار، فمن لا يهلك في العابة يقتل في الحروب، ومن يفلت من هاتين المحتين لا يعمر أكثر من أربعين عاما في أغلب الأحوال.

إن تلك الظروف القاسية هي التي شكلت عقلية العصور الوسطى، إذ كان الناس يرون في مظاهر الطبيعة من عواصف وبرد وعهد علامات على سوء المصير، وأصيب المجتمع بحال من التوتر والهلوسة، وتاه العوام والخواص في غيبة أشبه ما تكون بأحلام اليقظة. وفي هذا المناخ نشطت البيوتات الدينية في تفسير الأحلام والرجم بالغيب، وفسروا الظواهر الطبيعية بخيال ساذج في زمان غاب فيه العلم وتوارى عنه حكم المنطق والتعقل. ومن هنا فإن من تصدى لتاريخ العصر الوسيط في أوروبا يصطلم بالضرورة بمشاعر من اليأس وتورات الغضب وتقلب الطباع، وبالأفكار القوية الاستحواذية وغيرها من التناقضات الصارخة بين طبقات المجتمع، وتترتب على هذا كله صعوبة بناء تاريخ عقلاني لمصر لم يعرف أبجدية العقلانية، فنحن أمام عصر وصف بأنه عصر «الإيمان الأعمى». وتضخ هذه اللاعقلانية في حوليات العصور الوسطى، فلم يكن لدى أغلب القوم

إحساس بعامل الزمن ولا بدلالة الرقم، حيث لم تكن لديهم الوسائط التي يقيسون بها الوقت من ساعات مائية أو شمسية، ولم تكن الأخيرة حتى إن وجدت لتجدي كثيرا في جو ملبد بالغيوم في أغلب فصول السنة. ونحن نعلم أن الملك ألفرد الإنجليزي (قرن 9م) كان يستعين بمدد مهول من الشموع يشعل الواحدة من الأخرى لمتابعة مرور الساعات. ولم يكن الزمن ذا قيمة واضحة المعالم في أذهان هؤلاء القوم؛ ولذا فإن المسديد من الوثائق والسجلات تخلو من التاريخ، مع أنها كتبت أصلا لكي تصح سجلنا زمنيا لرصد حدث معين أو مناسبة

تصور الموت - رسم من العصور الوسطى



الفصل الرابع الفرسان والأقنان في مجتمع الإقطاع

تصدع بتيان شارلمان،

تصدعت إمبراطورية شارلمان سنة 843م في أعقاب نشوب حرب أهلية بين أحفاده، وما لبثت غزوات متتيرة جديدة أن اجتاحت الغرب الأوربي في موجات متلاحقة من أهل الشمال (النورمان) وقبائل المايجار الزاحفة من الشرق. وفي هذه الظروف المضطربة أخذ نظام الإقطاع في التبلور ليصبح القاعدة الاقتصادية والاجتماعية والعسكرية لساتر بلدان الغرب الأوربي. والواقع أن الطبيعة كما خيرها إنسان تلك القرون كانت متجيرة ومستحصية على الترويض؛ إذ انبسط على خريطة أوروبا في ذلك الوقت مساحات شاسعة من الأرض لم تمتد إليها يد الإنسان، وإنما كانت مرتعا للحيوانات الضارية من دبة برية وذئاب مفترسة تخوم حول أطراف البراري والغابات ثم تنقض على قلب الرقع المنزوعة بحثا عن فريسة أدمية. وقد تعجب عددا نعلم أن بعض الجماعات في العصور الوسطى الأوربية كانوا يقاتون على التقاط النصار البرية تماما مثلما كان يعيش الإنسان البدائي في سحبي الأزمان. ولم يكن الناس يخشون شيئا قدر خشيتهم ظلام الليل وقسوة برده وصغير رياحه. ومن هنا فإن إنسان العصور الوسطى قد أسلم أمره لقوى غيبية متقلبة الطبع لا سبيل للسيطرة عليها أو التنبؤ بمفاجأتها. وتفيد السجلات بأن نسبة عالية من مواليد تلك العصور كانوا يهلكون عقب ولادتهم بقليل بسبب قسوة الظروف المعيشية، ولم يكن حظ الكبار أفضل



أيقونة من العصر الكارولنجي



هامة كتاريخ ميلاد أو وفاة أو وراثة أرض أو حفل تكريم وما شاكلها. وقد توأكب مع هذه اللامبالاة بعامل الوقت لا مبالاة شبيهة بالأرقام والأعداد والإحصاءات، وعليه فإن المؤرخ يجابه في حوليات المصور الوسطى بأرقام خرافية حول أعداد الجند وعدد القتلى؛ فعلى سبيل المثال لا المحصر تذكر الوثائق أن وليم الفاتح دوق نورمانديا كان يقود ما بين ثلاثين وستين ألفاً من الفرسان يوم أن غزا إنجلترا سنة ١٠٦٦م، بينما توضح الأبحاث الحديثة أن وليم لم يكن يقود في غزوه لإنجلترا أكثر من خمسة آلاف من الفرسان!

كانت اللغة اللاتينية هي لسان العصر، ولكن غالبية الناس كانوا يتخاطبون باللهجة المحلية العامة (Vernacular)، ومن هنا وجدت ثنائية حتى في اللسان، إذ كانت الجرمانية والكنسية والأنجوسكسونية والفرنسية القديمة تفرض نفسها جنباً إلى جنب قبالة اللاتينية، ولقد تعرضت اللاتينية الكلاسيكية لتدهور كبير عندما تسربت إليها ألفاظ كثيرة من أصول «مبتدرة» حتى تساءل روح العصر ومتطلبات أهله، ناهيك عن انهيار قواعد النحو والأسلوبية. ولكن اللاتينية ظلت لغة الكتابة الوحيدة، وهنا يجابه صعوبة أخرى، فلو أن مشادة وقعت بين اثنين من الفرسان حول إيجار إحدى الإقطاعيات، فإنيها يتنازعان ويتجادلان طيلة الوقت باللسان المحلي وليس باللاتينية، غير أنه عندما تسجل لنا وقائع تلك المشادة فإنها تسجل باللاتينية بيد واحد من الكنية المحترفين. وغنى عن البيان أنه بين ما يرد إليها باللاتينية وبين ما وقع بالفعل باللسان المحلي هوة جد سحيقة!

يضاف إلى هذا أن اللاتينية الوسيطة كانت لساناً قاصراً في الغالب على رجال الدين فهم الطبقة الوحيدة المتعلمة، أما العالم العلماني فكان أبعاد ما يكون عن اللسان اللاتيني. ويكفي أن نعلم أن إمبراطوراً عظيماً مثل شارلمان ذاته لم يكن يجيد القراءة ولا الكتابة، وأن أوتو العظيم مؤسس الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم يكن يعرف حروف الهجاء، كما أن أبناء الطبقة الإقطاعية النبيلة شمال جبال البرانس والالب كانوا أميين (Illiterati) بكل ما تحمله هذه الكلمة من معان، لدرجة أن الغالبية العظمى منهم ممن اعتادوا على ريادة الأديرة في أمسياتهم لم يكونوا بقادرين على مجرد القراءة (Idiotia) في الكتب المقدسة. وفي هذا المناخ لم يكن أحد ليجرؤ على مجرد التشكيك فيما يقوله رجال الدين، حتى لو كان ما يقال أحياناً منافياً لأبسط قواعد المنطقية!

بلاط الملوك الإقطاعيين:

ولرسم صورة لآوروبا الإقطاعية ينبغي أن نلاحظ أن المجتمع قد أخذ بفعل الظروف يتشكل في طبقات ثلاث: قوم وظيفتهم الصلاة، وقوم وظيفتهم الحرب؛ وقوم وظيفتهم فلاحة الأرض. ومع أن الإقطاع قد ورد من مناح جرمانية مع قبائل القوط والفرنجة، إلا أن الإقطاع أيضاً جذورا رومانية، ذلك أن تغيير وضع الفرد بالنسبة للأخريين على أساس حيازة الأرض أمر يرجع إلى القرن الثالث للميلاد، فعندما ازدادت وطأة الضرائب على كواهل الفلاحين لجأوا إلى رهن

أراضيهم إلى السادة الأغنياء مقابل قرض معين. وعندما عجز الفلاح عن سداد ديونه ضاعت عليه الأرض وأصبح مجرد أجير على أرض كان يملكها يوماً ما ولكنها لم تعد ملكه بعد. كما شهد نفس القرن محاولات الفلاحين الرومان في التهرب من دفع الضريبة للدولة وذلك بالتنازل عن الأرض لأحد كبار موظفي الدولة أو من طبقة السيناتوريين المعفاة من الضريبة، وفي مقابل ذلك يسمح السيد الجديد للأرض للفلاح بالاستمرار في زراعة الأرض مقابل خدمات والتزامات أقل وطأة من الضريبة الحكومية، وبالتالي ضاعت الأرض على جماعات كثيرة من الفلاحين فتحولوا إلى معدين تماماً. كذلك عندما نقص عدد العبيد بالإمبراطورية الرومانية قلت الأيدي العاملة في فلاحة الأرض، واضطر السادة من أصحاب الأراضي الشاسعة إلى السماح لبعض الفلاحين بزراعة شرايط من أرض السيادة المهجورة مقابل أجر هزيل أو جزء من المحصول، وقد عرف هؤلاء باسم «المعمرين» (Coloni)، وهم التربة الأولى لجماعة الأقبان (Serfs) في العصور الوسطى.

كما أن الفرق الجرمانية التي احتلت الولايات الإمبراطورية أقامت على الشرايط الروماني عمالك جرمانية قوية. وكانت العادة أن يحصل أفراد هذه الفرق على رواتبهم عن طريق النهب والسلب والغنائم، غير أن القوط الغربيين (Visigoths) عندما دخلوا غالة ثم إسبانيا ابتدعوا نظاماً جديداً بتوزيع الأراضي على محاربي هذه الفرق، وبذلك يكون العرف القوطي في توزيع الأرض على المحاربين هو التربة الأولى للنظام الإقطاعي، وإن كان ذلك العصر لم يخلع على من يتلقى الأرض لفظة «فصل» (Vassalus) الإقطاعية الدلالة.

وعندما تحطمت الحكومة المركزية في أواخر حكم الكارولنجيين في غالة، صارت إدارة شئون الولايات في أيدي نواب الملك الملقين بلقب «كونت» (Comes) وهي كلمة مشتقة من لفظة «كوميتاتوس» (Comitatus) بمعنى «رفاق» زعيم القبيلة في ميدان القتال. ثم أخذ هؤلاء الكونتات في حكم ولايات المملكة نيابة عن الملك، وفي بعض الأحيان كان الملك يعهد بشؤون إقليم كامل لواحد من أفراد البيت الملكي الذي أتمم عليه بلقب «الدوق» (Dux). وفي بداية الأمر كان هؤلاء النواب الملكيون يحكمون الولايات باسم الملك، غير أنه عندما ضعفت هيئة التاج راح هؤلاء يحكمون الولايات لصالحهم متجاهلين حقوق حامل التاج. وتلمس ازدياد نفوذ هؤلاء الأدواق والكونتات في العصر الكارولنجي في غالة من تلك الإجراءات التي اتخذها شارلمان عندما أصر على تعيين «ميسرين ملكيين» (Missi Domini) لتأدية سير الأمور في الولايات ولحماية الأدواق والكونتات وضمان بقائهم خاضعين لسطان التاج، غير أنه مع انهيار الحكومة المركزية وقيام الحروب الأهلية بين أحفاد شارلمان، ازدادت قبضة الأدواق والكونتات قوة وراحوا يقسمون في





إقطاعي آخر، إلى جانب دخوله الأخرى من «أقصالة» التسهرين في أقاليم المملكة. ويلاحظ على الملك الإقطاعي أنه كان دائم الترحال هو وحاشيته من قلعة إلى أخرى، وهو يتحرك في مركب محمل بالوثائق والخزائن الملكية أيضا. وقد كشفت وثيقة من عصر الملك هنري الأول الإنجليزي (1100 - 1135م) عن طبيعة البلاط الملكي التجول؛ فهو يجمع رتلا من القوم يتدرج بين كبار الموظفين حتى الصبية الذين يسهرون على مراقب التدفئة. ويقف على رأس هذه الحاشية، مستشار الملك (Chancellor)، وكان يُختار عادة من بين كبار رجال الدين، ويقف على قدم المساواة مع كبير الأمراء (Dapifer) الذي يشرف على الجناح الملكي (Aula) والمائدة الملكية؛ ثم هناك الموظف المنوط بالإشراف على مخدع الملك (Camerarius)؛ ثم يأتي بعد هذا أمين الخزانة الملكية والتي كانت توضع في صندوق خاص في حجرة نوم الملك، وهناك موظف يشرف على الشراب والفاكهة (Piacema)، ويساعده في عمله عدد من حملة الكؤوس وأمناء المخازن وإخصائيوهم في انتقاء الفواكه التي تزوق ذوق صاحب الجلالة، وهناك الكونتابل الذي يشرف على الحرس الملكي وخدم الأسطبلات، ويعينه في مهمته «المارشال» الذي كان من مهامه الأخرى حفظ النظام. وإلى جانب هؤلاء كان هناك حراس كلاب الصيد وسدريوها، والمشرفون على تربية الصقور، إلى جانب نفر من التمرسين في صيد الذئاب والوعول والقطط البرية (Cataores). وكان البلاط الملكي أشبه ما يكون بدار الحضارة، يتدرج فيها الموظف الذي الماهر حتى يحتل موقعا مميزا، وكثيرا ما دفع كبار النبلاء مبالغ طائلة من المال للملك كي يسمح.



الطاعة والوفاء



التسريح الملكي

ولاياتهم محاكم خاصة بهم، كما اقتتروا الجيوش الخاصة أيضا، والأهم من هذا وذلك أنهم أخذوا يقطعون أراضي لاتباع (أقصال) لهم مقابل الخدمة العسكرية في صفوفهم، وكثيرا ما كانت الحروب تشن ضد حامل التاج نفسه! ولم يملك الملوك الضعاف إلا أن يسلموا بالأمر الواقع، مكتفين بيمين الولاء للتاج وشهدهم بالمساهمة بعدد من الفرسان في وقت الحرب، وبيع بعض من المال في بعض المناسبات، وبهذا ضرب النظام الإقطاعي بأركانه في مختلف البلدان الأوروبية.

وعندما قامت الملكيات الإقطاعية في غرب أوروبا متمثلة في آل كايه في فرنسا، وفي خلفاء ولیم الفاتح النورماندي في إنجلترا؛ وفي السكسون في ألمانيا، أصبح حامل التاج من الناحية النظرية سيذا إقطاعيا على الجميع في مملكته، فهو يتربع على قمة الهرم الإقطاعي ويتلقى التاج في أغلب الأحيان بالوراثة، على أنه قبل تبرجه ملكا، كان بلقب «السيد» (Dominus) شأنه في هذا شأن سائر السادة الإقطاعيين الآخرين في المملكة، غير أن حفل التسريح الملكي ومسح الملك التاج بالزيت المقدس على يد كبير من رجال الدين يجعل منه ملكا «إبرادة الله» (Rex Dei gratia)، وهذا الطقس يخلع على صاحب الجلالة مسحة دينية تضاف إلى صلاحياته العلمانية، فإذا كان الجالس على العرش شخصا قويا فإنه يملك ويحكم أيضا، فهو الذي يعين كبار المستشارين في أجهزة الحكم وفي البيوتات الدينية، وهو الذي يوجه السياسة الخارجية، ويعلم الحروب ويقود الجيوش ويرم معاهدات السلام. وللملك أيضا دخله الخاص من ضياعه الإقطاعية كأي سيد



والثاني يحتاج إلى هذا «الرجل» بالذات لاداء هذه الخدمة الهامة. والاثان بالضرورة من طبقة النبالة ويتم الاتفاق بينهما وفق مراسم خاصة، أبرزها أن يضع «الفصل» (التابع) يديه بين يدي السيد (Suzerain) ثم يتلقى منه قبلة العهد والبشاق. والولاء تقليد جرماني الأصل يرجع إلى لفظة «mannschaft»، وقد أدخلت على هذا التقليد في العصر الكارولنجي بعض الطقوس الدينية كأنقسم على الكتب القديمة أو الأيقونات، ومن هنا تولد اصطلاح «الطاعة» (Fealty) أو «الوفاء» (Treue).

العقد الإقطاعي

ومراسيم الولاة والطاعة تلك هي التي تقنن العلاقات بين السيد والفضل، وبها تكتمل عناصر «العقد» الإقطاعي. وكان على الفصل أن يركع أمام السيد ثم يضع يديه داخل يدي السيد، ثم يقسم له على أن يبقى له وفيا في كل الأمور وأن يخدمه بكل إخلاص، مؤكدا له بأنه بذلك يصبح «رجله» (Homo) الذي يتحلى بفضيلة الطاعة. وهنا يطبع السيد قبلة على وجه الفصل ويعلم قبوله «تأبعا» له، ثم يضع بين يديه قطعة من «الطين» (Seisin) علامة على إقطاع بالأرض.

لقد تولدت هذه النظم بعد انهيار سلطة الحكومة المركزية في فرنسا، في جو محفوف بأخطار التهديد الخارجي «التبرير»، ولم تعد الحكومة قادرة على تقديم الحماية الكافية للناس، ويات العائلة عاجزة عن حماية أبنائها من غائلة هجوم مفاجئ؛ ولذا فإن كل فرد يات محتاجا إلى من يسط عليه جناح الحماية، وحتى الأقوياء أصبحوا هم أيضا في حاجة ماسة إلى أتباع أشدها يشدون بسواعدهم وسيوفهم من أروهم. ولم يكن هؤلاء القوم وهم يقيمون تلك العلاقات التي أمثلها الظروف القاسية يخططون لنظام تصوره مسبقا؛ ولذا فإن الاجتهاد في البحث عن جذور الإقطاع عند الرومان أو الجرمان، وإن كان يفيد في إلقاء بعض الضوء على تلك العلاقات، إلا أنه لا يكفي لشرح ظاهرة الإقطاع التي لا بد من التأكيد على أنها من إساءة الظروف قبل كل شيء، ولعل المثل القائل بأن الناس يشبهون أروانهم أكثر من شبههم بآبائهم يصدق هنا تماما.

نحن إذن أمام مجتمع عجزت فيه الحكومة المركزية والعائلة عن تقديم ضمانات بالحماية للفرد، وفي تلك الظروف العنصرية اتهازت روابط الانتماء التقليدية، ولم يكن هنالك من مخرج لانتماس هذه الضمانات إلا عن طريق التبعة الإقطاعية.

ولما أن تعقدت العلاقات الإقطاعية، وصار بمقدور الفصل أن يتلقى أكثر من إقطاع من أكثر من سيد واحد، ابتكر أهل العصر نمطا جديدا من التبعة ظنوا أنه أكثر وثوقا من السابق وأطلقوا



لإبتائهم يشرف الخدمة في البلاط لاكتساب الخبرة وإتقان آداب المعاملة (Courtisie).

لم يكن الملك الإقطاعي في بداية الأمر أكثر من «الأول بين أقرانه» (Primus inter pares) من السادة الإقطاعيين من أدواق وكورتناك؛ ولذا أقام الملوك مجلسا ملكيا (Curia Regis) تألف من أقصاف التاج من البارونات وكبار رجال الدين إلى جانب كبار موظفي البلاط وهم المستشار الملكي وكبير الأمراء ورئيس الخزانة. وكان عصر الملكيات الإقطاعية عصر حروب لا تهدأ، وإن كان الملك لا يمارس الحرب كل يوم إلا أنه يستعد لها كل لحظة. ولقد تلقى البارونات إقطاعيتهم من التاج مقابل الخدمة العسكرية بأنفسهم وقرمانتهم (Servitium debitum)، ولم يكن جيش الملك الإقطاعي كبير الحجم، ففي إنجلترا على عهد النورمان لم يكن الجيش يزيد على سبعة آلاف من الفرسان. وكان على الفارس أن يؤدي هذه الخدمة القتالية لمدة أربعين يوما في العام وقت السلم، أما في وقت الحرب فإن هذه المدة قد تطول لتصل شهرين كاملين. وإذا ما استمرت الحرب لمدة أطول من الشهرين فإنه لا يجوز للفارس (البارون) أن يترك ميدان القتال ويتخلى عن الملك؛ بشرط أن يتحمل الملك نفقات الفارس عن خدمة المدة الزائدة. وفي القرن الثالث عشر جد نظام يدفع الفارس بمقتضاه مبلغا محددًا من المال إلى التاج عرف باسم «Scutage» أي «البديل» للإعفاء من الخدمة العسكرية.

إن أوضح ما يميز العلاقات في المجتمع الإقطاعي هي صلة الدم، وهي موروث جرماني الأصل، وقد عرفت هذه الصلة في فرنسا باسم «Lineage» أي «التحدر»، ولقد تنزرت هذه الصلة عندما التحمت بوشائج الولاة والطاعة. وفي مجتمع كهذا تنمو بطبيعة الحال مشاعر الانتقام وطلب الثار صيانة لفقطة الدم (Vendetta) التي قد تصيب أحدا من الأناساب. وقد وضحت هذه المشاعر بوجه خاص بين الفريزيين، حيث كانت جثة القاتل تبقى دون أن تُدفن حتى ينتقم له ذوه من القاتل. وقد ظهرت ملاحم شعبية كثيرة تمجد أعمال الانتقام وطلب الثار بين عائلات عديدة في إيطاليا وفرنسا وإسبانيا. وإلى جانب صلة الدم تولدت في المجتمع الإقطاعي صلة أخرى هامة، وصفها لسان العصر بعبارة: «فلان من الناس هو رجل السيد فلان» (Homo Suus)؛ فالكونت «رجل» الملك، والفارس بدوره «رجل الكونت». ولفظة «رجل» في هذا السياق الوسيط ذات دلالة خاصة، فهناك وثيقة ترجع إلى القرن الحادي عشر تحمل شكوى بعض الراهبات إلى دوق نورمانديا يطلبن فيها من الدوق أن يتدخل لأن واحدا من البارونات قد أجبر «رجالهن» على الخدمة في قلاعه دون وجه حق، وواضح أن تعبير «رجالهن» هنا لا يعني شيئا بالنسبة للراهبات أكثر مما كان يفهمه العصر من هذا المصطلح. ومن كلمة «Homo» هذه جاءت كلمة «Homage» بمعنى «الولاء» وهي تعبير عن حقيقتة قائمة بالفعل بين طرفين، الأول يتقبل أداء الخدمة العسكرية

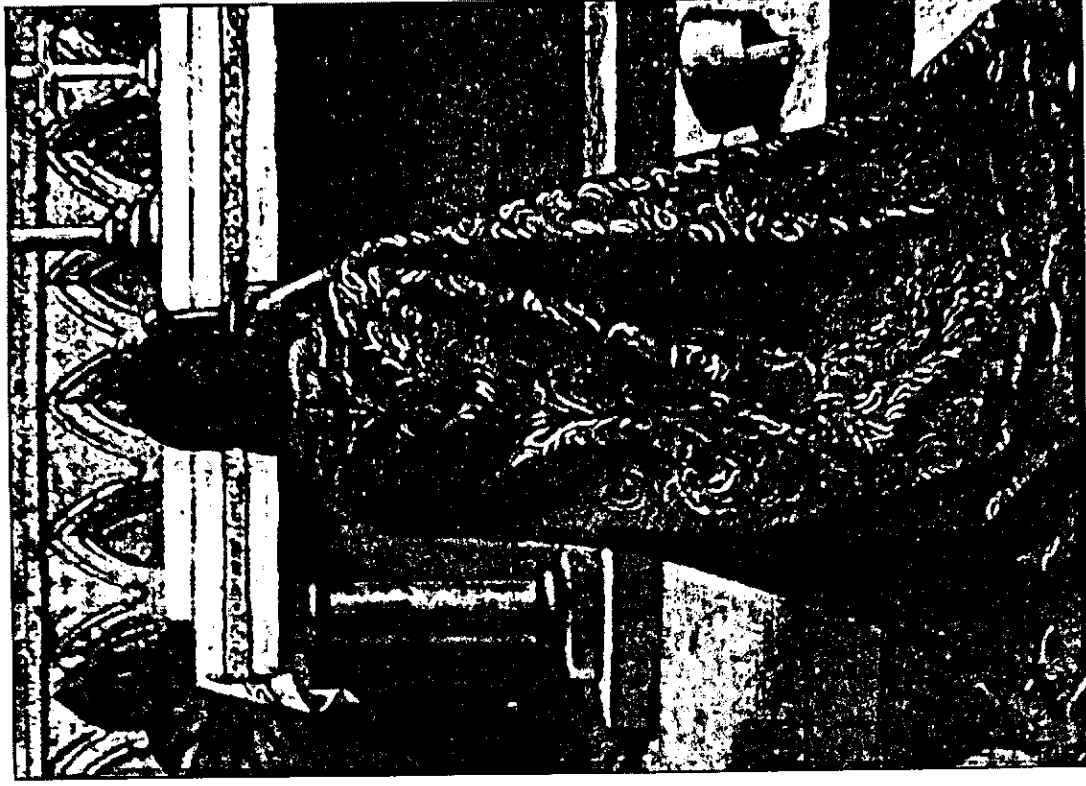


في ميدان القتال وهو ذلك السيد الذي يدين له وحده بالولاء الكامل أو المطلق، مكفيا بإرسال بعض المساعدة الرمزية لسادة السادة. وقد التزم كل من السيد والفصل وفقا للمعقد المبرم بين الطرفين ببعض الواجبات والحقوق، فكان الفصل ملزما بالخدمة العسكرية إلى جوار سيده، والعمل على الحفاظ على حياته وأرضه وشرفه. وفي مقابل هذا تعهد السيد ببسط الحماية على فصله ومعاملة ذويه بالاحترام وقواعد الشرف. كذلك كان الفصل مطالبا بأن يقدم للسيد «عونا» (Taille) في صورة هدايا فسي بعض المناسبات مثل تقليد الابن الأكبر للسيد للفروسية، أو عند زواج كبرى بناته مثلا. وعند موت الفصل كان ابنه الأكبر مطالبا بدفع مبلغ معين من المال للسيد، وعرف هذا باسم «وفاء الحق» (Relief)؛ ذلك لأنه من الناحية النظرية نقل الأرض ملكا للسيد وتعود إليه عند وفاة الفصل، ولكن برتها الابن عن أبيه المتوفى إقطاعا لا بد له من وفاء الحق للسيد لتجديد مراسم المعقد الإقطاعي. وفي بداية الأمر لم يكن السيد ملزما بإعطاء تعهد كتابي بالتزاماته نحو أفعاله، وإنما كان يكفي بكلمة الشرف (Parole d'honneur) أمام بعض الشهود، على أنه في القرون التالية ظهرت موثيق مفصلة تمدد واجبات وحقوق الطرفين. وكان على السيد أن يحافظ على شرف الفصل حتى بعد وفاة الأخير بمعنى بسط الحماية على آل بيته بعد الوفاة، كما أنه كان مطالبا بإنصاف أفضاله من أي ظلم قد يقع عليهم ولو كان هذا الظلم صادرا من جانب السيد نفسه!

إن نظام السيادة والتبعية هذا كان السبيل الجديد للالتزامات العائلية التي تمزقت بفعل عوامل العنف والشغب في المجتمع الإقطاعي. وقد أحيط هذا النظام بقدر وافر من التقدير والاحترام إلى



الحروب الدامية



إعلان الوفاء للسيد

وكان لا بد من ظهور هذا المصطلح بمفهومه الجديد ليحسم التعقيد الذي أصاب العلاقات الإقطاعية نتيجة لدخول «الفصل» في تبعية لاكثر من سيد واحد بقصد توسيع دائرة حيازته لمساحات أوسع من الأراضي.

ومكنا نحاول أهل العصر على ظاهرة تعدد السادة للفصل الواحد، فميزوا بين «الولاء المطلق والولاء العادي» خاصة في أوقات الحروب، وأصبح الفصل ملزما بالوفوقوف في نصف سيد واحد



عليه اصطلاح «التبعية العليا» (Liege) (Homage) والكلمة مشتقة أصلا من مناع فونجية ويقابلها في الألاتية كلمة «Lediği» بمعنى «المطلق»، وقد ترجمها كتاب الحروب في منطقة الراين إلى اللاتينية بمعنى «التبعية المطلقة» (Absolutus).



الخطات مشارا للحرج والكدر والتحدى (Defi)، ولا يحسم الامر عندها إلا بالمبارزة بين الطرفين. وفي حالة ثبوت وقوع الخطأ من جانب الفصل، تصادر إقطاعيه وترد للسيد (Commise). أما إذا اتضح أمام الشهود بأن الخطأ قد وقع من جانب السيد، فإن للفصل الحق في رفع مظلمته أمام محكمة السيد نفسه أو محكمة سيد السيد، وهكذا تدرجا في السلم الإقطاعي وصولا إلى حامل التاج نفسه. وكانت محكمة السيد تتألف من السيد نفسه ومن بقية أفضاله، وغنى عن البيان أنه كان من صالح الأفضال أن يقفوا في المحكمة إلى جانب رفيقهم الفصل المظلم ضد سيدهم، حرصا على مصالحهم وخوفا من وقوع نفس الضرر عليهم ذات يوم.

ورغم هذا كله فلا بد من الاعتراف بأن هذه المحاكم لم تكن ذات فعالية تذكر؛ ذلك لأن روح العصر من عنف وخشونة أملت على الناس حسم المواقف بالسيف والسيف وحده، ولعل المثل القائل «القوة هي الأختى» (Might is right) يعبر تعبيرا عن روح العصور الوسطى في أوروبا. وفي نفس الوقت فإن وثائق العصر ترسم صورة وردية لكثير من العلاقات الحميمة بين السيد والفصل، فالفصل مرادف «المصدق» (Amicus)، وهو «المفضل» لدى النفس (Dru). وفي قصيدة للشاعر دون دي ماينس نطالع أبياتا تفيض بمشاعر نبيلة من الود الخالص بين الفصل وسيدة:

«لو أن سيدى قتل فإنى معه أموت... لو أن سيدى شق علقونى بجواره... لو أن سيدى سبق إلى المحرقة دعونى أحتضن معه جسر النار... لو أن سيدى يخرق فنى بطن اليم يكون معه قرارى».

شعراء الطروبادور

ولقد اتخذ شعراء الطروبادور (وهى كلمة مشتقة من الكلمة العربية: الطرب) في الجنوب الفرنسى من هذه العلاقة الحميمة بين الفصل والسيد خطابا لدلالات الحب والبهام في إقليم بروفنسال. وقد وافق هذا الاقتباس طبيعة قصص الغرام في ذلك العصر؛ فالحب الوثئان في أغلب الأحوال كان من طبقة أقل في سلم النبالة من الطبقة الأعلى التى تنتمى إليها المحبوبة أو «سيدة القلعة»؛ ولذا فإن شعراء الطروبادور يشيرون إلى المحبوبة بعيدة المال لا في صيغة المؤنث وإنما في صيغة المذكر، فتخاطب بعبارة: «يا سيدى الجميل» (Bel Senhor) بدلا من «سيدتى الجميلة». وقد وجدت هذه الروابط طريقها إلى أساليب المجاز وكتابات الأدب الشعبي والأمثال، فأصبح يقال مثلا: «إن فلانا قد أصبح فصلا للشيطان» للتدليل على صرف حياته لفعل الشرور. ولم تسلم الكتابات الدينية والمواعظ من لغة العلاقات الإقطاعية، فلقد أخذت الصلاة صورة ضم اليبين في خشع تام، مثلما كان يفعل الفصل بين يدى سيده وقت أداءه بين الولاء والطاعة.



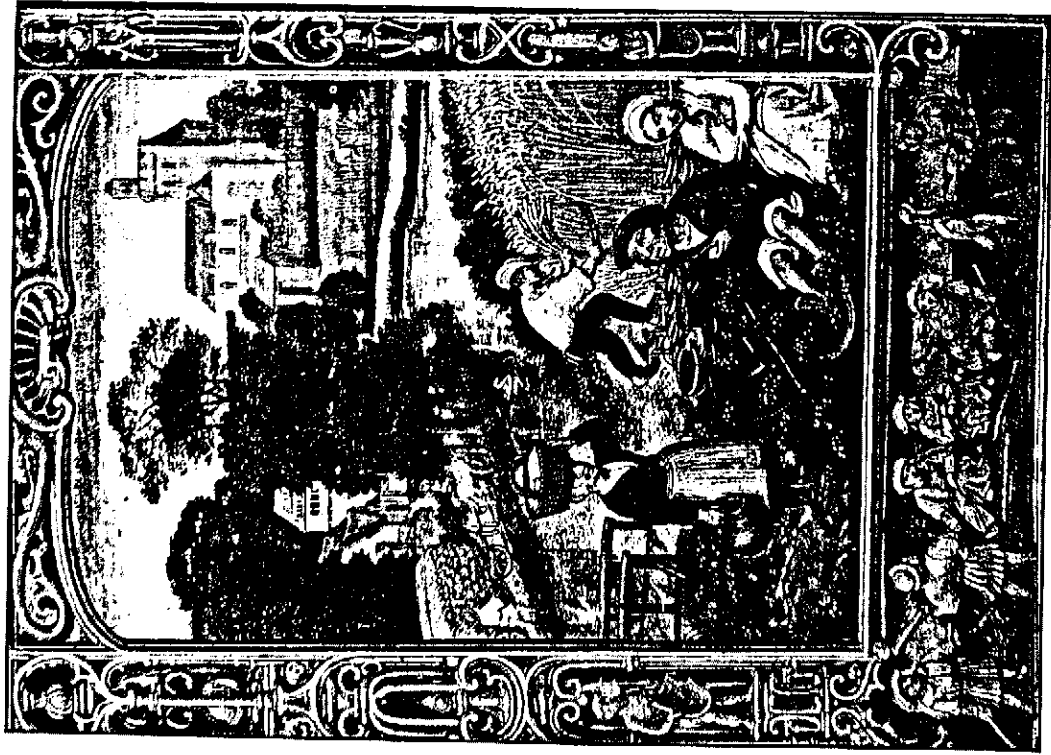
حد أن القانون الأنجلو سكسونى في القرن العاشر كان ينظر إلى الشخص الذى «لا سيد له» على أنه «خارج على القانون» (Outlaw). وأخذت الروابط بين السيد والفصل تتوطد حتى غدت أقوى من صلات الدم ذاتها، وليس أدل على هذا التحول من أن القانون النورماندى كان يعاقب جريمة قتل أحد السادة لواحد من أقصاله بنفس القدر الذى يعاقب به جرائم قتل الأهل. وقد جرت هذه الصلات معها فكرة النار لمقتل أى من الطرفين بيد غريبة، وصارت لحظة الأخذ بالنار (Ultor) اللاتينية مرادفة عند أهل العصور الوسطى للفظ «الانتقام» (Mundporo) الجرمانية الأصل. وصارت تلك السمة قاعدة حتى في المحاكم، ففي إنجلترا في القرن الثانى عشر كان لا يجوز التبليغ عن جريمة قتل إلا إذا كان القتل قريبا أو فصلا أو سيدا لمن يقدم البلاغ، ولهذه القاعدة جذور جرمانية نجدها في ملحمة «بيرلف» (Boewulf) فعندما اغتيل هذا الزعيم البطل صار لاتباعه الحق كل الحق ليس فقط في المطالبة بالنار لدمه أو الانتقام، وإنما أيضا في المطالبة بنصيب من «الدية» التى تدفع تعويضا عن هذا القتل (Wergild).



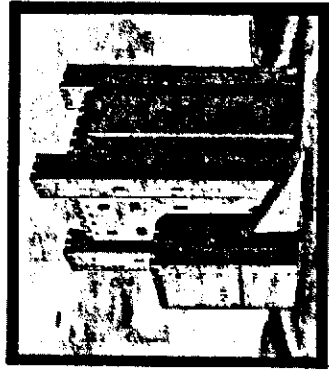
للحكمة



في الماضي، فالجند الأكبر لعائلة ولف (Welf) التي لعبت دورا كبيرا في تاريخ ألمانيا كان واحدا من الكونتات التابعين لموقية بافاريا وهو الذي تزوجت ابنته من الملك لويس الثاني ابن شارلان؛ كما أن نسب كونتات تولوز في فرنسا لم يوضح إلا في عهد لويس الثقي أيضا، أما ماركيزات اقربا



القائمة والفلاحة



تطور القلاع



هذا عن الجانب الشرقي لوجه العملة، أما الوجه الآخر فإنه يصور الحروب الدامية التي قامت بين الأقباط وسادتهم، وإن كان هذا لا يعني أن جميع الأقباط كانوا يشنون الحروب على قلاع سادتهم. ونقرأ في آداب المعصر «أن الجميع قد أقسموا بين الولاة؛ البعض كانوا للقسم أوفياء ولكن البيض الآخر تكبروا جاحدين لما أقسموا عليه». إن هذه المعاني تفصح عن روح المعصر وعن الهوة السحيقة بين النظرية والواقع، وهنا يكمن التناقض في مختلف نظم المعصور الوسطى. ومن بينها نظام الإقطاع.

ولتهم أسباب التدهور الذي أصاب العلاقة بين السيد والفصل يجب أن نتذكر أن نظام التبعية في صورته الأولى كان يختم على الاتباع الانتفاع حول زعيمهم (سيدهم) في قلته، حيث كانوا يحيطون السيد (Hem) بمشاعر الاحترام، فهو قائدهم ومورد إقطاعهم، وكان الاتباع بالنسبة للسيد بمثابة «الرفاق» (Gasindi) أو «الإناء» (Vassi) أو مورد رزقهم وأخبارهم (Hlifoetan)، ولكن تبدل الظروف وتمعد الأحوال وازدياد المشاجرات أدى بالاتباع إلى أن يهجروا قلعة السيد لكي يتمكن كل منهم من السهر على حماية إقطاعه الأصغر حجما، وخاصة وقت الغزوات النورماندية والهنغارية. وأمام هذه التحولات المتتابعة بدأت بعض مصالحي السادة تتعارض مع مصالح الأقباط، فكان لا مفر من وقوع الصدام بين الطرفين. يضاف إلى هذا أن نظام توريث الإقطاعيات لإبناء الأقباط المتوفين قد ساهم في غرس الأحقاد والضغائن في نفوس الطرفين. ولم يكن الوريث لإقطاعية ما يقوم بأداء مراسم الولاة والطاعة للسيد إلا لكي يضمن الحفاظ على رقعة الأرض التي كانت بيد أبيه، بغض النظر عن مشاعره الحقيقية تجاه هذا السيد. وكان على الوريث أن يؤدي نفس الالتزامات التي كان يؤديها والده للسيد، وهي في أغلبها التزامات عسكرية فروسية قد لا يتقنها أو يرضخ فيها الابن بنفس القدر الذي كان يوفيهها به الأب المتوفى من قبل. ومن هنا فإن الشعور بحرية الاختيار، وهو من المفاهيم التي أخذت تسرى في مختلف الأوساط مع ازدياد التعليم وازدهار الجامعات، قد أصيب بالإحباط عند الأبناء من ورثة الأراضي الإقطاعية؛ ولذا فإن عددا كبيرا من الأقباط قد تمردوا واشتبكوا مع سادتهم واستولوا على الأراضي منهم بقوة السيف.

كانت النبالة في عرف القبائل الجرمانية تستمع بامتيازات خاصة، وأبرز هذه الامتيازات الحق في تعرض كبير القيسة في حالة وقوع ضرر بهم (Wergild)، وتشير الوثائق الانجلوسكسونية إلى أبناء هذه الطبقة بأنهم «ولدوا أعزاء» (Edelinge) دون سائر الناس، على أنه عندما أقام الجرمان محالكمهم على حطام الإمبراطورية الرومانية لم تعد علامات السمو لدى المجتمع تقوم على عامل الوراثة وإنما على قدر ما يملكه الفرد من أراضٍ وثقود. وليس أدل على سقوط عامل الوراثة في ارتباطه بالنبالة من أنه لا يمكن أن تنتج شجرة أنساب أهم الاسر الحاكمة في أوروبا إلى عهد بعيدة



الذين صاروا فيما بعد ملوكا على إيطاليا، فقد ظهوروا على مسرح الأحداث في عهد الملك شارل الأصغر، وأما فرج لودلفنج أدواق سكسونيا ثم ملوك اللانبا لبعض الوقت فقد ظهوروا على مسرح الأحداث في عهد الملك لويس العظمى، أما أسرة البوربون الفرنسية فقد اتبقتوا من آل كاييه وهم أخرق الأسر في أوروبا، وإن كنا لا نعرف شيئا عن الجد الأكبر لكاييه سوى أنه كان يلقب بـ «بروت القوي» وأنه قتل في غالة سنة ٨٦٦م، وإن كان البعض يرجعه إلى أصول سكسونية. وفي إيطاليا ظهرت عائلة آل توني (Altoni) وهم أبناء لزيم يدعى سيجفريد من لوكا الذي توفي سنة ٩٥٠م، ولا يمكن تعقب أثرهم قبل هذا التاريخ. هذا، وقد ظهرت في منتصف القرن العاشر أسرة قوية من ولاية سوابيا هي أسرة بانبرج التي أسست دولة النمسا.

هذا عن أكثر البيوتات الأوروبية عراقية في أوروبا، أما إذا أردنا أن نتبع أصول عائلات الطبقات الإقطاعية الأقل شأنًا، فإننا لن نثر على شيء يفيد. ويمكن القول أن النبالة يفهمها القديم سواء عند الرومان أو الجرمان لم تعد واردة في عصر الإقطاع، وصار النبيل هو الشخص الذي لا يوجد بين أجداده من كان من العبيد، وهو في نفس الوقت الذي يملك مساحات شاسعة من الأرض الزراعية، إلى جانب مقدرته على حمل السلاح وامتطاء صهوة الخيل كفارص مسلح بالسيف والحرية والحرمة والدرع التلاني أو المستدير.

الفرسان

وكلمة فارس في المصنوع الوسطى الأوروبية تترادف كلمة «مقاتل» (Miles)، وهي أيضا مرادفة لكلمة «فصل»، وقد اعتبر الفرسان مهمة القتال أهم بكثير لمجتمع الإقطاع حتى من واجب الصلاة. وكان الفارس يفخر بقرته الجسمانية، وبعضلاته المتفردة، وهو يكتسب هذه اللياقة البدنية بالمران منذ نعومة الأظفار في واحدة من فلاح السادة، وتصوره وثائق العصر فارعا في الطول، منبسط الأطراف، عريض المكسبين، صلب النظام، متناسق الأعضاء، مزدانا بأثار جراح السيوف على جسده، وهو فوق كل هذا أكوّل نهم يتمتع بشهية الخيل.

على أنه كان مطلوبًا من الفارس من الناحية النظرية أن يتحلى إلى جانب فضيلة الشجاعة واحترار الموت بفضائل معتوية من قبيل الحرص على الشرف والحفاظ على مشاعر الولاء والمبادرة للظفر في الحروب التي وصفها الدوائر الدينية بالحروب المقدسة، والسعى لإعلاء اسم سيده المحبوبة. وقد أصافت المؤسسات الدينية مهمازا جديدا هو الوعد بالفردوس لمن يموت في سبيل قضية دينية. وبهذه الطاقة القتالية المشاهدة الكاملة في أجسام أشبه ما تكون بأجسام حيوانات الغابة لجأ ملوك الإقطاع والبيوت إلى إطلاق فرسان أوروبا على أراضي السلاف والجنوب الإيطالي

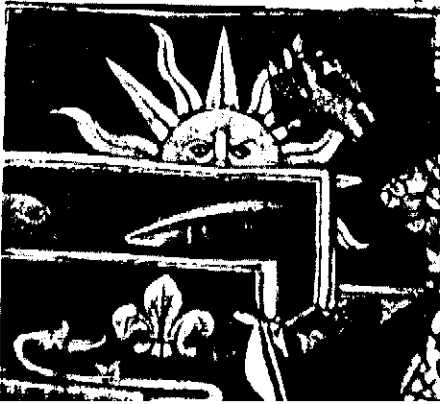
وجزيرة صقلية وإسبانيا وعلى الأراضي البيزنطية وآسيا الصغرى ثم في حروب العدوان الصليبي على الأراضي المقدسة. وكانت هذه الحروب سبيلا من سبل امتصاص الطاقات القتالية المدمرة التي تعتمل داخل هؤلاء الفرسان. كذلك لجأت الكنيسة في الغرب اللاتيني أو الفرنجي إلى فرض أيام معينة يحرم فيها القتال، وعرفت هذه الأيام باسم «هدنة الله» (Tunga Dei)، وعرفت أيام أخرى باسم سلام الله (Pax Dei) وهي أيام الأعياد والمناسبات الدينية المختلفة.

والحق أن فرسان القرن الحادي عشر كانوا على درجة بالغة من الخشونة وفتاعة الطبع؛ فهم يشربون حتى الشمالة، وكانت قلاعهم غامرة بالنساء الفاسدات. وإذا خسر أحدهم جولة في إحدى مباريات الشطرنج مثلا فقد يارز ضيفه حتى يجرحه، وإذا تابا الخادم في إحضار كأس من الشراب فقد يرشقه برمح نافذ، وإذا ضايقته زوجته بالثرثرة فإنه يضربها في قسوة بالغة. كذلك كان الفارس يحقر أبناء الطبقات الدنيا من الفلاحين احتضارا شديدا، ولا ينظر إليهم كأدميين مثله لأنهم - وفق مفهومه - لا يجيدون فن القتال (Imbellis)، وهو في نفس الوقت وينفس القدر يزدري طبقة التجار لأنهم يجمعون ثروتهم من مهنة شبيهة بالربا!

القلاع

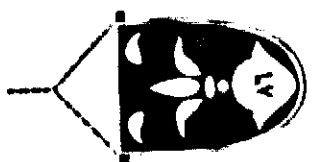
كان الفارس يسكن في قلعة حصينة تحيط بها عن قرب أكوخ الفلاحين العاملين على أرض الضيقة. وكانت القلعة في أول الأمر على شكل برج خشبي يضم حجرة كبيرة للنوم في الطابق الأول، بينما خصص الطابق الأرضي كمخزن للمؤن. وحول البرج يوجد الخندق الذي يجيط به من الخارج سور ترابي يليه خندق آخر. أما الطبخ فكان يقع في حيز خارج بناء القلاعهم بدلا من اندلاع الحرائق. ويمرور الوقت لجأ الفرسان إلى استخدام الحجارة كمادة بناء لقلاعهم بدلا من الخشب. وكان البرنامج اليومي للفارس يبدأ في الصباح الباكر بالرياضة والصيد في الغابات. وقد أعد الفرسان إعدادا خاصا بقصد تلقينهم في قلاع السادة قواعد السلوك وآداب المعاملة (Courtoisie)، وهي كلمة مشتقة من لفظة «Court» أي «البلاط» الخاص باليد الإقطاعي والذي كان بمثابة المدرسة الأولى التي يتلقى فيها الشباب من أبناء تلك الطبقة أساليب التعامل وسلوكيات النبالة. وقد ولدت هذه الكلمة في بلاط سادة الجنوب الفرنسي، ثم نقلها الإيطاليون عن الفرنسيين في أوائل القرن الحادي عشر، ثم انتقلت بعد ذلك إلى ألمانيا وعرفت هناك باسم «Hoflich». هذا، وقد وقد كثيرون من أبناء النبالة اللاتينية على القلاع الفرنسية ليتلموا تلك الآداب السلوكية، وقد لعبت مدن شارتر وباريس دورا هاما في تجسيد معاني السلوك القروسي المهذب لدى أبناء الطبقات العليا. ويرتبط بهذا السلوك موقف أبناء هذه الطبقة تجاه المرأة النبيلة؛





إطلاق الصقور

لقد ساهمت موجة الطربادور في التخفيف من غلظة الفرسان في فرنسا، ويروى أن فارسا جبارا اسمه وليم مارشال قد طلب من بناته وهو يلقط أنفاسه الأخيرة أن يسمنه شيئا من شجى الألمان قبل أن يفيض روحه. وكثيرا ما هلك فرسان مكافرون بالحراسة على حين غفلة منهم وهم يستمعون بشغف إلى بعض الأغاني المجية إلى



فلقد ظهرت في فرنسا طبقة من سيدات الصالونات، عرفن بمشققهن للأدب والشعر والقن وملاحم الفروسية، وأصبحت شهرة أو سمعة الفارس القتالية والسلوكية تحدد في تلك الصالونات، ولقد حرص مشاهير الفرسان على إثبات جدارتهم وتأكيد قوتهم حتى تذكر أسمائهم على أنسة رواد هذه اللقاءات النسائية مقرونة بالإعجاب والاحترام. ومن هنا كان اهتمام الفرسان بالأدب والشعر وخاصة الغزلي منه. ورائد تلك الحركة هو الدوق وليم التاسع صاحب أقطانيا (ت 1127م)، الذي كان عاشقا ومشجعا للشعر والغناء والطرب.

ثم جاءت ماري كورتيسة أقليم شامباني (1140 - 1198م) وهي ابنة ليريس السابع ملك فرنسا من زوجته إليانور وريثة أقطانيا وصاحبة السجل الحافل من المغامرات، وقد جسدت ماري في شخصها وحاشيتها أقاليم الشعر الطربادوري وقصص الغرام ونقلت هذا كله معها إلى عاصمة زوجها في مدينة تروي (Troyes). ومن هذه البلدة الأخيرة شاعت ملاحم البطولة الفرنسية وقصص الغرام لتعم كل أرجاء أوروبا الغربية. وقد أنجبت تروي شاعرا مرموقا هو «كريتيان» الذي نظم العديد من قصائد البطولة والغرام، والذي كان ينشد قصيده على مسامح الفرسان وسيدات قلوبهم دون خجل أو تورية. ولقد عرف بلاط ماري دي شامباني ألوانا من الحب العذري وغير العذري جميعا، فأصبح الفارس الذي ليست له علاقة غرامية بواحدة من سيدات الصالونات ليس أهلا للقب الذي يحمل شرفه على نصل سيفه. وقد لعبت المرأة الفرنسية دورا كبيرا في إشعال نار المبارزات بالسيف، كما كان لها دور في إطلاق الصقور في رياضة الصيد، وهي

أيضا ضيفة الشرف بين الشاهدين في حلبة المبارزة. وباسم هذه المعجزة أو تلك كان الفرسان الشجعان يحطمون رماحهم وقبضهم ثم قلوبهم أيضا!

المبارزة



من أثرياء المدن الجديدة وغالبيتهم من التجار، ولذا فإن البارونات لم يتورعوا عن قطع الطريق عليهم وتجريدهم من تجارتهم التي يكسبون رءاها ثروات دون عناء حرب أو قتال.

الأقنان

هذا عن السادة، أما عالم العبيد فهو مختلف تماما؛ ففلاح الأرض في العصور الوسطى له عدة أسماء، فهو قني (Serf) وهي كلمة مشتقة من كلمة «عبد» (Servus)، وهو أيضا «بروليتار» (Proletarius) وهي كلمة لاتينية تعني ذلك الشخص الذي ينتمي إلى الطبقات الدنيا في المجتمع، وهو أيضا «فألين» (Villein) بمعنى الاجير المرتبط بفلاحة الأرض ولا يرحها أبدا. وكان الأقنان يؤثنون الغالبية العظمى من سكان غرب أوروبا في عصر الإقطاع، وقد ارتبطوا بالأرض الزراعية في القرى والكفور والصياغ (Manors). وكانت كل قرية أو ضيعة تخضع لسيد واحد، ويحتجز السيد الجزء الأكبر من الأرض لتزوع لصالحه، وهو الجزء الذي عرف في مصطلح العصر باسم «الدومين» (Demense)، بينما قسم الجزء الباقي إلى شرائح صغيرة ومبعثرة يقوم الفلاحون بزراعتها لحسابهم مقابل خدمات والتزامات ثقيلة وضرائب عينية أو مادية؛ غالبا ما كان الفلاح لا يجد بعد سداها ما يسد رمقه وأطفاله. غير أن القن لم يكن عبدا بالمعنى الذي نعرفه عن العصر اليوناني الروماني، ولكنه في نفس الوقت لم يكن أيضا في عداد الأحرار، فهو بين بين، بمعنى أنه لا يباع ولا يشتري، وإن كان لا يسمح له بحمل السلاح أو أن يمثل أمام المحاكم كواحد من المحليين. وكان القن رهن إشارة سيد الأرض، ولا يمكنه أن يبيع تلك الأرض فهو أشبه ما يكون بعبد للأرض نفسها. وفي مقابل استغلال شريط ضيق على هامش أرض الضيعة كانت على القن التزامات غاية في القسوة، فقلبه ضريبة سنوية عن هذا الشريط، وعليه ضريبة الرأس (Cens)، وضريبة المشور للكتابة (Dime)، وعليه العمل سخرة ثلاثة أيام أسبوعيا في أرض السيد (Corvée)، كما أنه يدفع ضريبة مقابل استخدام طواحين ومعاصر السيد، وأخرى لكي يسمح له بعبور قنطرة الناحية، ومن الأمور المفضحة أنه كان على القن أن يتنازل عن اللبلة الأولى من زواجه لثمة السيد (Ius Primae Noctis). وقد ظل هذا الجرم معمولا به في جهات مثل بافاريا حتى القرن الثامن عشر!

وبينما يتلقى الفرسان (البارونات) إقطاعياتهم من السادة الأعلى في سلم النبالة برمز السيف في حفل مهيب، كان يسمح للقن بزراعة الأرض الهزيلة على الأطراف وفق رمز يدل على المهانة واللذلة وهو رمز «الشوكة والسوط» (Furcam et Flagellum). ومن الناحية النظرية كان على القن أن يؤدي للسيد كل ما يؤمر به، وليس له أن يعلم في يومه شيئا عن أسر غله. وبين لنا «الكتاب الأسود» لمقاطعة «بيتر بور» بالجنابرا الذي ظهر ما بين أعوام 1120 - 1128م الوثايات التي كانت على القن في تلك الناحية تجاه السيد؛ وهي تتضمن الخدمة في الأرض على مدار



تفوسهم. ولقد عرف المصر كثيرين من أبناء هذه الطبقة ممن انغمسوا في اللذات، وإن كانت الملاحم تصنع المسولية في ذلك على «ضعف النساء» وليس على نزوات الفرسان. كذلك لم يكن بعض السادة في الفلاح يجعلون حرجا في أن يقدموا لضيف مرموق إحدى الفتيات الجميلات لمؤانسته وإدخال البهجة على قلبه. وواقع الأمر أن مجتمعا مثل هذا المجتمع الذي كانت الزيجات فيه تتم وفق المصلحة أو الصفقة لم يكن يعرف كثيرا الزواج الناجح؛ لذا فإن البديل لهذه العلاقة الزوجية «الكريهة» كان في اتخاذ المحظيات والخيلات، ونحن نعلم أن قلاعا كثيرة كانت غاصة بالأبناء البقلاء، كما أن بعض أغاني الطروبادور تخاطب الفرائز الفجة؛ والحلب الحسى التي قيل أنه كان يتم حتى في مخازن السلاح بل وفي حظائر الخيول!

على أنه إلى جانب الحب الحسى ظهرت أثمار كثيرة في الحب «العذري» أو الأفلاطوني، وهو علاقة لا تمت بصلة إلى العلاقات الزوجية؛ لأن المحبوبة هنا سيدة متزوجة، ولن يكون العاشق لها زوجا في يوم من الأيام. وهذا الحب «الأفلاطوني» ينصب دوما على سيدة من الطبقات الأعلى في سلم النبالة، وهو حب من النوع «المحرم»، حيث تظل إمكانية الوصال مجرد سراب مستحيل. وهذه المحاذير التي تحول دون تحقق هذا المشق هي التي فجرت عند الشعراء صوراً من الوله والصبابة ودقوف الأحران عند جماعة الطروبادور. وعندما يشحب الأمل في تحقيق هذا الحلم يتولد في النفس إحساس بلذة هذا «الحلم المستحيل»، وهكذا اتخذت هذه العلاقة بين العاشق والولهان والمحبوب بعيد المثال أبعادا أشبه ما تكون بتلك العلاقة بين الفصل وسيد الإقطاعي. وقد انتقل هذا الشعور الرومانسي من فرنسا إلى ألمانيا، حيث عرف باسم (Minneang).

يقى أن نذكر عن هذه الطبقة أن بعض كبار الفرسان أو البارونات كانوا يتمسكون بثرأ فاحش؛ فقد أصدر أحد السادة في منطقة الليموزين بفرنسا أمره بأن تحرق أرضه ثم تلبأ بقطع من عملة الفضة، كما أن بارونا آخر أمر بإعداد الطعام لضيفه على نار الشموع، بينما قام سيد ثالث بإحراق ثلاثين من ثيراته دفعة واحدة في واحدة من احتفالاته!

وهذا الشراء الفاحش كان طبيعة الحال من عرق ودم رقيق الأرض من جماعة الألقان (Serfs) الذين ما كانوا يجعلون ما يسد الرمق. وفي منتصف القرن الثاني عشر ظهر اتجاه نحو إخفاء صيغة قانونية على أبناء الطبقة الأرستقراطية بهدف تبيث حتى الورثة في عروق أبناء هذه الطبقة، ومنذ ذلك التاريخ ظهرت كلمة «جنتلمان» أي شخص من جنس (Gens) نبيل عن طريق الورثة. وكان هذا الصك الاجتماعي يتم وفق طقوس خاصة تقام عندما يخرج الشاب النبيل من تدريبه ليقلد فارسا. وجديسر بالذكر أن أبناء هذه الطبقة كانوا يستخفون كثيرا بالطبقة البورجوازية



أو أنهم كانوا يزعمون شريحة من الأرض دون تسمية واضحة لسيد بيته. وقد احتفظت هذه الفئة القليلة من الفلاحين بشيء من الحرية ولكن في مكابدة شديدة. وفي الطرف الآخر كانت هناك فئة أشد تعاسة من الأتقان، عرفوا أحيانا باسم «البورداري» (Bordarii)، وأحيانا أخرى باسم «كوتاري» (Cottari) وهؤلاء هم أرباب الأكوخ التمسعة التي كانت شبيهة بحظائر الحيوانات، والذين كانوا يقاتون على ما يتساقط من أيدي بعض الفلاحين الأحرار في مواسم الحصاد. وأبناء هذه الفئة من المدممين يؤجرون أنفسهم لمن يقدم لهم ما يسد أودهم فحسب. وإلى جانب هؤلاء وأولاء كانت القرية الإقطاعية تعرف فئات من رعاة الأبقار (Vallarii)، ورعاة الأغنام (Bercarii)، ورعاة الخنازير (Porcarii)، هذا إلى جانب حداد القرية والتجار.

ولما أن اودادات الأخطار الخارجية في شكل الغزوات المتتيرة المتأخرة، ولما أن ضعف نفوذ الملوك واشتملت الحروب الإقطاعية، اضطر الفلاحون الأحرار الذين كانوا يفلحون أرض التاج إلى الخضوع لضغوط وسطوة السادة المحليين، وتحولوا إلى أتقان بنفس الالتزامات التي سبقت الإشارة إليها.

وعندما اكتمل الهمم الإقطاعي في القرن الحادي عشر، انقسم الناس في غرب أوروبا إلى قسمين واضحين: الحر وغير الحر. والحر هو الذي يملك أرضا ويحمل سلاحا وله «وضعية اجتماعية» (Status)؛ أما غير الحر فليس له وضعية شرعية واضحة، فهو لا يجلس في المحاكم ولا يعتمد بشهادته ولا يسمح له بحمل السلاح، وعليه أن يدفع ضريبة الرأس، ولا يحق له الزواج من امرأة حرة، وهو مربوط بالأرض لا يبرحها. وقد صار للسادة حينذاك الحق في شق الأتقان على بوابات قلاعهم؛ ولذا فإن السادة كانوا يعلقون على مداخل قلاعهم عددا من المشائق دلالة على نفوذهم وسلطانهم.

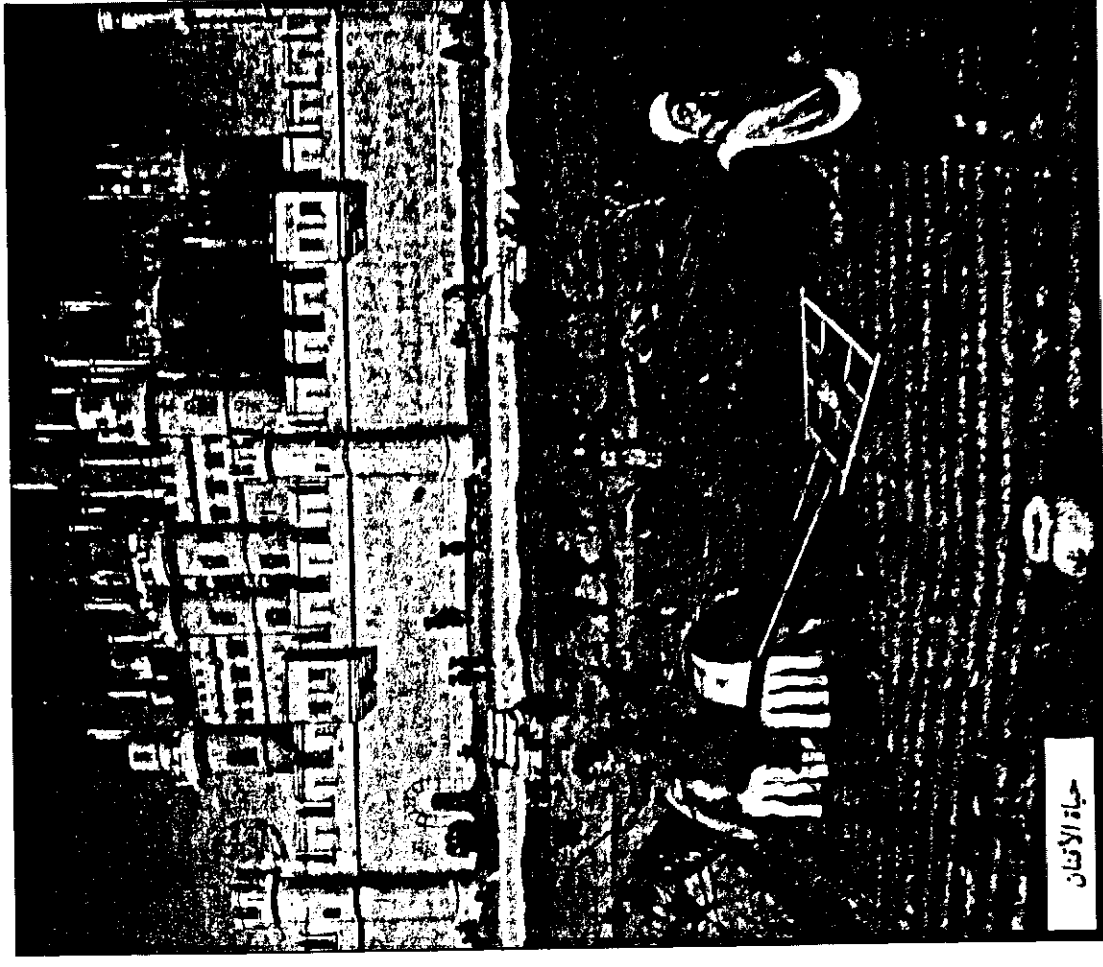
النشاط الثاني إلى جانب الفلاحة في القرية كان الرعي، وكانت الأبقار والأغنام والخنازير تعتمد في مرعاها على نطاقات من البراري والأحراش وأطراف السهوبات. ولم يكن حق الرعي مطلقا للفلاحين، وإنما كان يحدد لكل فلاح عدده الأبقار والأغنام التي يحق لها الرعي بقدر ما يفلحه هذا الفلاح أو ذاك من مساحة من أرض السيد، إلى جانب دفع ضريبة عن هذا الرعي.

وبعد موسم الحصاد كانت تزال الأسوار المحيطة بالأرض الزراعية لكي تطلق عليها الأبقار والأغنام للرعي حتى يحل موسم إعداد الأرض للزراعة التالية. كذلك كانت كل قرية تبقى



فصول السنة، ودفع ضريبة عن شريط الأرض الذي يفلحه لصالحه، وتقديم خمسين دجاجة وستمائة وأربعين بيضة، والعمل في الرعي لرعاية حيوانات السيد، وتقديم حمل من الخشب، والمشاركة في غسل وجز صفوف الأغنام. وكان على زوجة القن وأولاده الصغار أن يمازونه في أداء ما يطلب منه من خدمات للسيد.

ولقد وجدَ عدد قليل من الفلاحين الذين كانوا أقل تعاسة من الأتقان، وهؤلاء إما أنهم كانوا يعملون على وسايا تابعة للتاج مباشرة (Terra Regis)،



حياة الأتقان



بلدة روان (Rouen) في ولاية نورمانديا، حيث كانت كتاب الملك الإنجليزي تحارب ضد الفرنسيين.

كان سيد القرية الإقطاعي يمهّد بإدارة شئون القرية إلى موظف عرف باسم «ناظر الضيعة» (Bailiff)، وكانت مهمته ضمان تحصيل جبايات الضرائب من الفلاحين ورئاسة محكمة القرية. وقد وردت صورة هذا الموظف كرهبة وقسوة فهو متسلط قاسٍ في معاملته مع أهل القرية جميعاً. وإلى جانبه وجد موظف آخر أقل شأنًا مهمته متابعة سير العمل عن قرب. وقد احتفظ السيد في قلعه بسجلات دقيقة عن حسابات الضيعة، ومنها تعرف على قيمة الإيجارات والضرائب ومعدل الإنتاج السنوي للقدان، ودخل محكمة السيد، ومصروفات الماني والتربسيات، وتكلفة حفر الخنادق وبناء الأسوار، وكذلك أعداد قطعان الثروة الحيوانية.

وللسيد محكمة يحاكم أمامها الفلاحين، وهي تعقد مرة كل أسبوعين، ومن خلالها يتزل السيد المقاب بأي فلاح يتحرض بالمرعى أو الغابات أو الثروة الحيوانية، وقد تحول السيد لنفسه الحق في الفصل في المخالفات التي تمكّر صفر «سلام التاج»، ثم أخذت صلاحيات السيد تزداد حتى صارت سيفًا مسلطًا على رقاب الفلاحين، ثم أعطى السيد نفسه الحق في تنفيذ أحكامه بنفسه ومن بينها حق الشق لمن يضيّط من الفلاحين متلبسًا بالسرقة (Infangentheof). كذلك جعل السيد من نفسه صاحب الحق في محاكمة حالات النش في الجمعة أو الثلاثاء بأسعارها.

وإلى جانب هذه المحكمة كان لكل مقاطعة محكمة كبرى عرفت باسم «مجلس المائة»، وكان يمثل القرية فيها «المريف» (Reeve)، وكاهن القرية وأربعة من حسنى السمعة. وفي حالة وقوع جريمة قتل في القرية، كان على الأهالي أن يبلغوا عنها وأن يقضوا على الجاني بأنفسهم لتقديمه للمحاكمة. وإذا فشل الأهالي في ذلك يتعرضون لطائلة قانون الحفاظ على سلام الملك، وفي هذه الحالة لم يكن العقاب يحل على فلاح يعينه وإنما كان العقاب جماعياً على أهل القرية جميعاً في صورة غرامات جماعية تذهب لخزينة السيد وأحياناً لخزينة التاج.

من الشخصيات الجديرة بالذكر في القرية كاهنها، ففي كنييسة القرية التي تخضع هي والكاهن للسيد، وفي صحن هذا البيت الديني كان الفلاحون يجتمعون أيام الأحاد للصلاة، وفي أيام الأعياد للاحتفال، وفي أيام المواسم السنوية، وكانت الأسواق أحياناً تقام في رحاب كنييسة القرية. وقد عرف عن كاهن القرية أنه كان فضّل الثقافة بشكل يدعو إلى الأسى، وقد وصف بأنه كان أقل جهلاً بقليل عن سائر الفلاحين. وهو إلى جانب قيامه بواجباته الدينية من إقامة شعائر الصلاة والوعظ ومراسيم العماد والزواج والجنائز، كان طيلة الأسبوع يعمل في الحقل بنفسه



على نطاق من الأرض يخصص للحشائش التي تجمع وتخزن، وبمعداها يسبح لحبوانات القرية بالمرعى على بقايا وجذور تلك الأعشاب، وكان هذا يتم بين شهري أغسطس وفبراير من كل عام، وكان على جميع فلاحي القرية أن يدفعوا للسيد ضريبة مقابل ذلك عرفت باسم «حق العشب» (Herbogium). ولا أن بدأ استصلاح الأراضي على حساب الغابات والمرعى، باتت الثروة الحيوانية في غرب أوروبا مهددة بالخطر، وقد وضعت الخطورة بشكل صارخ في إنجلترا في القرن الثاني عشر، فنحن نعلم أن مساحة قرابة ١٥,٠٠٠ فدانا من المرعى من مقاطعة لكرولن قد تحولت دفعة واحدة إلى أرض زراعية، وقد نتج عن هذا التحول دعر شديد، وأخذت الأبقار والأغنام تهيم على وجهها بل وتعتمد على الأراضي الزراعية. والأهم من هذا أن معدل ما أصبحت تدره البقرة من لبن على مدى أربعة وعشرين ساعة أسبوعياً قد تدنى ليحقيق ثلاثة شلنات وست بنسات فقط!

وقد كانت الأغنام بوجه خاص مصدر رزق طيب للفلاح، إذ إن تربية مائة منها كان يضمن ربحاً متوريا قدر وقتها بجنه كامل، كما أن جلود الأغنام كانت سلعة مطلوبة لاستخدامها في صنع رقائق الكتابة (Parchment)، وكذلك عرف عن أهل المصور الوسطى جهم لجبن الضان. وقد قدر كاتب من القرن الثالث عشر ما تدره عشرون من الأغنام بنفس القدر الذي تدره بقرتان حلويتان وهو ما يعادل ٢٥٦ رطلاً من الجبن ونصف دن من الزبد في الأسبوع الواحد. وقد زدنا سجلات العصر بأسعار رموس الثروة الحيوانية، فقد كان الشور يباع بثلاثة شلنات، ورأس الضان بأربعة بنسات، والبقرة بشلن واحد وثمانية بنسات، والخنزير بثمانية بنسات.

وفي أواخر القرن الثاني عشر عندما أزيلت الغابات والمرعى لزيادة الرقعة الزراعية، شحت المراعى فشهدت الأسواق ارتفاعاً في أسعار الثروة الحيوانية بما يعادل نصف الأسعار السابقة.

وفي بداية عصر الإقطاع كان إنتاج القرية يستهلك محلياً، ولكن مع تطور الأحوال والأوقات وزيادة الرقعة الزراعية عرفت منتجات القرية طريقها إلى أسواق المدن المجاورة. وقد فرض السادة على الفلاحين ضريبة لنقل بضاعتهم على عربات خاصة عبر طرق وعرة إلى أسواق المدينة. وكان على القرويين بين الحين والآخر إمداد السادة وحامل التاج أيضاً بمنتجات القرية إلى أماكن نائية جداً، فمثلاً كان على بعض القرى في سنة ١١٧١م أن ترسل ثلاثة آلاف شحنة من القمح إلى إيرلندا، حيث كان الملك الإنجليزي يحارب في هذه الجزيرة؛ وفي سنة ١١٨٩م فرض على قرية كنت (Kent) أن تمد القصر الملكي بعدد ١٩٠٠ دجاجة بمناسبة حفل التتويج الملكي؛ وفي سنة ١٢٠٣م فرض على عدد معين من القرى أن تشحن عدد ٢٢١٧ رأساً من الخنازير إلى



بلدة روان (Rouen) في ولاية نورمانديا، حيث كانت كتاب الملك الإنجليزي تحارب ضد الفرنسين.

كان سيد القرية الإقطاعي يعهد بإدارة شئون القرية إلى موظف عرف باسم «ناظر الضيعة» (Bailiff)، وكانت مهمته ضمان تحصيل جبايات الضرائب من الفلاحين ورئاسة محكمة القرية. وقد وردت صورة هذا الموظف كرهبة وقسوة فهو متسلط قاسٍ في معاملته مع أهل القرية جميعا. وإلى جانبه وجد موظف آخر أقل شأنًا مهمته متابعة سير العمل عن قرب. وقد احتفظ السيد في قلعة بسجلات دقيقة عن حسابات الضيعة، ومنها نتعرف على قيمة الإيجارات والضرائب ومعدل الإنتاج السنوي للفدان، ودخل محكمة السيد، ومصروفات الماني والترميمات، وتكلفة حفر الحنادق وبناء الأسوار، وكذلك أعداد قطعان الثروة الحيوانية.

وللسيد محكمة يحاكم أمامها الفلاحين، وهي تعقد مرة كل أسبوعين، ومن خلالها يتزل السيد العقاب بأي فلاح يتخربش بالمرعى أو الغابات أو الثروة الحيوانية، وقد خول السيد لنفسه الحق في الفصل في المخالفات التي تمكّر صفو «سلام التاج»، ثم أخذت صلاحيات السيد تزداد حتى صارت سيفا مسلطا على رقاب الفلاحين، ثم أعطى السيد نفسه الحق في تنفيذ أحكامه بنفسه ومن بينها حق الشق لمن يضبط من الفلاحين متلبسا بالسرقة (Infangentheof). كذلك جعل السيد من نفسه صاحب الحق في محاكمة حالات الغش في الجمعة أو الثلاثاء بأسعارها.

وإلى جانب هذه المحكمة كان لكل مقاطعة محكمة كبرى عرفت باسم «مجلس المائة»، وكان يمثل القرية فيها «المريف» (Reeve)، وكاهن القرية وأربعة من حشنى السمعة. وفي حالة وقوع جريمة قتل في القرية، كان على الأهالي أن يبلغوا عنها وأن يقضوا على الجاني بأنفسهم لتقديمه للمحاكمة. وإذا فشل الأهالي في ذلك يتعرضون لطائلة قانون الحفاظ على سلام الملك، وفي هذه الحالة لم يكن العقاب يحل على فلاح بعينه وإنما كان العقاب جماعيا على أهل القرية جميعا في صورة غرامات جماعية تذهب لخزانة السيد وأحيانا لخزانة التاج.

من الشخصيات الجديرة بالذكر في القرية كاهنها، ففي كنييسة القرية التي تخضع هي والكاهن للسيد، وفي صحن هذا البيت الدينى كان الفلاحون يجتمعون أيام الأحاد للصلاة، وفي أيام الاعياد للاحتفال، وفي أيام المراسم السنوية، وكانت الأسواق أحيانا تقام في رحاب كنييسة القرية. وقد عرف عن كاهن القرية أنه كان ضحل الثقافة بشكل يدعو إلى الأسى، وقد وصف بأنه كان أقل جهلا بظليل عن سائر الفلاحين. وهو إلى جانب قيامه بواجباته الدينية من إقامة شعائر الصلاة والوعظ ومراسم العمد والزواج والجنارات، كان طيلة الأسبوع يعمل في الحقل بفساه



على نطاق من الأرض يخصص للحشائش التي تجمع وتخزن، وبعدها يسمح لحيوانات القرية بالمرعى على بقايا وجذور تلك الأعشاب، وكان هذا يتم بين شهري أغسطس وفبراير من كل عام، وكان على جميع فلاحى القرية أن يدفعوا للسيد ضريبة مقابل ذلك عرفت باسم «حق العشب» (Herbogium). ولا أن بدأ استصلاح الأراضي على حساب الغابات والمرعى، باتت الثروة الحيوانية في غرب أوروبا مهددة بالخطر، وقد وضعت الخطورة بشكل صارخ في إنجلترا في القرن الثاني عشر، فنحن نعلم أن مساحة قرابة ١٥,٠٠٠ فدانا من المرعى من مقاطعة لكونر قد حولت دفعة واحدة إلى أرض زراعية، وقد نتج عن هذا التحول دعر شديد، وأخذت الأبقار والأغنام تقيم على وجهها بل وتعدى على الأراضي الزراعية. والأهم من هذا أن معدل ما أصبحت تدره البقرة من لبن على مدى أربعة وعشرين ساعة أسبوعيا قد تدنى ليحقيق ثلاثة شلنات وست بنسات فقط!

وقد كانت الأغنام بوجه خاص مصدر رزق طيب للفلاح، إذ إن تربية مائة منها كان يضمن ربحا متوريا قدر وقتها بجنه كامل، كما أن جلود الأغنام كانت سلعة مطلوبة لاستخدامها في صنع رقائق الكتابة (Parchment)، وكذلك عرف عن أهل المصور الوسطى جهيم لجنه الضان. وقد قدر كاتب من القرن الثالث عشر ما تدره عشرون من الأغنام بنفس القدر الذي تدره بقرتان حلوتان وهو ما يعادل ٢٥٦ رطلا من الجبن ونصف دن من الزبد في الأسبوع الواحد. وقد زدتنا سجلات العصر بأسعار رموس الثروة الحيوانية، فقد كان الشور يباع بثلاثة شلنات، ورأس الضان بأربعة بنسات، والبقرة بشلن واحد وثمانية بنسات، والخنزير بثمانية بنسات.

وفي أواخر القرن الثاني عشر عندما أزيلت الغابات والمراعى لزيادة الرقعة الزراعية، شحت المراعى فشهدت الأسواق ارتفاعا في أسعار الثروة الحيوانية بما يعادل نصف الأسعار السابقة.

وفي بداية عصر الإقطاع كان إنتاج القرية يستهلك محليا، ولكن مع تطور الاحوال والاوقات وزيادة الرقعة الزراعية عرفت منتجات القرية طريقها إلى أسواق المدن المجاورة. وقد فرض السادة على الفلاحين ضريبة لنقل بضاعتهم على عربات خاصة عبر طرق وعرة إلى أسواق المدينة. وكان على القرويين بين الجبن والأخر إمداد السادة وحامل التاج أيضا بمنتجات القرية إلى أماكن نائية جدا؛ فمثلا كان على بعض القرى في سنة ١١٧١م أن ترسل ثلاثة آلاف شحنة من الفصح إلى ليرلندا، حيث كان الملك الإنجليزي يحارب في هذه الجزيرة؛ وفي سنة ١١٨٩م فرض على قرية كنت (Kent) أن تمد القصر الملكي بمعد ١٩٠٠ دجاجة بمناسبة حفل التتويج الملكي؛ وفي سنة ١٢٠٣م فرض على عدد معين من القرى أن تشحن معد ٢٢١٧ رأسا من الخنازير إلى



موائد الصنفورة المتسلمة (Docti) لكي يلتقطه ويلوکه البسطاء من غير التعلّمين (Idiotae). ومن هذا النبع الأخير يمكن للمرء أن يقول بأن تبعية - إن لم يكن رق - الفلاحين اقتصاديا وسياسيا قد أضيفت إليهما تبعية أخرى في عصر الإقطاع وهي التبعية العقائدية، فالمرورف أن السلطات الدينية عمدت إلى عدم ترجمة بعض النصوص الدينية إلى اللهجات المحلية كي تحجبها عن بسطاء الناس إما لصعوبة إدراك مغزاها وإما لكي تبقى حكرا عليها، وعطّل كبار رجال الدين هذا الموقف بأن العامة يخلطون بين القديسين والالبياء وبين أبطال الملاحم الجرمانية القديمة. والحق أن عامة الناس كانوا شديدى الإعجاب بقصص البطولة القديمة أكثر من إعجابهم بسير القديسين. ويروى الراهب الألاتى سيزاروس من هسترياخ كيف ذات يوم كان يعظ جماعة من الرهبان، فلاحظ أن الملل أخذ يتسرب إلى نفوسهم إلى حد أن بعضهم راح النوم بل وفى الشخير، ولكي يوظف هؤلاء من غفلتهم ونعاسهم عمد إلى تغيير موضوع موعظته هاتفا: استمعوا أيها الإخوة إلى وأيقنوا إلى حكاية جميلة - كان ياما كان فى ماضى الزمان ملك أسطورى اسمه آرثر سيد فرسان قومه الذى طبقت شهرة مائدته المستديرة كل الأفاق... إلخ. وعلى الترتيب الحضور وأفاق الجميع واشربت الأعناق وأرذفت الأذان لسماع بقية الرواية عن الملك آرثر وزوجته الفاتنة جونيشير وعاشقها الفارس لاسلورت. ثم توقف الواعظ فجأة عن الاستطراد فى قصة آرثر وصرخ فيهم قاتلا: «أرايتم أيها الرهبان كيف أن الحديث عن الأمور السماوية لا يشير اتصاكنم، بينما الحديث عن الدنياويات ومفاسدها يوقظكنم من السبات العميق؟!».



كسائر الفلاحين، وفى كثير من المناطق كان على كاهن القرية أن يعمل يوما كل أسبوع فى فلاحة أرض السيد سخرة. ولعل الامتياز الوحيد للكاهن أنه كان يحصل على شريط من أرض القرية بلغ ضعف الحصص التى كانت لبعض الفلاحين المميزين فى القرية. وكان على كاهن القرية واجب آخر هام؛ فهو المسئول عن «عجل» القرية لهجين الأبقار، وعن «كيش» القرية لهجين الأغنام، وعن «جواده» القرية لإحصاب إناث الخيول. وقد عرف عن الكاهن أيضا إلحاحه الدائم على التبرعات ليصلح من حال الكنيسة وليرسل إلى خزنة الاسقفية التى تتبعها القرية نصيبها المقرر، وكان هذا يشمل أيضا البيض والدجاج وغيرها من منتجات الريف. ثم جاءت ضريبة «المشورة» (Tithe) فنشلت كل المحاصيل والثروة الحيوانية والأصواف والخبث والزبد والعسل والفاكهة.



البش فى تجور القديسين

الأعياد

ولقد ارتبطت الأعياد والاحتفالات الدينية فى مختلف القرى الأوروبية بعمادات وثنية قديمة لم تفلح الكنيسة فى تخلص الناس منها. ولقسم روح هذا العصر لا بد من فحص الدلالات فى لغة التخاطب المحلية العالية وفى محتوى الصلوات الفردية والجماعية، وفى اعترافات المصلين عن ذنوبهم، وفى أفكارهم عن المعجزات، وفى قصص الجن والنفاريت، وفى ما قد يتساقط من على



والحق أن إنسان المصور الوسطى لم يكن يفهم التجريد، وعليه فإن المعاني الروحية كانت في حاجة ماسة إلى شيء ملموس وحسي لإدراك فحواها. ولم يكن التصور الشبهي ندا للمحسنات البلاغية والمجاز والكتابة والرمز اللغوي، وليس يستغرب أمام هذا أن لجأ رجال الدين إلى الأيقونات والتصاوير والتماثيل كوسائل تعليمية لعامة الناس. وقد سرى النمل الشعبي في تلك الأوقات بأن «الرب ليس حريصا على قواعد اللغة بقدر ما هو حريص على قلوب الناس وسرائرهم». وليس غريبا أيضا أن عددا غير قليل من كتاب الحورليات في المصور الوسطى كانوا يفاخرون بفجاجة أسلوبهم ويقصدهم في البلاغة والأجرومية. فمثلا يمتدح جريجورى أسقف تور مؤرخ الفرنجة أنه لا يدعى علما في الأدب والأسلوبية، وبأنه كاتب بسيط لا يجيد الحزافة، مشائلا عن الحكمة في اختيار المسح لخوازيه من صيادى السمك البسطاء وليس من الفلاسفة.

كذلك اضططر وعاظ العصر إلى تسيط عظاتهم كى تتوافق مع البيئة والزاج الشعبي؛ فمثلا وجد سيزاريوس من آس نفسه في إحدى موعظه ينصح المصلين بالانقصاد في نشاطهم الجنسي، موضعا لهم بأن العلاقات الزوجية قد شرعها الله للتناسل وإعمار الأرض بنسل صالح، وعليه فإن النهم الجنسي غير محيب، مثله في هذا مثل الحفل الذى إن أجهدهت بالحرث والبذر تباعا في موسم واحد أزهقت الثرية وجاء الحصاد هزليا!

هنا، وقد أعطى أهل العصر للأرقام دلالات غيبية؛ فرقم ٤ هو رقم الاتزان والاستقرار؛ ورقم ١١ هو رقم المرض والمجز والقترب الموت، وكذلك شاعت في العصر روايات متعددة عن غرائب الكون؛ من قبيل ذلك تلك الرواية عن ذئب هجم على إحدى القرى واختطف صببية إلى الغابة لكي تقوم بانتزاع عظمة من حلق ذئب آخر، وبعد قيام الصبية بالهمة الوعرة أعادها الذئب على ظهوره سالمة تماما. وقد كثرت أيضا القصص عن الشياطين والأعييمهم وشباكهم، وعن النساء اللاتي يلدن مخلوقات مشوهة بسبب مضاجعة الشياطين، وعن حياكل اليهود لسنديس القريان القدس، وعن امرأة سمعت محادثة مفهومة بين بعض الديكة والفراريج، وعن القروى الذى عثر على شجرة تثمر أحذية بدلا من الفاكهة؛ وفي مجتمع كهذا فرض رجال الدين كفارات عدة على الناس حتى يحدوا من هذه الهلوسات وعصاقتها الرخيمة، وكانت الكفارة تشمل الصلاة والصيام والطرد اللوث من القرية، ويات لكل خطية كفارة تفصل أوزارها. وقد سمحت بعض الأروقة الدينية للمذنب أن يستاجر شخصا آخر ليقوم بالصيام بدلا منه (Justus)، وكان على القنتر من الناس أن يدفع عشرين شلنًا للصائم المتساجر، أما الأقل غنى فكان يدفع عشرة شلنات، والأدنى من ذلك ثلاثة شلنات فقط. ومن الكفارات أيضا الحكم على الأثم بأن ينام لفترة محددة في جوف

أحد القصور بجوار جث الموتى، أو أن يجلد نفسه بالسوط عدة مرات، أو أن يتبع من قووة رأسه التتى عشرة شعرة!

هنا، وقد كان اعتقاد الناس في الأربياء والقدسين شديدا في المصور الوسطى؛ ولهذا فقد حرصوا على اقتناء رفاتهم ومخلفاتهم ورماد قبرهم، وقد كان هذا سببا في رواج الاتجار بآثار القديسين، بل إن سرقة رفات القديسين باتت أمرا منتشرا ليس فقط بين العامة، وإنما أيضا بين كبار رجال الدين أنفسهم، وقد وصل الأمر إلى أن البعض قد جاهر بأن قتل أحد القديسين لا حرج فيه؛ وذلك لضمان دفن رفته في هذا المكان أو ذاك للتبرك به وبكراماته! ويروى عن أهالى جبال أومبريا الإيطالية أن أحد الصالحين هناك قرر فجأة هجران المنطقة والاعتزال بعيدا في ركن قصي، فالتزج أهل المنطقة وتصايحوا: «إن كان يصعب علينا الإبقاء عليه معنا حيا، فلنقبه معنا مقترلا». هذا، وقد خصص العامة هؤلاء الصالحين والقدسين بصفات وكرامات دقيقة التخصص، فهذا يعين على الشفاء من أمراض الجلد، وذلك للعيون، وثالث لأمراض المعدة، ورابع للجهاز التنفسي وهكذا، بل إن هناك من خصصوا بالقدرة على طرد الفئران من المنازل! ومن حكايات العصر ونواجره أن ذنبا هاجم أحد الصالحين وهو في الطريق وابتلع حماره، فلمنه القديس وكيله ثم سخره ليقوم بأعياء الحمار الضحية، وصار الذئب المتوحش مطية ملجمة طيبة يؤدي للرجل واجبات الحمار القليل!

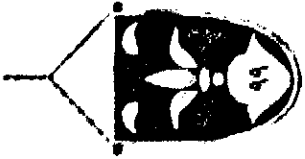
كان طبيعيا في هذا المحيط الغيبي أن يظهر العديد من المشعوذين والأربياء الكذبة، ومن هؤلاء واحد وفد من إسبانيا إلى مدينة تور الفرنسية وهو يقود ثلة من الموم والساقطات من النساء، وعند القبض عليه عثر في حقيقته على جذور نباتات، وأسنان موتى، وعظام فئران، ومخالب قطط وأشياء أخرى غريبة. ويجب أن نلاحظ في هذا الصدد أن الكنيسة الرومانية كانت لا تتابع في الشيرك بآثار القديسين الذين تعترف بهم رسميا، ولكنها حرمت ما دون ذلك في الأوساط الشعبية ودمته بالهروطة أو السحر الشعبي (Maleficium).

وقد اعتاد الناس عندما تحمل ضائقة أو نازلة بناحيتهم أن يهرعوا إلى مقبرة وليهم يستصرخونه للنجدة، وإذا لم تنفع النعمة فإنهم يقتحمون مقبرة «السولى» ويخرجون رفات أرضا ويترون الأشواك على عظامه ويتناولون عليه سبا وتقريعا!

أما عن سلوى الفلاحين في القرية فكانت تتمثل في حفلات الرقص في الحلاء أو مشاعنة صراع الثيران والديكة، أو التزحلق على الجليد، أو شراب الجمعة حتى الشالة أو الجلوس لاستماع النادر من القصص والحكاوى والظرف.

شهد القرن الثامن عشر اتساعا في رقعة الأرض الصالحة للزراعة بعد أن أزيلت الغابات، ولكي يرغب السادة أصحاب هذه الأراضي الفلاحين وفي العمل عليها اضطروا إلى أن يسرموا معهم موافق مكتوبة تختم على شروط أفضل من ذى قبل، وفي فرنسا أصبحت كل قرية تحصل على منا هذا الميثاق تعرف باسم «القرية الجديدة» (Villeneuve).





- (1) Augustine (St.), Civitas Dei. (Loeb Classical Library). London, 1965.
- (2) Barton, C. A., The Sorrows of the Ancient Romans. Princeton University Press. 1993.
- (3) Besnier, L'Empire Romaine de L'Avenement de Séveres au Concile de Nicée. Paris, 1937.
- (4) Bloch, M., Feudal Society (Trans. by L. A. Manyon). London, 1961.
- (5) Detaillis, C. P., La Monarchie Feodale en France et en Angleterre. Paris, 1933.
- (6) Gurevich, A., Medieval Popular Culture. Cambridge, 1992.
- (7) Lane - Pole, A., Prom Domesday Book to Magne Carta. Oxford, 1955.
- (8) Owst, G. R., Literature and Pulpit in Medieval England. London, 1937.
- (9) Painter, S., A History of the Middle Ages (284 - 1500 A.D.). London, 1966.

- إسحق عبيد: أوروبا في بحر الظلمات. دار القلم/ الكويت 1995م.

هذا، وقد ساعد تداول العملة في تمكين نقر من الفلاحين من اقتصاد مبلغ متواضع اشتروا به رقعا من الأراضي من بعض السادة. والمعامل الأهم الذي ساعد على تحطيم أغلال القبة هو تلك الثورات التي اندلعت في كل من فلاندرز وفرنسا وإنجلترا في القرن الرابع عشر.

ثورات الأفتان

والحق أنه مع ازدياد التعليم في نهاية القرن الثالث عشر بدأت تسرى في بلدان غرب أوروبا بعض الأفكار المستتيرة التي تناقلها الناس فأثارت في نفوسهم فصولا وظنمعا إلى نسمة الحرية. كما أن الحروب التي تتابعت بين الملكيات الإقطاعية قد جرت على الفلاحين وبالا شديدا، خاصة تلك الصرايب القبلة التي فرضها عليهم الملك للاستمرار في حروبهم.

في فلاندرز

قامت أولى الثورات في أراضي فلاندرز، وامتدت من سنة 1323م حتى 1328م، بقيادة زعيم اسمه نيقولا زانكين. وحطم الأفتان بعض قلاع السادة وقتلوا بعضهم واعتدوا على نسايتهم، ولكن جيشا ملكيا فرنسيا قضى عليهم في وحشية زائدة.

في فرنسا

ثم اندلعت ثورة الأفتان في فرنسا سنة 1358م بزعامة وليم كال ولقبه «جاك بون أوم» (Jacques Bonhomme) أي جاك «الابله». وقيل: إن جماعة منهم قامت بقتل أحد السادة وقاموا بشواء لحمه على النار على مشهد من زوجته وأولاده، ثم أمروا الزوجة أن تشاركهم في تناول هذا الشواء الأدمى لزوجها. وقد قام الجيش الفرنسي بمذابح رهيبة ضد هؤلاء الأفتان وتم قمع الثورة في وحشية بالغة.

في إنجلترا

كذلك قام الأفتان في إنجلترا سنة 1381م بثورة عارمة ضد السادة الإقطاعيين، وكانوا تحت زعامة والتر تيلور والمصلح الديني جون بول، الذي راح يشهر برجال الدين وفساد ضمائرهم وثورتهم المتفشخة. ولكن الجيوش الملكية قبضت على جون بول وتم شنقه في 15 يوليو 1381م، ثم قضى أيضا على والتر تيلور وأتباعه بأمر من الملك ريتشارد الثاني.

ولكن إذا كانت القوى الإقطاعية وعلى رأسها الملوك الإقطاعيون قد نجحوا في خداع الأفتان وإجهاض ثورتهم، إلا أن هذه الانتفاضات في كل من فلاندرز وفرنسا وإنجلترا في القرن الرابع عشر كانت علامات كبرى على الطريق إلى الانتهاء من حجم عصور الظلام في أوروبا!

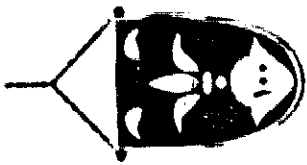


This book is an attempt to understand the spirit of the Medieval Europe through its main sources, particularly documents, literature, and folklore. The prologue of this book concentrates on the deterioration of the Roman Empire, which came from inside and led to its fall. Then the author presents a brief study to the Germanic and Mongolian tribe's invasion's of the provinces, thus deteriorating the Empire.

During this stage of darkness and declining, a German personality appeared to put an end to such state, This personality was the Great Charlemagne. After the end of the era of "the Carolingian Renaissance", the feudal system spread all over Frankish Europe.

The author highlights the conditions of the Medieval society, which constituted of Castles, Lords and Serfs, and tries to illustrate their every day life, whether in the Royal Courts or in the Castles of the Lords, beside the economic and social status of the Serfs and the ordinary people of this Medieval Society.

Dr. Ishak Ebeid



الصفحة

الموضوع	٢
الفصل الأول: روما تنمى من بناها:	١٩
يوسى ويصر - مارك أنطوني وكليوباترا - أوكتافيان أغسطس - آداب العصر - المجالدون - الأحوال الاقتصادية للإمبراطورية الرومانية - العيد - الأحوال الدينية.	٢٢-٢٣
الفصل الثاني: الغزوات التبرية:	٢٣
القوط - معركة أدريانوبل (٣٧٨م) - ثيودوسيوس الكبير - الآرك زعيم القوط الغربيين - مستليكون - سقوط روما (٤١٠م) - أتيللا والهون - جتزريك والوندال - القديس أغسطينوس يحضّر - سقوط قرطاج (٤٣٩م) - البابا ليون والهون.	٤٤-٤٤
الفصل الثالث: شارلمان والنهضة الكارولنجية:	٤٥
الميروقنجيون - كلوفس - حاجب البلاط - الملوك العاطلون - كارل مارتل - بين القصر - الفرجة والسومبارد - هبة قسطنطين المزيفة - البابا ليون الثالث وترويج شارلمان إمبراطورا رومانيا (٨٠٠م) - النهضة الكارولنجية وأعلامها.	٦٩-٤٦
الفصل الرابع: الفرسان والأقنان في مجتمع الإقطاع:	٧٠
تصدع بنيان شارلمان - الكونكات والأوراق والبارونات - بلاط الملوك الإقطاعيين - العقد الإقطاعي - فارس العصور الوسطى وقلعته - السيد والفصل - شعراء الطروبادور - عالم الأقنان.	٩٨-٧٠
مراجع الكتاب	٩٩
المحتويات	١٠٠



ومن ناحية أخرى فإن هذا التباين جعل لكل عصر طابعه المميز، فالمعصور القديمة لها طابعها الذي يرتبط بالمجزرات والأتان، والمعصور الوسطى اشتهت بتغلب المسحة الدينية وتحكمها في مسيرة الحكام والمحكومين، والمعصور الحديثة جنحت نحو التحرر من سيادة الدين ورجال الدين.

ولعله من الواضح أن المعصور الوسطى استمدت اسمها من موقعها بين المعصور القديمة والحديثة، وحسبها أنها تمثل حلقة رئيسية في التاريخ، وإذا كان لكل عصر من عصور التاريخ طابعه المميز ولونه الذي يضيئ عليه يكسبه شخصيته وكيانه، فإن المعصور الوسطى تمتاز بالطابع الديني الذي يبدو متسلطا على كل أركان الحياة، ويكفي أن هذه العصور شهدت انتشار المسيحية حتى صارت للكلمة الأولى في تحديد مسار البلاد والعباد، واستمر الحال على ذلك منذ الاعتراف بالمسيحية في أوائل القرن الرابع حتى ظهور الإسلام في القرن السابع، وعندئذ اتسعت دائرة الإسلام على حساب المسيحية والوثنية وبخاصة في منطقة الشرقين الأوسط والأدنى حيث غدا للإسلام وأهله الكلمة الأولى في توجيه سلوك البلاد والعباد في شطر كبير من العالم، ولم يكن هناك مغر من حدوث صدام بين أتباع هاتين الديانتين: الإسلام والمسيحية وبدأ ذلك الصدام يتخذ شكلا عنيفا في أواخر القرن الحادى عشر للميلاد، وأطلق عليه اسم الحروب الصليبية، وهي حروب طويلة دارت بين الغرب



الإمبراطور شارلمان

مراكز الحضارة والعرفة

تدور هذه الدراسة حول ثلاثة محاور هي: التاريخ، وأوروبا، ثم المقصود بالمعصور الوسطى. وعلى هذه الأسس الثلاثة يمكن فهم الأوضاع الحضارية التي خيمت على الغرب الأوروبى في حقبة زمنية لها وضعها الخاص على مسرح التاريخ.

أما التاريخ فيقصد به في هذا المرض مسيرة الإنسان وأوضاعه إما على مر العصور، أو في حقبة معينة مما اصطلح على تسميته وتعريفه بمعصور التاريخ، ويرتبط هذا البحث بالحقبة التاريخية التي تعرف باسم المعصور الوسطى؛ وذلك أن طبيعة التاريخ تطلبت أن يقسم إلى ثلاثة أقسام أو عصور: قديمة، ووسطى، وحديثة، ولكل عصر طابعه وخصائصه وإطاره الزمني، مما يترك بصماته واضحة في تحديد معالم كل عصر وإكساب الناس فيه طابعا يجعلهم ينظرون إلى الحياة نظرة تختلف عن نظرة أهالي المعصور الأخرى - السابقة عليها واللاحقة بها.

وبعبارة أخرى، فإن لكل عصر من عصور التاريخ طابعه الخاص المميز الذي يضيئ عليه صورة حضارية تختلف في كيانها عما ساد المعصور الأخرى.

ولا يعنى ذلك وجود تقسيم بين عصور التاريخ بعضها وبعض، وإنما هي مظهر للتباين في الخصائص داخل إطار كبير يجمع بين ملامح العصور التاريخية.

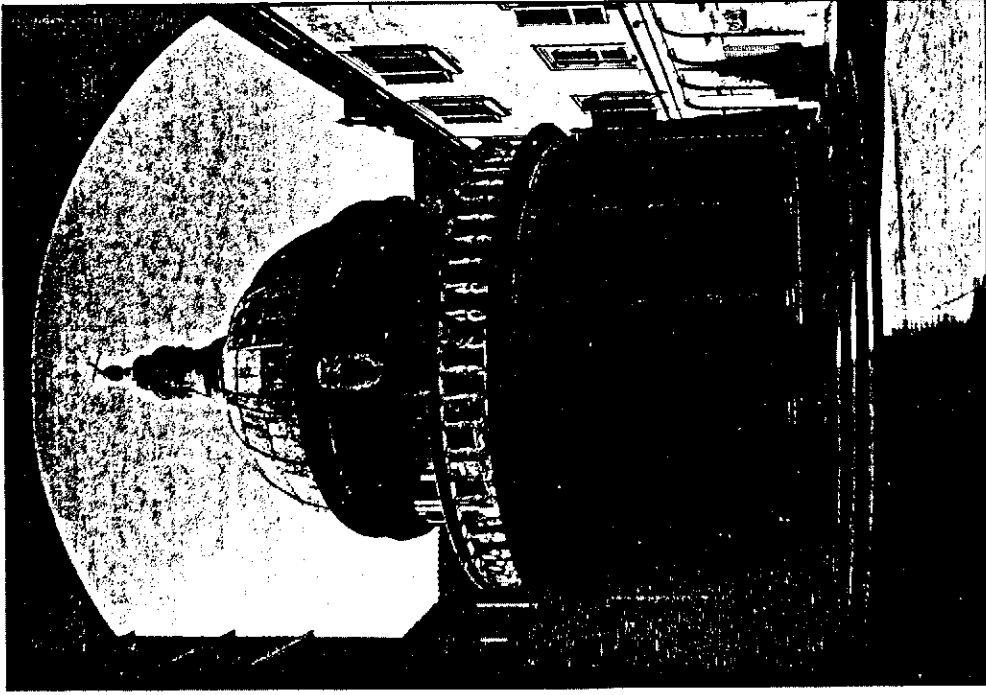


مناجى من رجال الدين فى المعصور الوسطى



على أسس إقطاعية
راسخة - شأنها في ذلك
شأن الأباطرة والملوك في
غرب أوروبا، وجاء
سقوط الإمبراطورية
الغربية في القرن الخامس
ليجمل من البابوية القوة
الوحدية والزعامة العليا
التي يمكنها حماية التراث
الروماني وسط موجات
التفكك والانحيار التي
عمت الغرب الأوروبي

منذ أواخر القرن الخامس
فصاعدا. وفي وسط هذه
الأجواء برزت المكائنة العليا
على السلطة السياسية في غرب
أوروبا ممثلة في الأباطرة والملوك لم تخضع في سهولة للسلطة الدينية وعلى رأسها البابا، مما أدى
إلى تناطح بين السلطين: أيهما يسبق الآخر وأيهما يقدم الآخر في زعامة العالم الغربي، البابا أم
الإمبراطور وانتهى الأمر بصراع طويل بين البابوية والإمبراطورية استمر عدة أجيال، إلى ما بعد
القرن الثامن عشر للميلاد، وطوال هذه القرون بين القرنين الخامس والثالث عشر للميلاد، كانت
الكنيسة في غرب أوروبا هيئة دينية سياسية، يتربع على رأسها البابا بوصفه نائب المسيح، ويتعامل



كاتدرائية القديس بطرس

رأس الكنائس الكاثوليكية في العصور الوسطى

لبابا روما شملت الكيان السياسي فضلا عن الكيان الديني، على أن السلطة السياسية في غرب
أوروبا ممثلة في الأباطرة والملوك لم تخضع في سهولة للسلطة الدينية وعلى رأسها البابا، مما أدى
إلى تناطح بين السلطين: أيهما يسبق الآخر وأيهما يقدم الآخر في زعامة العالم الغربي، البابا أم
الإمبراطور وانتهى الأمر بصراع طويل بين البابوية والإمبراطورية استمر عدة أجيال، إلى ما بعد
القرن الثامن عشر للميلاد، وطوال هذه القرون بين القرنين الخامس والثالث عشر للميلاد، كانت
الكنيسة في غرب أوروبا هيئة دينية سياسية، يتربع على رأسها البابا بوصفه نائب المسيح، ويتعامل

ترجمتها إلى اللاتينية وهي اللغة الرسمية ولغة العلم وأهله في غرب أوروبا في
تلك العصور، وهكذا بدأت حقبة حضارية شاملة في العالم المسيحي الأوروبي
- وبخاصة مغربه - في الوقت الذي بدأت بوادر الإنهاك تظهر في العالم
الإسلامي.

ذلك أن الغرب الأوروبي في العصور الوسطى شهد عدة صحوات
حضارية - اكتسبت في التاريخ لقب: نهضات تخللتها حالات ركود وجمود، قد
يطول مدداها، مما جعل كثيرا من المؤرخين يطلقون على تلك العصور في الغرب
الأوروبي اسم «العصور المظلمة» وفي وسط هذا المحيط المظلم كان ثمة شعاع
مضي، ينبعث بين حين وآخر ليغير عن نهضة حضارية، وأهم هذه النهضات كانت النهضة
الكارولنجية نسبة إلى البيت الكارولنجي الذي يتسبب إليه شارلمان، وكانت هذه النهضة في القرن
السابع وأوائل القرن الثامن للميلاد، والنهضة الأوروبية في القرن الثاني عشر ومنها انبعثت النهضة
الأوروبية الحديثة.



وما دامت العصور الوسطى بالنسبة للغرب الأوروبي تمثل عصور الإيمان، فلا بد وأن يكون
للنهضات والمؤسسات الدينية مكان كبير في البنية الحضارية لتلك العصور، هكذا فإن أول ما
يسترعى نظر الباحث في تاريخي الغرب الأوروبي - الحضاري وغير الحضاري - في تلك الحقبة
الزمنية هو ذلك التفرد الواسع والدور الرئيسي الضخم الذي نهضت به البابوية ورجال الدين من
جهة، وبالتالي المؤسسات الدينية من كاتدرائيات وأديرة، ونحوها من جهة أخرى، والواقع أن
الكنيسة الغربية وجدت أن خير وسيلة لجمع شملها وتحقيق هيبتها هي أن توحد نشاطها تحت لواء
البابوية، وهكذا عدا البابا رأس الكنيسة الكاثوليكية، الساهر على حماية قوانينها ونظمها، إنه في
نظر الكاثوليك نائب المسيح وخليفة القديس بطرس رعيم الخواصين ومقدم الرسل الذي اتخذ منه
المسيح صخرة بنى عليها كنيسه، لم يكن البابا مجرد صاحب وظيفة وإنما كان يمثل القوة الموجهة
للعالم المسيحي الكاثوليكي الغربي، ومن هذا المنطلق أخذت البابوية تنشر نفوذها وتسط سيادتها





بلاط الملوك والأمراء

وبعد المؤسسات الدينية، يحتل بلاط الملوك والأمراء المكانة الثانية في سلم مراكز الحضارة والمعرفة في غرب أوروبا في المصور الوسطى. ذلك أن بلاط الحاكم كان لا يستكمل مكانته إلا إذا توافر فيه بعض رجال العلم والثقافة، مما يضمن على الحاكم هالة من الاحترام بوصفه من أهل المعرفة، وقد وصف نظامي عروضي أحد شعراء سمرقند في القرن الثاني عشر للميلاد - بلاط الحاكم، فقال أن بلاط الملك أو الأمير يتطلب وجود أربعة عناصر فيه حتى يستكمل بنيانه وعظمته، وهذه العناصر الأربعة حددها نظامي عروضي برجال الإدارة والسياسة الذين ينهضون بمساعدة الحاكم في تصريف شؤون الحكم، والشعراء الذين يسهرون على الدعابة للحاكم ويمجدون أعماله، والفلكيون الذين يحددون للأوقات الملائمة للقيام بعشاريمه الكبرى والخطيرة، وأخيرا الأطباء الذين يسهرون على صحة الحاكم ويرعون سلامته.

والواقع إن هذه المحكمة لم يقتصر الأخذ بها على حكام الشرق وحدهم، بل غدت من لزوميات الحكام جميعا - في الشرق والغرب - في العصور الوسطى. هكذا غدا مقر البلاط يمثل مركزا ثقافيا، يجتمع فيه صفوة العلماء والأطباء وأعلام الشعراء، وخبراء السياسة. ويبدو أن إحساس ملوك الجرمان في غرب أوروبا في المصور الوسطى بأنهم ورثة روما وخلفاؤها في تراثها، جعلهم يعملون على تبنى التراث الحضاري والثقافي وتشجيعه بالإضافة إلى نشر المسيحية في البلاد الوثنية المجاورة لهم، هذا بالإضافة إلى الاهتمام بالتجارة والعناية بالطرق وتأمينها، وتنظيم الأسواق... مما عاد بالخير على النشاط التجاري بوجه خاص والحضاري بوجه عام.

الواقع إن رعاية الملوك والأمراء للحياة الثقافية غدت أمرا له أهميته في عصر لم يعرف الطباعة وسادت فيه عملية النسخ، وهناك أمثلة عديدة لملوك أوروبيين في المصور الوسطى عرفوا

وتعلموا. وهناك شبه إجماع على أن الفضل يرجع إلى المدارس الدينية في الاحتفاظ في المصور الظلمة بمسحة من النشاط العلمي في غرب أوروبا، حقيقة أن الهدف الأساسي من هذا النشاط كان إعداد رجال الدين لباشرة مهامهم - وبخاصة في الوعظ والإرشاد ونشر المسيحية، ولكن هذا الهدف كان لا يمكن أن يتحقق دون أن يكون رجل الدين مزودا بقسط من الثقافة اللاتينية، حيث إن اللاتينية كانت اللغة المستخدمة في الكنيسة الغربية، هذا إلى جانب مباشرة مهام الوعظ والتبشير كان يتطلب من رجل الدين المعرفة بمبادئ المنطق وأساليب الجدل.

وإذا كان النشاط الثقافي لأديرة قد أخذ يضعف في القرن الثاني عشر، فإن هذه الحقيقة من حطب التاريخ شهدت نشاط الكاتدرائيات بعد أن مرت - منذ القرن التاسع - لحركة إصلاح شاملة، ذلك أن الكاتدرائيات كانت تقوم دائما في قلب مدينة هامة، تحيط بها مظاهر المدنية والعمران - لا في منطقة منقرنة نائية على سفوح الجبال وسط الأحرار، مثلما كان الحال في معظم الأديرة وساعد ذلك على تحول الكاتدرائيات إلى مراكز ثقافية، وغنية بالكليات والمدارس والسجلات والموظفين الذين يستعين الأسقف بهم في الإشراف على شتى ألوان النشاط الحضاري.

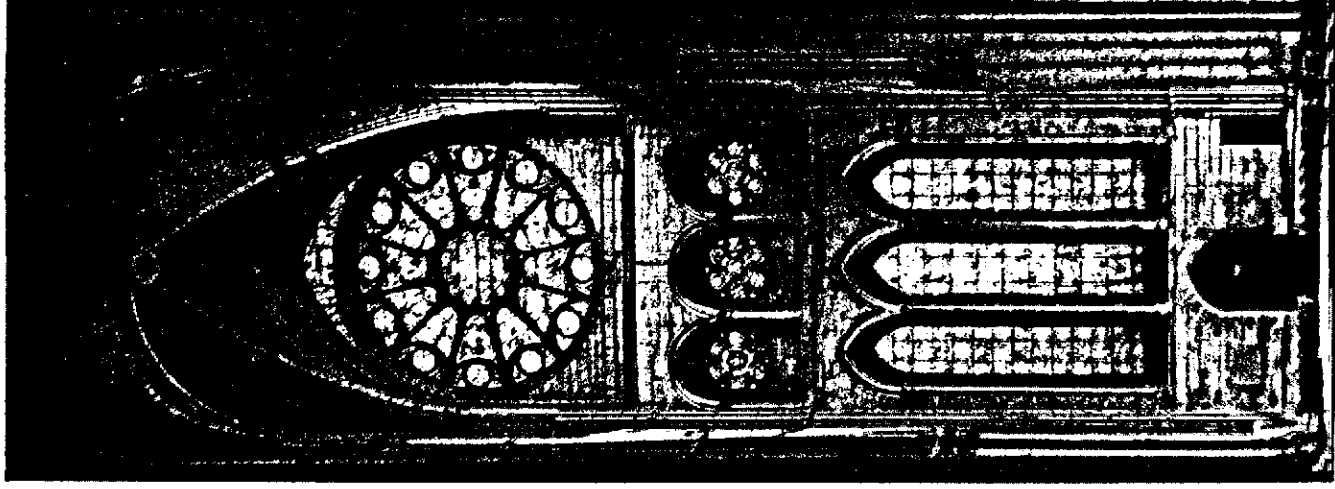
وكلمات أهم الكاتدرائيات نشاطا في الميدان الثقافي في غرب أوروبا في القرن الثاني عشر هي تلك الواقعة في شمال فرنسا - شارترز، وأوليان ورييس ولاون وبابريس، هذا عمدا كاتدرائية كانتربروري في إنجلترا، وطليلة في إسبانيا وغير ذلك كثير.



خريطة الإدرسي التي رسمها في بلاط اورجيز الثاني.



عنده جامعة نابولي سنة ١٢٢٤، وترجع إليها العلماء والتخصصون في العديد من ألوان المعرفة، ولم يكف فردريك الثاني بتنظيم كلية الطب في سالرنو، وإنما أضاف على جامعة نابولي كاتبة ألوان التشجيع واسمعى إليها أساتذة متخصصين في شتى العلوم والفنون - وأضفى عليها الكثير من الامتيازات وقدم لها المساعدات المادية والمعنوية، وهكذا غدا بلاط فردريك الثاني مركزا لحركة علمية واسعة، واجتمع فيه عدد كبير من العلماء الفرنسيين والبيزنطيين (الروم)، فضلا عن اليهود الذين اشتغلوا بترجمة بعض الكتب العربية وبخاصة في علم الفلسفة.



كنيسة رومس من الداخل - النوافذ المزجج المشق

بجانبهم للعلم والثقافة حتى جعلوا من بلاطهم مراكز ثقافية ممتازة؛ ومن أبرز الملوك في مجال دعم النشاط الحضارى في العصور الوسطى كان هنرى الثاني ملك إنجلترا (١١٥٤ - ١١٨٩) الذى امتدت دولته من أسكتلندا شمالا حتى جبال البرانس جنوبا، وأظهر شغفا كبيرا بالعلم والعلماء، وحرص على أن يلم بعدديد من اللغات، وقد أدى حبه للتاريخ إلى وفرة المؤرخين في بلاطه، كما اهتم بالقانون والدراسات القانونية، وأجرى العطاء للعلم والعلماء.

أما بلاط ملوك صقلية - من القرن الحادى عشر فصاعدا فكان الغالب عليه الطابع الشرقى، البيزنطى والعربى، واكتظ هذا البلاط بالفلكيين والشعراء والأطباء، وغيرهم من العلماء الذين ترحح أصولهم ولغاتهم إلى جذور متباينة. وقد اهتم ملوك صقلية في تلك الحقبة بتشجيع العلم والعلماء وإغرائهم على الوفود على بلاطهم الذى غدا قبة الأدياء والشعراء والباحثين، ويحكى عن روجر الثانى ملك صقلية أنه استدعى العالم العربى الإدريسى إلى بلاطه، حيث طلب منه عمل نموذج مجسم كبير للكرة الأرضية، وهكذا حتى كان عهد الإمبراطور فردريك الثانى (١١٩٨ - ١٢٥٠) الذى قسامت في



رسم للملك هنرى الثانى (١٠٠٧: ١٠٠٢م)



العوامل التي ساعدت على قيام الحكومات المركزية بدور مساعد على تخظيم النظام الإقطاعي، وهو النظام الذي مزق أوصال أوروبا على مدى بضعة قرون، والذي أخذ ينهار ليحل محله نظام الدولة المركزية، هذا إلى أن عماد المدن كان الطبقة البورجوازية التي تألفت من التجار والصناع ونحومهم، وهم الذين أدى ازدياد نفوذهم إلى حدود ثورة اجتماعية واقتصادية خطيرة في غرب أوروبا؛ لأنها غيرت وجه الحياة في أوروبا، وجعلته يتجه إلى التجارة والصناعة بدلا من الزراعة والحروب المحلية. وقد أدى هذا الاتجاه الجديد إلى تغيير نظرة الناس إلى الحياة، وازدحمة أركان العالم القديم وتقاليد، ذلك أن الناس أخذوا يخرجون من دائرة المألوف، ويحكمون عقولهم في كل جديد، دون أن يخضعوا لآراء الكهنة التي ظلت طوال الشطر الأول من العصور الوسطى تتحكم في فكر الناس وتوجيهه وفقا لمصالحها.

وكان تأثير المدن في الجوانب الحضارية أوضح ما يكون في الركن الثقافي، فإذا كانت الدعامة الأساسية لازدهار المدن في غرب أوروبا منذ القرن الثاني عشر هو نشاطها التجاري فإن هذا النشاط لا يند إلا ويستند على ركيزة ثقافية تبدأ بالإلزام بالقراءة والكتابة ومبادئ الحساب والرياضيات؛ لذلك لم تخل مدينة في غرب أوروبا منذ القرن الثاني عشر من وجود مدرسة داخل جدرانها، هذا إلى أن تلك المدن حرصت على أن يكون لكل منها أرشيفها وسجلاتها، مما أدى تدريجيا إلى انتقال مراكز التعليم من المدارس الكنسية والديوية إلى مدارس المدن، وكانت هذه

الظاهرة أكثر وضوحا في جنوب أوروبا وبخاصة إيطاليا ولا يخفى علينا أن غالبية المدن الإيطالية كانت لها علاقات تجارية وثيقة مع بلاد المشرق، وعلى سبيل المثال فإن البيدقيّة وبيزة كان لكل منهما حي تجاري في القسطنطينية وأدى هذا إلى تردد البعثوث والتجار الإيطاليين على المدن التجارية في المشرق، وفي هذه الأجواء نسمع عن جيس البيدقي في القسطنطينية سنة 1136م، وهو الذي ترجم المنطق الجديد لأرسطو، كما نسمع عن بروجنديو البيزري الذي قضى حياته مستقلا بين المشرق والغرب، وترجم كثيرا من الكتب في اللاهوت والطب من اليونانية إلى اللاتينية.



أرسطو



المدن

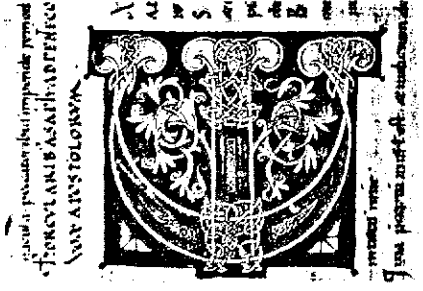
المعروف عن المدن - في كل زمان ومكان - أنها تتمتع بمسرى حضارى يفوق غيرها من المراكز السكانية، نظرا لما يتاح لها من مزايا عمرانية وسكانية تجعلها مقصد ومقر نسبة كبيرة من العاملين والمثقفين. وهكذا يكون دور المدينة في بناء الحضارة دورا واضحا فعلا في كثير من أوجه الزمان والمكان.

وفيما يتعلق بدور المدن في بناء حضارة غرب أوروبا في العصور الوسطى، نجد هذا الدور تأثر سلبيا بققوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب ثم بما ساد الغرب الأوروبى من جمود في الفترة التالية التي أطلق عليها اسم العصور المظلمة. ولم يكن ذلك إلا في القرن الحادى عشر عندما أفاق الغرب الأوروبى من جموده، وعندئذ ظهرت المدن مرة أخرى على مسرح الحضارة الأوروبية وذلك بفضل عوامل مساعدة؛ اقتصادية وفكرية واجتماعية وسياسية.

ولما كان من الشغفر على المدن أن تمارس نشاطها الحضارى في ظل قيود النظام الإقطاعى الذى ورثته عن الفترة المظلمة، فإنها أخذت تتحرر من سيطرة الأمراء الإقطاعيين لتصل إلى كل ما تصبو إليه من حرية ونفوذ تحت مظلة ما عرف باسم «وطنية المدينة» (Patriotisme Manicipal) وازدادت هذه الظاهرة وضوحا في ألمانيا وإيطاليا، حيث لم توجد قوة سياسية مركزية فعالة تقف في مواجهة المدن الناشئة. هكذا وجد أمراء الإقطاع أنفسهم أمام قوة جديدة عمادها طبقة متوسطة نشطة، اتخذت من النشاط الصناعى والتجارى دعامة لها، مما هيا لأفرادها من الموارد المالية ما حقق لهم النمو المستمر، والتحرر من سيطرة الأمراء الإقطاعيين، وقد أطلق على تلك المدن التى استطاعت أن تحقق لنفسها كيانا سياسيا واقتصاديا مستقلا اسم «القومونات» (Communes)، وصار لكل منها قوانينها ونظمها ودستورها الخاص بها، والذي كان فى معظم الحالات مقتبسا من دستور مدينة أخرى مجاورة أو غير مجاورة.

وقد نجح عن النشاط التجارى لهذه المدن قيام تجارها برحلات عديدة، الأمر الذى حقق قدرا من الانفتاح الحضارى على العلم الخارجى الذى أسهم فى تقدمها.

والواقع أن هذا التقدم الذى حققته المدن الأوروبية فى الشطر الأخير من العصور الوسطى كان له أكبر الأثر فى التطور الحضارى فى غرب أوروبا، ذلك أن نشأة القومونات كانت من أقوى



صفحة من كتاب تاريخ القديس جريجوري الكبير، ق ١٢ م

الأدباء الذين حملوا لواء الأدب اللاتيني، مثل إيسيدور الإشبيلي (٥٧٠-٦٤٦) وجولييان الطليطلي (٦٩٠) الذي كتب الكثير في التاريخ والنحو واللاهوت وواكب ازدهار الأدب اللاتيني في إسبانيا صحوته في غالبا حيث ظهر فورتانوس جريجوري الثوري الذي يعتبر أول مؤرخ لتاريخ فرنسا في العصور الوسطى.

ولم يلبث أن اعتزى الدراسات اللاتينية فنور في غرب أوروبا وذلك في أواخر القرن السابع وفي القرن الثامن، وذلك في الوقت الذي ظهرت أيرلسدا لتفوق على من سبقها في تلك الدراسات، وجاءت هذه الحركة التي تزعمتها الكنيسة الأيرلندية بمثابة شعلة امتد ضوءها حتى القرن التاسع عندما حمل لواءها يوحنا سكوتس Joannes Scottus (٨٣٣-٨٨٠) أبرز أساتذة القرن التاسع وأول فيلسوف مدرسي.

وكان أن امتد بريق النهضة الأيرلندية إلى البلاد المجاورة. وساعد على ذلك حب الأيرلنديين للهجرة بسبب فقرهم، وحرص رجال الدين على القيام برحلات تحت مظلة نشر الدين والعلم، وقد أسس الأيرلنديون أديرة عديدة في صلب القارة غدت مراكز إشعاع حضارية، وظهرت ثمار هذا النشاط بوجه خاص في إنجلترا، حيث تضافرت جهود البعثات العلمية والأديبة، حتى بلغت هذه الحركة ذروتها في القرن الثامن على عصر بدي Bede (٦٧٥-٧٣٥) وهو العالم وعلايب والمؤرخ الخالد الذكر، وبعد وفاته بقليل ولد الكوين Alcuin الذي يعتبر حلقة الوصل بين النشاط الفكري في بريطانيا وغالبا، حتى أن شارلمان استعان به في نهضته العظيمة.



المصور الوسطى، حتى بلغ عددها في نهاية تلك المصور نحو ثمانين جامعة على وجه التقريب.
وقد اشتهرت كل جامعة بفرع من فروع الدراسات العليا؛ فإذا كانت جامعة باريس قد اشتهرت باللاهوت والفلسفة، فإن جامعة بولونيا اشتهرت بالطب، ومنها كانت جامعة سالرنو.
وقامت مكانة الجامعة على أساس شهرة الأساذ التي كانت تمثل القوة التي تجذب الطلاب إلى الجامعة.

ولا شك في أن الجامعات حافظت على قدر كبير من تراث العصور الوسطى، هذا إلى أنها غدت ذات أثر في توجيه السياسة المحلية والسياسة الدولية بحكم علاقتها بالكنيسة والدولة، هذا إلى أن الجامعات الأوروبية صار لها دور هام في توجيه الرأي العام في عصر قُلت الوسائل الموجهة للرأي العام. يضاف إلى ذلك أن الجامعات احتضنت عددا من العلوم والمعارف مثل القانون واللاهوت والمعارف والفلسفة - كان لها أثر عميق في الحياة العامة.

ومن المعروف أن معظم الكتب والدراسات الوثنية القديمة كانت وثنية الطابع، ومن ثم اتصفت بالإقبال على الدنيا ومتاعها، مما جعل الناقض بينها وبين تعاليم المسيحية واضحا، وقد انقسم رجال الكنيسة الغربية حول المدى الذي يسمح به في دراسة تراث العصر الوثني، فهناك فريق من التزمين رأى أن تضييق دائرة التراث الوثني إلى الحد الذي لا يتعدى الإلام بقواعد اللغة اللاتينية، واعتبر هؤلاء أي توسع في دراسة تراث الوثنية مفسدة للنفس ومجلبة لتدنيس الروح، ويبدو هذا الاتجاه فيما قرره مجمع قرطاجنة الكنسي سنة ٣٩٨م، من تحريم قراءة الكتب غير المسيحية، كذلك نادى بعض زعماء الكنيسة في القرن العاشر بأن «أنتاغ القديس بطرس ومريديه لا يصح لهم أن يقتنوا بالشاعر الروماني ترنس Terence (١٩٥ ق م).

بل إن البابا جريجوري الأول أو العظيم (٥٩٠-٦٠٤م) عارض فكرة التزود بقسط صغير من الدراسات اللغوية، إذا كانت هذه المعرفة مرتبطة بكتب الوثنيين.

ومع ذلك فقد ظل التراث اللاتيني يمثل قوة كبيرة فعالة في الدراسات الأدبية طوال العصور الوسطى، فبعد سقوط الإمبراطورية الرومانية في الغرب استمرت إيطاليا المركز الأول للدراسات اللاتينية في غرب أوروبا وظهر عدد من أقطاب الأدب اللاتيني أمثال بنوئيسوس وكاسيمور، ثم انتقل مركز الأدب اللاتيني بعد ذلك إلى شمال إفريقية ثم إسبانيا التي فر إليها كثير من رجال العلم والدين بدافع الخوف من حركة الفتح الإسلامي، واتجاه الغزاة الفاتحين من مصر إلى شمال إفريقية، وكان أن ظهر في إسبانيا في أواخر القرن السادس وفي القرن السابع بعض



النهضات الحضارية في غرب أوروبا في العصور الوسطى

من الواضح بعد هذا العرض السريع أن ركاب الحضارة لم يتوقف في غرب أوروبا في العصور الوسطى، بمعنى أن شعلة المصير لم يخب نورها عقب سقوط الإمبراطورية الغربية في أواخر القرن الخامس، وإنما ظل نورها يتلألأ من بلد إلى آخر، وفي صورة أو أخرى، حتى امتد بريقها على عصر شارلمان في غالبا، وذلك في أواخر القرن الثامن للميلاد.

النهضة الكارولنجية

أما عن شارلمان (أو شارل العظيم) فهو أحد ملوك دولة الفرنجة، شن طريقه في القرن الثامن، واستطاع عن طريق عقد تحالف مع البابوية إخضاع العديد من الشعوب والقبائل في غرب



شارلمان يقهر أعداءه - من كتاب تاريخ العسكرية



تصوير جداري للقبس هول - كاتدرائية كانبوري - إنجلترا سنة 1150



إمبراطورا سنة ٨١٤ وهي السنة التي توفي فيها، وقد شهدت هذه المرحلة الأخيرة تدهورا بطيئا تدريجيا في مسيرة النهضة الكارولنجية وبرز فيها من الأعلام ثيودلف وأنجلبرت وأجهارد.

وإذا كان علماء هذه النهضة قد نبغوا في عديد من العلوم، وبخاصة التاريخ واللغة والآداب فإنه من الملاحظ أن بعضهم كان يجهد اليونانية نظرا لقلّة الكتب اليونانية بين أيديهم، وقد أظهر بعضهم حرصا على تعلم اليونانية، ولكنهم في غرب أوروبا كانوا لا يجدون الكتب اليونانية التي تشدهم لدراستها، وهكذا كان تعلم اليونانية يتطلب عندئذ جهدا كبيرا دون فائدة تذكر.

وبين علماء النهضة الكارولنجية، يمثل الكورين Alcuin (٧٣٥-٨٠٤) مكان الرعاية بوصفه المرأة الكبيرة لتلك النهضة. ولم يكن الكورين هذا إيطاليا، أو غاليا من أبناء غاليا، وإنما كان إنجليزيا من مواليد يورك، ولد سنة ٧٣٥ في القرية التي شهدت امتداد الصحوة الفكرية من أيرلندا إلى إنجلترا، وكان أن درس بمدرسة دير يورك، وأظهر اهتماما بالتحصيل في علم الفلك والرياضيات فضلا عن علوم النحو والبلاغة والشريع، ومن المرجح أن الكورين قام في تلك الأثناء برحلتين أو ثلاث إلى القارة، وأنه التقى شارلمان في بارما سنة ٧٨٢، وعندئذ ألح عليه شارلمان في مصاحبته إلى غاليا، ولى الكورين الدعوة ولم يلبث أن احتل الكورين منذ ٧٨٣ مكانا بارزا في بلاط شارلمان، حتى صار أقرب مستشاريه إليه، بالإضافة إلى قيامه بالإشراف على شؤون الثقافة والتعليم في المملكة، وذلك حتى وفاته عام ٨٠٤.

وترجع شهرة الكورين الحقيقية إلى شخصيته الجذابة وقوة تأثيره على سيده شارلمان وجهوده في خدمة الحضارة عن طريق نشر الثقافة وتشجيع التعليم، ويذكر التاريخ للكورين قيامه بخدمة العلم والتعليم وحماسه لتحقيق المخطوطات وعنايته بإصلاح المدارس.

وكانت الكنيسة في تلك المصوّر تقف موقفا سلبيا من الانحرافات والخرافات الاجتماعية بسبب جهل رجال الدين من القساوسة والرهبان، مما أدى لشارلمان ومعاونيه الكورين إلى العمل بدماء بنشر الوعي بين رجال الدين. وإلى ذلك العصر يرجع تاريخ نشأة معظم المدارس الديرية الكبرى، مثل فولدا وفونتيل وفريبر، وغيرها من المدارس التي أحرزت شهرة واسعة فيما بعد، والتي تخرّج فيها ونسب إليها كثير من المفكرين في القرن التاسع. هنا فضلا عن جهود الكورين في العناية بالكتب، مما أدى إلى انتعاش مكتبات الأديرة، حتى قيل أن القرية المظلمة في تاريخ غرب أوروبا بين سنتي ٨٥٠، ١٠٠٠ تمثل العصر الذهبي لانتعاش المكتبات الديرية.



أوروبا، يأتي على رأسها البيازيين من ناحية والمباردين في شمال إيطاليا من ناحية أخرى. وما زال شارلمان يواصل سياسته النشطة داخل الدولة وخارجها حتى حقق لنفسه مكانة راسخة وشهرة واسعة، أثارت إعجاب معاصريه، فنادوا به إمبراطورا، وتم تنويجه بيد البابا فعلا سنة ٨٠٠م.

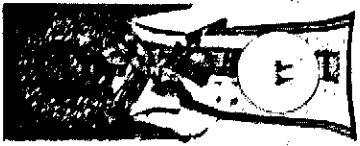
والامر الذي يشير الدهشة هو أن شارلمان على الرغم من ضعف مستواه الثقافي، فإنه استطاع أن يتزعم نهضة حضارية متعددة الجوانب الثقافية والاقتصادية والفنية. وقد اتخذت هذه النهضة من فرنسا مركزا لها، وامتدت منها إلى ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا وغيرها من بلاد الغرب الأوروبي، وأطلق على هذه الصحوة اسم (النهضة الكارولنجية)، نسبة إلى البيت الذي ينتمي إليه شارلمان.

والواقع أن الناس في المصوّر الوسطى - وبخاصة في غرب أوروبا - نظروا نحو الماضي وظلوا يتطلعون إلى أيام عظمة روما ومجدها، وقد ساد الاعتقاد أن سقوط الإمبراطورية الرومانية سنة ٤٧ في أنه لا يبقى سوى حادث مؤقت؛ لأن العالم لا يمكن أن يعيش بلا إمبراطورية وأن الأمل كبير في إحياء الإمبراطورية ليعود للعالم وجهه المشرق السراق، وفي انتظار الزعيم الذي يمكن أن تحقق على يديه هذه الأمنية، ثم تعاقبت القرون حتى ظهر على المسرح شارل العظيم - أو شارلمان - زعيم الفرنجة الذي قادهم من نصر إلى آخر، وبس في الكنيسة روحا جديدة وأبنت لمعاصريه أنه المنفذ المتطر.

ومع أن شارلمان لم يكن عالما في مجال الفكر والثقافة، إلا أنه استطاع أن يتزعم نهضة فكرية واسعة النطاق، عاجلت العديد من جوانب الثقافة والحضارة، حتى غدا بلاطه مجسما للعلماء المعاصرين الذين نعموا بما قدمه لهم من تأييد وتشجيع وعون، وبذلك أرسى قواعد نهضة فريدة كانت في غرب أوروبا في القرن الثامن أشبه بالشهقة الضيئة وسط بحر الظلمات، ومن العوامل التي أضفت على هذه النهضة - نهضة شارلمان أو النهضة الكارولنجية - قدرا من الأهمية، أن شارلمان كان يستعين بمختلف الكنائيات ويستوردها من شتى الأنحاء والبلاد، وكان كثير من هؤلاء العلماء وأقدين من أيرلندا وإنجلترا، حتى قيل أن الأيرلنديين والسقسون كانوا التواة الحقيقية للنهضة الكارولنجية.

وهكذا ساعدت هذه العوامل على مولد نهضة علمية شاملة، مركزها بلاط شارلمان، وممرت بثلاث مراحل أساسية: المرحلة الأولى فيما بين سنتي ٧٧٣، ٧٨٦، وفيها برز الأبناء ورجال المعرفة من الإيطاليين وعلى رأسهم بطرس البيزي وبولينوس وبولس الشمس.

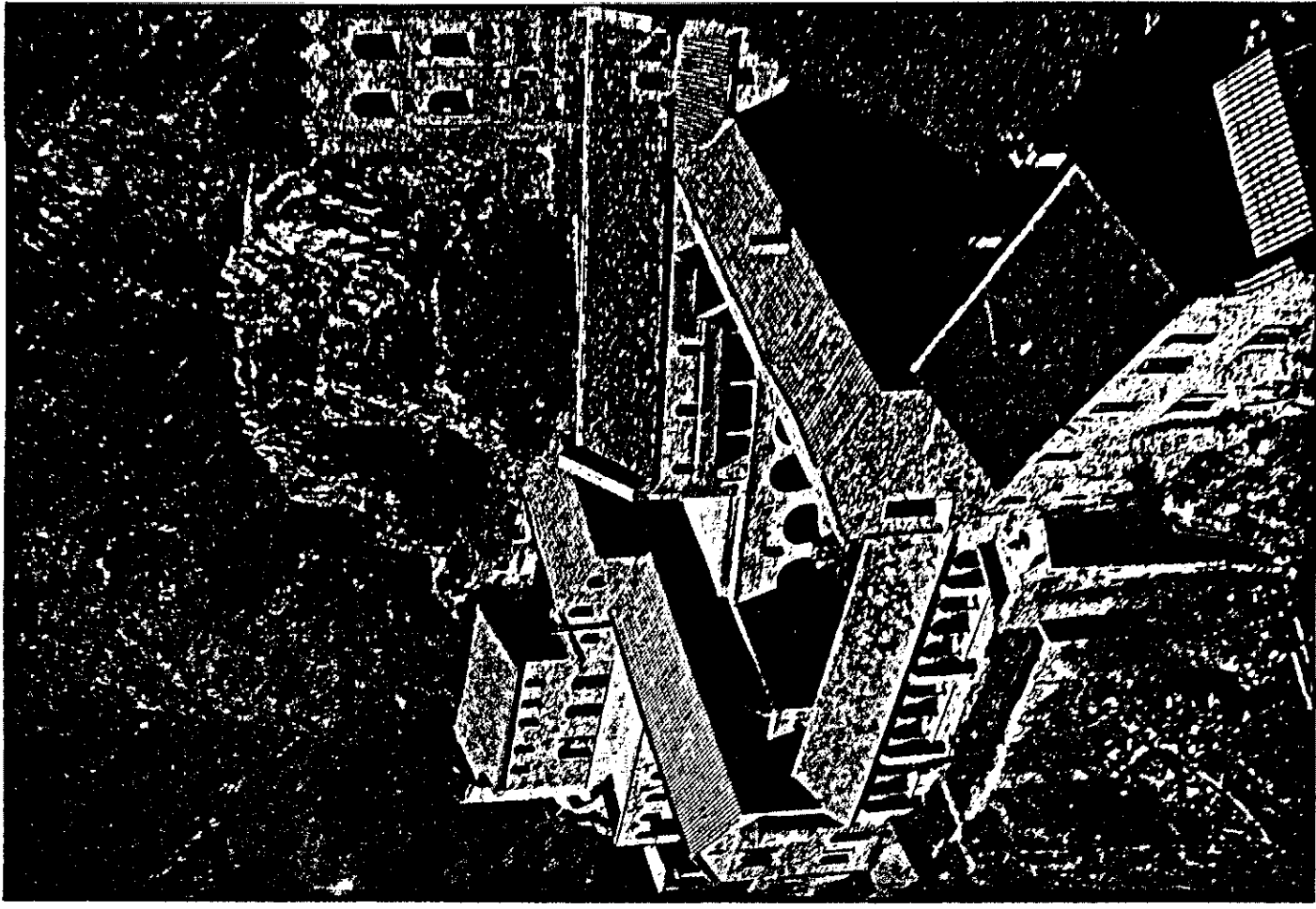
والمرحلة الثانية فيما بين ٧٨٦، ٨٠٠ ويمكن تسميتها عصر الكورين وفيها بلغت النهضة الكارولنجية الذروة، وأخيرا تأتي المرحلة الثالثة فيما بين سنتي ٨٠٠ وهي سنة تنويج شارلمان



صفحة من مخطوط اللاني سنة ٩٨٠ م

اما فيما يتعلق بجهود الكورين كمعلم، فإنه قضى الفترة الواقعة بين سنتي ٧٨٢ و ٧٩٦ مقبها في بلاط شارلان حيث تولي رئاسة مدرسة القصر وتنظيمها، وكانت هذه المدرسة قديمة يتدرب فيها أبناء الامراء والاسمر الكبيرة على كل ما يتعلق بشؤون الحكم وقواعد البروتوكول: ولكن هذه المدرسة ظلت حتى أيام الكورين مفتقرة إلى العلم الحقيقي. وهكذا حتى استطاع الكورين أن يجعل منها معهدا دراسيا له منهجه وأهدافه، وحسبنا أن نعرف أنه كان من تلاميذ الكورين في هذه المدرسة شارلان نفسه وأبناؤه الثلاثة، فضلا عن أخته وابنته وبعض مستشاريه ومعارنيه، أمثال إلهارد وإنجلبرت، فضلا عن بعض رؤساء الأساقفة.

وهنا ينبغي ان نذكر أن الدراسات الدينية في ذلك العصر ظلت المحور الأساسي الذي دارت حوله عجلة النشاط الفكري والتعليمي داخل مدرسة القصر وخارجها. وقد اعتقد العلماء معلمون ومتعلمون أن الهدف الأساسي لكافة الدراسات هو اللاهوت. ومن جهة أخرى فإن مدرسة القصر بكامل هيئتها كانت تصحب شارلان في حله وترحاله، وأن كل من في هذه المدرسة تسمى باسم أحد كبار مشاهير رجال العلم والفكر فشارلان: داود، والكورين: فلاكوس وإنجلبرت: هومر. وهكذا عاش الكورين في بلاط شارلان معززا مكرما حتى تقدم به العمر وبلغه الكبير، وعندئذ رأى من الأفضل له أن يستزل حياة السلف ويركن إلى حياة العزلة والانقطاع للعبادة، وقملا جمع



دير سانت همارتن في تور



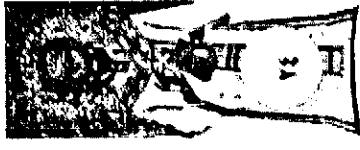
وأشهر إنجلترا بشاطه الأديب شعرا ونثرا حتى أطلق عليه معاصروه اسم «هم» ، كذلك عني بالكتب والمكتبات واستطاع أن يجمع منها الكثير .

هكذا حفل عهد شارلمان بهضة حضارية متعددة الأفاق في عصر حالك الظلام بالنسبة لغرب أوروبا، وفي إشارتنا لأعلام هذه النهضة لا ينبغي أن ننسى شارلمان نفسه وجهوده في حث العلماء على العلم والعمل . وكثيرا ما كان شارلمان يدخل دائرة النقاش في موضوع علمي، ويناقش ويسأل ويؤيد ويعارض، حتى أنه سمح للعلماء بالوقوف معه في حلقة النقاش العلمي موقف الند للند . هذا عدا استمداه دائما للدفاع عن المسيحية ونظمتها ومؤسساتها . ويقال إن شارلمان تعلم اللغة اليونانية وأجادها، مما مكّنه من الدخول في النقاش مع الإمبراطور البيزنطي . وكان ذلك في الوقت الذي أجاد الإلام بقواعد النحو اللاتيني . وما ساعد على اتساع أفق شارلمان حرصه على لقاء المسافرين والرحالة الأجانب وسؤالهم والاستفسار منهم عن كل ما يرغب في معرفته عن البلاد الأخرى وعادات أهلها وتقاليدهم .

أما التاريخ فقد بلغ من شغفه به حرصه على الاستماع إلى حوادثه وقصصه أثناء تناوله الطعام، هذا فضلا عن عنايته بجمع الأساطير التي تتعلق بتاريخ شعب الفرنجة وجذوره وسير أبطاله .

التعليم والمدارس والكتبات

وإذا كانت هذه هي نظرة شارلمان إلى العلم والمشتغلين به فلا بد وأن هذه النظرة انعكس مداها على سياسة شارل العظيم (شارلمان) وأسلوب حكمه بوصفه أعظم حاكم عرفه الغرب الأوروبي في حقبة العصور الوسطى، وتبدو هذه الصورة واضحة في الرسائل المدينة التي دأب شارلمان على أن يبعث بها إلى الأساقفة ومقدمي الأديرة، يحثهم فيها على فتح مدارس في مناطق نفوذهم وبذل أقصى جهد لتعليم الصغار والكبار، ومن بين هذه الرسائل رسالة بعث بها سنة ٧٨٧ إلى بوجلف - مقدم دير فولدان بطالبه بالعناية بتعليم الرهبان ورجال الدين، والعمل على رفع مستواهم الفكري، لأنه كما جاء في الإنجيل «يكلامك تدان» (إنجيل متى ٢٧، ١٢).



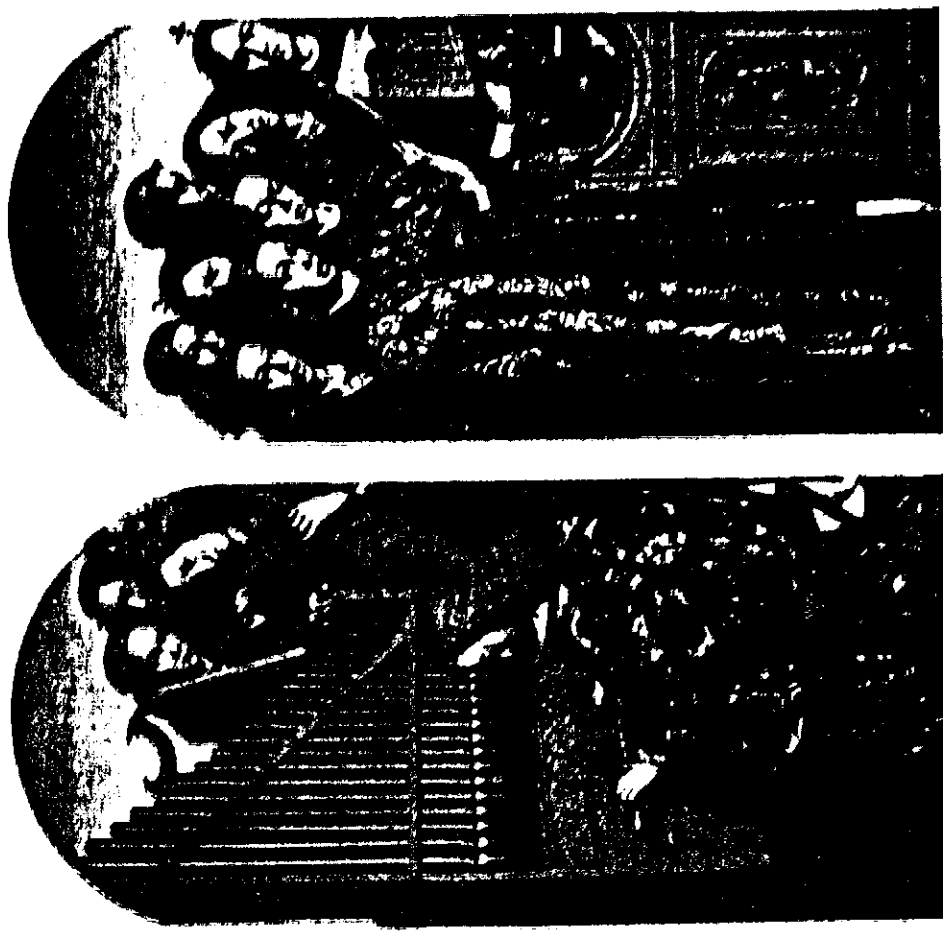
الكورين أوراقه وطلب من سيده شارلمان السماح له بأن يعتزل مكانه ليمش بعيدا عن جلية البلاط وضوضاء المدينة، وقد حاول شارلمان منعه، ولكنه اضطر تحت إلحاحه إلى السماح له سنة ٧٩٦ بالانتقال إلى دير سانت مارتن في تور، حيث قضى الفترة الأخيرة من عمره، وحل محله في مدرسة القصر أحد الأيرلنديين واسمه كنت .

على أن الكورين لم يستخ حياة السكون في مقره الجديد، فأخذ يواصل جهوده في تنظيم دير سانت مارتن وإمداد مكتبته بالمخطوطات النادرة، ومن ناحية أخرى فإنه أرسل بعض شباب الرهبان إلى يورك بإنجلترا لنسخ المخطوطات غير الشارفاة في سانت مارتن . وهكذا شق دير سانت مارتن طريقه بفضل جهود الكورين، كما ذاع صيت مدرسة سانت مارتن حتى غدت نموذجا للمدارس الإقليمية، الديرية الكنسية، وكان التعليم فيها ديني الروح والبطاع، في حين كانت الدراسة على مرحلتين: الأولى تختص بتعليم القراءة والكتابة والحساب والنحو، فضلا عن التراتيم الدينية، والثانية اقتصت برجال الدين، يدرسون فيها الإنجيل واللاهوت وكتابات القديسين، فضلا عن القوانين الكنسية، ومن يجتاز المرحلة الثانية يتخرج غالبا ما كان يعين مقدما لاحد الأديرة في ألمانيا أو غالبا .

أما شارلمان فلم يرض بأن تتوقف علاقته بالكورين عند هذا الحد، وإنما تابع إرسال المبعوثين إليه لإقناعه بالعودة إلى البلاط . وكان شارلمان يأمل في أن يصبح الكورين في رحلته إلى روما سنة ٨٠٠، وهي الرحلة التي تم فيها تنويع شارلمان إمبراطورا ولكن الكورين لم يعدل عن رأيه حتى وفاته سنة ٨٠٤ وحسب الكورين في التاريخ، أنه يقول في إحدى رسائله إلى شارلمان ما نصه: «لقد قمت في ربيع حياتي ببلور بلور المعرفة في بريطانيا والآن - وأنا في خريف العمر أقوم ببلورها في غالبا، وفي العبارة التي نقشت على قبره وصف الكورين نفسه بأنه لم يكن إلا «سانحا على وجه الأرض» وأنه «كان دائما مجبا للعقل والحكمة» .

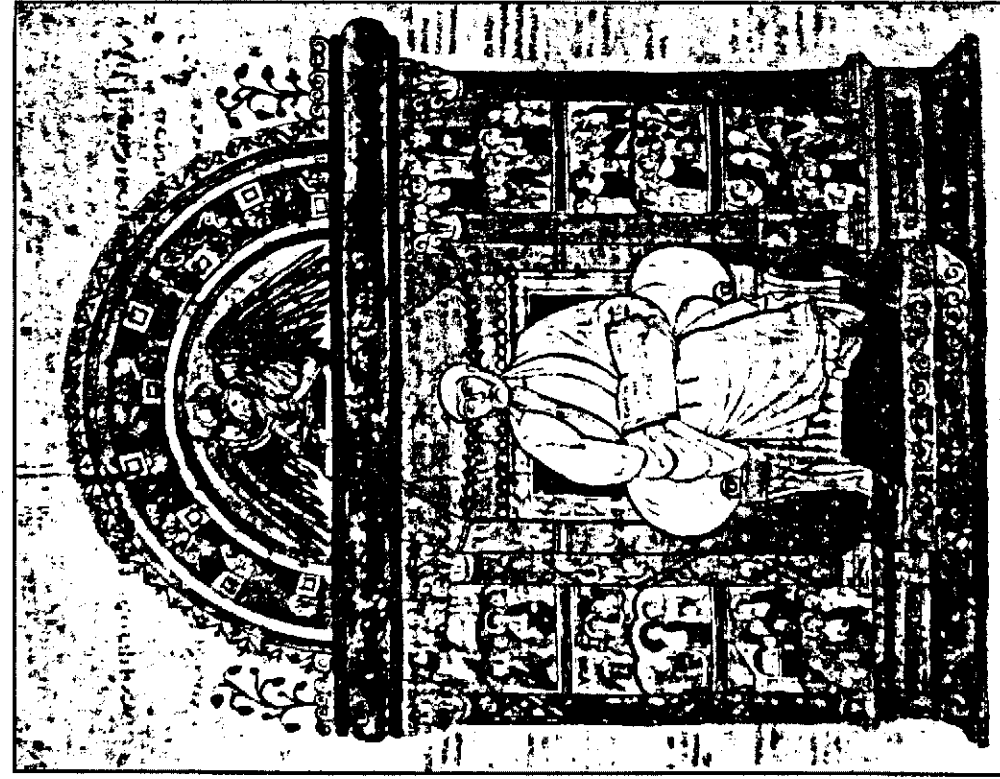
وقد ترك الكورين إنتاجا متنوعا في الأحكام الدينية، والمسائل السياسية والأدبية والتاريخية، فضلا عن بعض الأشعار . وكثير من كتاباته أجهت نحو تنفيذ هرطقة النبي ودحضها، على أن معظم كتاباته تناولت النظم الكنسية والطقوس الدينية، مما جعله عالم عصره في اللاهوت .

على أن الكورين لم يكن وحيد عصره، وإنما وجد إلى جانبه عدد من أعلام الفكر عملوا في بلاط شارلمان وفي مدرسة القصر، وأسهموا في النهضة الثقافية في ذلك العصر . ومن هؤلاء نكتفي بذكر إجنهارد وثيودلف وأنجلبرت، وقد كتب أولهم مؤلفا عن شارلمان يعتبر من خيرة كتب التاريخ المعاصرة، وله مؤلفات أخرى عن الكسورن، أما ثيودلف فكان من أبرز شعراء عصره، وفي الفترة التي شغل فيها منصب أسقف أورليان وجه عبادة خاصة نحو تنظيم التعليم في أسقفية .



الترايم والموسيقى الدينية

وفي سنة ٧٨٩ أمر شارلمان بتمميم المدارس في جميع الأديرة والكتائبات داخل دولته، وأن يتعلم الأطفال داخل هذه المدارس الترايم والموسيقى الدينية، إلى جانب القراءة والكتابة والحساب والنحو، مع تزويدهم فكتب إليه أسقف ليون يقول إن عنده مدارس للمعتدين ومدارس للقراء على درجة كبيرة من التقدم، أما ثيودلف أسقف أورليان فقد أصدر قراراً بأن يكون تعليم الصغار في المدارس الدينية مجاناً، ودون مقابل سوى ما قد يتبع به



رسم القديس لوقا - من كتاب للقديس أوغسطس - القرن السادس الميلادي

مراسيم لم يتعد تعليم رجال الدين، كذلك حيث ثيودلف الأهل على إرسال أبنائهم إلى المدارس، وعدم الانقطاع عنها إلا بعد إتمام تعليمهم.
والى جانب هذا النوع من المدارس الأولية، وجدت مدارس عليا لأولئك الذين يرغبون في إتمام تعليمهم. ومن المدارس الدينية الشهيرة التي برزت أسماؤها في غرب أوروبا في ذلك العصر، تولدا، وسانت جال، وكوربي... وغيرها.

والخبرون من
أهالي الأطفال
المتخفين عديمة
الكتابة أو
الديرة، وتزوج
أهمية هذا القرار
إلى أن الوثيقة
الروحيلة التي
تشير إلى تعليم
لغير أهل
المؤسسة الدينية،
وما عدا ذلك





النهضة الأدبية

وكان من الطبيعي أن تؤدي العناية بالتعليم والمدارس من جهة، وبالكتب والمكتبات من جهة أخرى، إلى نهضة أدبية كبرى، هي في الواقع الصورة المعبرة عن النهضة الكارولنجية. وقد أراد شارلمان أن يشبه بأباطرة روما القدامى، ليس في عظمتهم السياسية والحربية فحسب بل أيضا في المجال الحضاري؛ فجمع حوله وفي بلاطه جماعة من الأديباء والمؤرخين والشعراء، مما هيا له ولدولته وجهها حضاريا مشرقا. وهنا لابد من التنويه بأن النهضة شارلانية - الكارولنجية، لم ترتبط بعلم معين وأنه ليس لها وجهها واحدا، بمعنى أنها ليست نهضة فلسفية أو تاريخية أو أدبية، وإنما هي نهضة شاملة، عاجلت مختلف الأوجه الحضارية المتعددة، كل ما هنا لك هو أنها اكتسبت طابعا دينيا نظرا للعلاقة بين شارلمان والكنيسة الغرية؛ لذلك كانت الصدارة في الجانب الأدبي للدارس - ثم جاء النهضة بالأمانة المكانة الثانية في سماء النهضة الكارولنجية فامتازت الكتابات التاريخية في تلك النهضة بالأمانة وسعة الأفق وحسن الصياغة، مع العناية بالأسلوب اللاتيني. وفيما عدا سير الفرنسين، اهتم مؤرخو العصر الكارولنجي بكتابة الحوليات التي امتاز بعضها بالطول، وخاصة تلك التي دونت تحت إشراف رجال البلاط.

وإذا كان الشعر قد فاق النثر في النهضة الكارولنجية، فإن هذا التفوق جاء في الكم وليس في النوع، ذلك أن الشعر في الوثبة الكارولنجية امتاز بجودة الصياغة، وجمال الحبل، وانتشر استعماله على نطاق الدين والدنيا، وفي الأغراض التاريخية والمراسلات والرواية، فضلا عن الأغراض الدينية. وكان من المؤلفون نظم أشعار لتزيين أبواب الكنائس.

وقد ظلت اللغة اللاتينية هي اللغة المستخدمة في الأدب الرأقي والإدارة الحكومية في عصر النهضة الكارولنجية. على أن شارلمان لم يتخل تماما عن لسان أجداده من القرنية؛ ولذلك أمر بوضع قواعد اللغة الفرنجية، كما أطلق أسماء فرنجية على أشهر السنة، وجمع الأشعار الفرنجية القديمة التي تتناول تاريخ الفرنجية في مرحلة التوسع والبطولة.

على أنه كان من الصعب فرض اللغة اللاتينية الفصحى على جميع أفراد الشعب - في حياتهم الخاصة والعامة؛ لذلك شاع في تلك الحقبة استخدام اللاتينية في قالبها العام، حتى غدت اللاتينية الدارجة أو العامية هي اللغة الشائعة في جميع أنحاء غالبا. وفي سنة ٨١٣م تقرر في



والواقع أن رعاية شارلمان للتعليم كانت تخفى وراءها أهدافا خفية، منها العمل على رفع مستوى رجال الدين من ناحية والاستفادة من المتعلمين في رفع مستوى رجال الدين من ناحية أخرى، وبعبارة أخرى فإن شارلمان استهدف من نشر التعليم ودعم مؤسساته تحقيق أهداف دينية وسياسية؛ ذلك أن شارلمان بوصفه راعيا للكنيسة الفرنجية كان في حاجة إلى من يعينه في الإشراف على الكنيسة وأهلها وحل مشاكلها، وهذا هو السبب في أن الكنائس التي ارتبطت بإشراف شارلمان كانت مدارس دينية في المقام الأول، مما أدى إلى عدم وجود نظام تعليمي مستقل عن الدين. وقد عبر المعاصرون عن هذا الإحساس بقولهم إن الأصابع الثلاثة التي تمسك بالقلم إنما تشير إلى الثلاث المقدس.

ولكن على الرغم من ضيق أفق المدارس في تلك الحقبة، إلا أن أثرها كان كبيرا بالنسبة للأجيال التالية. ذلك أنها أدت إلى إحياء اللغة اللاتينية لتصبح أداة العلم، مما مكنتها من مقاومة ذلك السيل التدفق من الكلمات والتعابير الجرمانية الدخيلة، كما قاومت ما دخل عليها من تحريف في صياغة المشتقات وتركيب العبارات والجمل. ومن ناحية أخرى فإن تحريجي هذه المدارس هم الذين نهضوا فيما بعد بنسخ ونشر ما عثروا عليه من تراث العصور السابقة. وبالإضافة إلى الكتابات الدينية وكتب اللاهوت فإنهم نسخوا بعض كتب كاسيلور، ويؤيوس، وبندي، وغيرهم. وقد فتح الكورن الطريق أمام هؤلاء الناسخين من تحريجي المدارس الكارولنجية، عندما قام بتحقيق ترجمة الإنجيل عن طريق جمع عدة نسخ منه ومقارنتها بعضها ببعض وتحقيق الأخطاء الشائعة فيها.

وتحفيقا لرغبة شارلمان وتأييدا لرأى الكورن زودت أديرة تور وفولدا وغيرها من كبار الأديرة ببعض النسخ المهمة، مما جعل الكتب المنسوخة في ذلك العصر نماذج فريدة في الدقة والإتقان فضلا عن سلامتها من الأخطاء وقتها.

والواقع أن العناية بالكتب والمكتبات تمثل مظهرا من مظاهر الرقي الحضاري في عصر النهضة الكارولنجية. وبالإضافة إلى العدد الكبير من الكتب التي امتلكتها شارلمان، ونشرت مكتبات الأديرة بيمات المخطوطات في شتى الزوايا المعروفة، مثل كتابات المؤرخ اليهودي فلافيوس يوسف (٣٧-٩٥) ويؤيوس (٢٦٥-٣٤٠) مؤلف تاريخ الكنيسة، وأشعار فرجيل (٧١-١٩ ق م)، فضلا عن كتابات رجال الكنيسة الأوائل مثل القديس أوغسطين (٣٥٤-٤٣٠)، والقديس هلبير (٣٠٣-٣٦٧)، وجريجوري العظيم (٥٤٠-٦٠٤) وغيرهم، وتكاد تكون كتابات القديس أوغسطين بالذات من الكتب التي لا تخلو منها مكتبة أو كاتدرائية في ذلك العصر.



تلك الاقاليم وكبار موظفيها ويعودون بها إلى الإمبراطور ليلم بشؤون الشعوب التابعة له. وقد قسم شارلمان الإمبراطورية سنة ٨٠٢ إلى دوائر وأوقاف اثنين من المبعوثين إلى كل دائرة، أحدهما من رجال الدين والثاني من رجال الإدارة.

وثمة مهمة أخرى للمبعوثين هي التفتيش على الضياع التي خصها الملك للأغراض الخيرية والتأكد من سلامة الإنفاق في الأغراض المخصصة لها تلك المنح.

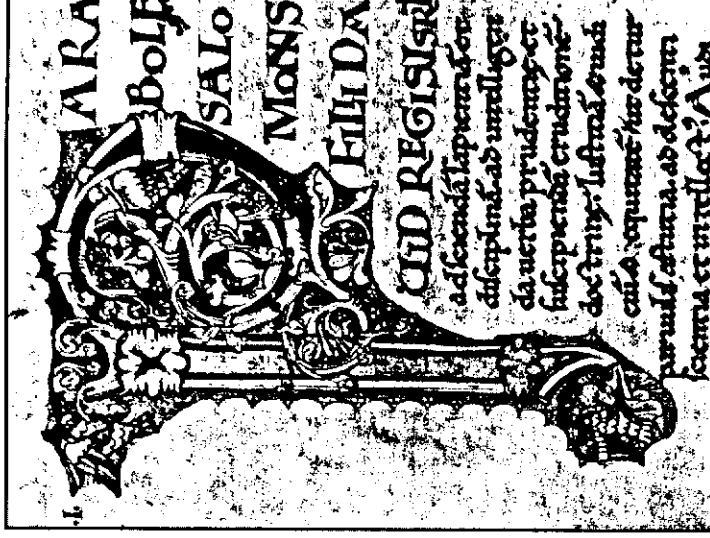
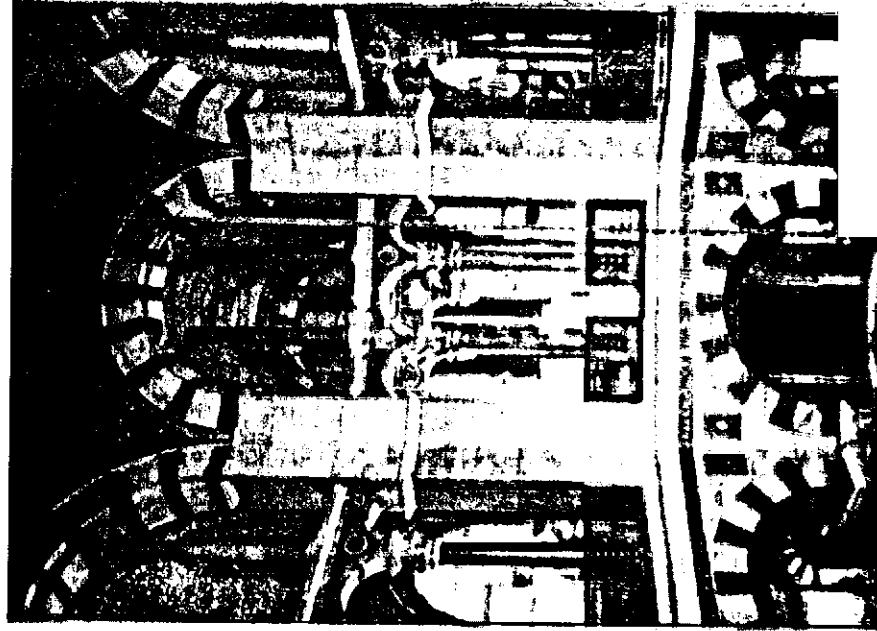
وبالإضافة إلى ذلك قام شارلمان بتصحيح وتقويم القوانين القائمة، واستبدال القضاة بهيئات أكثر دقة والنظاما في إصدار الأحكام، ثم إن شارلمان أمر سنة ٨٠١ بتدوين التراث التشريعي القومي لمختلف شعوب الإمبراطورية.

شارلمان والكنيسة

قامت حضارة غرب أوروبا في المصهور الوسطى على دعائمين كبيرتين: الكنيسة والنظام الإقطاعي، أما عن الكنيسة فتعتبر عن الدين ومدى نفوذ رجاله في عصور عرفت في التاريخ باسم عصور الإيمان. وعندما أحست الكنيسة بالضعف في الشطر الأول من العصور الوسطى، وبخاصة بين القرنين الخامس والثامن للميلاد ولت وجهها صوب دولة الفرنجة ورأت في ملوكها خير سند وسمين، وهكذا حتى كان تتويج شارلمان إمبراطورا سنة

٨٠٠م.

كنيسة آخن التي بناها شارلمان



مجمع تور الدين
وضع التعاليم والمواظ
الدينية في تلك اللغة
الشائعة لتكون قريبة
من فهم عامة الناس.

أحد النصوص الكارولنجية (حرف P)

القانون والتشريع والإدارة

يحلل التشريع والنظم القانونية والإدارية مكانة كبيرة في تاريخ الحضارات والدول، وذلك لارتباطها بالأمن والاستقرار والعدالة، وقد حظيت هذه الأركان بقدر كبير من عناية شارلمان، وكان لها نصيب واضح في النهضة الكارولنجية التي توجت حضارة غرب أوروبا في العصور الوسطى. ويوضح ذلك في حرص شارلمان على أن ينصح رعاياه بالنسك بحكام الأخلاق واحترام تعاليم الكنيسة وعدم مخالفتها، هذا إلى أن مراسيمه الخاصة بالتجارة والتعليم والقضاء... وغيرها، تأثرت جميعا بعلاقته بروما وكنيسها. وكان يصحب كل زيارة يقوم بها شارلمان لروما تغيرات وإصلاحات في الأدب ونظم الحكم. وفي معظم زيارات شارلمان لروما، كان يعود وفي ركابه عدد ضخم من الأدياء والعلمين ورجال الدين والشعراء فضلا عن الفنانين.

أما عن تشريعات تلك الحقبة من تاريخ غرب أوروبا في العصور الوسطى، فإنها محددة وليست كثيرة ولم يبق منها سوى القليل، ومن هذا القليل ما يتعلق بالمبعوثين وهم مندوبو الملك أو الإمبراطور الموفدون من قبله إلى كبار المستنيرين في مهام خاصة. هذا إلى أنهم يجمعون أخبار



النظام الإقطاعي

سبق أن ذكرنا أن حضارة أوروبا في العصور الوسطى قامت على أساس دعائتين: الكنيسة والنظام الإقطاعي.

أما الكنيسة فقد أوضعا أنها تضم ما يتعلق بالدين ورجال الدين في عصور عرفت باسم عصور الإيمان، مما جعل للدين الكاتبة الأولى في قلوب البشر وجعل من رجاله السلطة العليا في بناء بقية الكيان السياسي. والآن وقد فرغنا من الكلام عن الكنيسة ننقل إلى النظام الإقطاعي ودوره في بناء الهيكل الحضاري للمجتمع الأوروبي الغربي.

وهنا أيضا نجد أنفسنا شبه مضطربين إلى أن نتخذ من دولة الفرنجة محورا عندما نتطرق إلى النظام الإقطاعي في غرب أوروبا في العصور الوسطى، ذلك أن تاريخ دولة الفرنجة في غالبا (فرنسا الحالية) يكشف عن كثير من العادات والتقاليد التي يمكن اعتبارها إقطاعية والتي تعتبر فعلا بلذورا وجذورا للنظام الإقطاعي في العصور الوسطى.

ولكى نستوعب حقيقة النظام الإقطاعي ونشأته في غرب أوروبا علينا أن نبدأ باستيعاب طبيعة البناء الاجتماعي للغرب الأوروبي في الشطر الأول من العصور الوسطى، وهي الحقبة التي عرفت باسم العصور المظلمة. ذلك أن هذا البناء تألف من عنصرين أساسيين، قامت شعوب قبيلة من عنصر الجرمان وغير الجرمانى باقتحام أراضي الإمبراطورية الرومانية التي كان يسكنها أهل البلاد الأصليين الذين كانوا يعيشون في ظل نظام قبلي راسخ الجذور وقد أطلق الرومان على هؤلاء الدخلاء اسم «البرابرة» أي المتخلفين حضاريا، وقد جلبوا معهم كثيرا من عناصر التنظيم القبلي، لا سيما فيما يتعلق بتقديس رابطة الدم.

ومن المعروف أن النظام الملكي يكون دائما ضعيفا في المجتمع القبلي، لأن القوة الحقيقية لتلك المجتمع تكمن في نفوذ رؤساء القبائل. وإذا كانت بعض الملكيات الجرمانية - مثل الملكية الميروفنجية وقد تمت واشتد نفوذها في غرب أوروبا، فإن هذه حالات خاصة جاءت وليدة تجمع روح الاستقرار مما أثر في تنظيمها الاجتماعي.



ومن ناحية أخرى فإن حكام دولة الفرنجة وجدوا في الكنيسة أقوى دعامة تبرز حكمهم وتقربهم من شعبيهم.

والمعروف أن النظرية التي قامت عليها الإمبراطورية الكارولنجية تعمير الإمبراطورية وحدة دينية قبل أي اعتبار آخر، وظل شارلمان طوال حكمه يعمل لتأكيد هذه الحقيقة، ولكن عدم تحديد العلاقة بين السلطين الدينية والزمنية لم يساعد الكنيسة عندئذ على تحقيق طموحاتها. وكان شارلمان يحرص دائما لجعل الكنيسة الغربية دائما تحت إشرافه وسيطرته. وساعده على ذلك اعتراف الكنيسة به حامى المسيحية في غرب أوروبا، وعلى هذا الأساس أخذ شارلمان يتدخل باطمئنان في كل المشاكل الدينية وفي كل ما يتعلق بالتنظيم الكنسي، وصار هو الذي يعين الأساقفة، ويدعو لعقد للجامع الدينية، ويشق القوانين الكنسية.

وتتضح هيئة شارلمان على الكنيسة وحرصه على تنظيم شؤونها في كثير من الإجراءات والتشريعات الكنسية التي استحدثها في إمبراطورته - من ذلك أنه أعاد إلى كبار الأساقفة سلطاتهم، وحدد مناطق نفوذهم، أما الأديرة فقد شدد في مبدأ احترام الدير بحيث يكون موضع احترام كافة الرهبان داخل الدير وخارجه. وفي الوقت نفسه شدد شارلمان في احترام الحصانة التي يتمتع بها رجال الدين وحثم أن يكون الفصل في القضايا المشتركة بين رجال الدين والعلمانيين بوساطة هيئة مشتركة يرأسها الأسقف وكونت الإقليم.

ومن ناحية أخرى حرم شارلمان زواج رجال الكنيسة كما حرم عليهم دخول الحانات وأماكن اللهو، وحمل السلاح وممارسة الصيد.

والواقع أن الحروب المنيعة التي قامت بين ملوك الفرنجة وخصومهم اشاعت حدا من القوضى لا سبيل لمواجهته إلا بقوة السلاح، هذا بالإضافة إلى الحروب الداخلية التي قامت بين لوس التقي وأبنائه والتي استمرت بين الأبناء بعد وفاة أبيهم، بحيث أصبح الملك لا يمتلك جيشا كبيرا، وفي تلك الاجواء اشتدت هجمات الفيكنج والمسلمين والمجرين على غرب أوروبا ووسطها، وذلك في القرن التاسع للميلاد. وعندئذ صار لزاما على الفرد العادي الحر أن يختر أحد طريقين: إما أن يكون جنديا وإما أن يكون فنا مرتبطا بالأرض.

وقد دأب الملوك والأمراء وكبار ملوك الأراضي وغيرهم من يمتلكون أرضا تقوى احتياجاتهم على منح هذه الأرض لاتباع لهم من المحاربين بحيث لا يتعتق بها إلا وهو في خدمة سيده حريسا، وتسترد منه الأرض إذا لم يتم بواجبه الحربي في الدفاع عن سيده، وبذلك يصبح هذا التابع فضلا إقطاعيا. وكان يحتفل عادة بقيام علاقة وتولية بين السيد وفصله بأن يضع القفصل يده



تقسّم الفرسان



وكان محاربو الفرنجة بوجه عام من المشاة باستثناء الملوك والنبلاء الذين استطوا الخيول، وقد أراد أخذ ملوك الفرنجة وهو شارل مارتل (٦٨٩-٧٤١م) أن يتوسع في نظام الحياة ليدعم جيشه، وعندئذ اكتشف أن هذا الإجراء يتطلب منه نفقات ضخمة، لما يتحملة إعداد الفارس من نفقات - فرس ودرع وسلاح - فضلا عن أن هذا النوع من المحاربين الفرسان كانوا في حاجة إلى مورد يمتشون منه حتى يفرغوا للحرب والقتال ولما كانت دولة الفرنجة في القرن الثامن محدودة الإمكانيات فإن شارل مارتل لجأ إلى حل يتفق وطبيعة العصر، إذ سجل أسماء المحاربين، وبعد أن أقسموا له بيمين الولاء، أقطع كلا منهم قطعة من الأرض تكفي لسد حاجته على أن يبقى هذا الإقطاع في حوزته، ما دام يؤدي الخدمة العسكرية، وعندما اتضح لشارل مارتل أنه من الصعب عليه توفير الأرض اللازمة لتلك الأعداد الكبيرة من رجال جيشه وأنه لا يستطيع إضعاف موارد الحكومة بتوزيع الأراضي الحكومية على الجند أخذ يتطلع إلى أراضي الكنيسة فوضع يده على بعضها ليزعمها على هيئة إقطاعات على فرسانه، وبذلك تمكن شارل مارتل من التغلب على صعوبة كبيرة واجهته فكان جيشا كبيرا من الفرسان استغله في طرد المسلمين من غالبا في الجنوب وفي محاربة السكسون في الشمال وكان أن تعاقب ملوك الفرنجة بين القصير (٧٤١ - ٧٦٨) ثم شارلمان (٧٤٢-٨١٤) في الأخذ بهذا النظام الإقطاعي لبناء جيوشهم.



طبقات من النبلاء ورجال الدين في المصور الوسطى



ولا ينبغي أن يقف تفسيرنا لعملية التنظيم الإقطاعي عند حد الوجه الاقتصادي لتلك العملية، إذا إنها يبدو بوضوح ظاهرة اجتماعية وسياسية امتدت إلى شبكة الحكم في الدولة، فإذا أعلن الملك تنازله عن حق جباية الضرائب في إقليم أو منطقة معينة لسيد معين، فليس معنى ذلك أن المزارعين والمصليين في هذه المنطقة أو الإقليم استراحوا من عبء تلك الضرائب؛ لأن الذي حدث هو أنهم استمروا يدفعون ما عليهم من التزامات ولكن الدفع يكون للسيد الإقطاعي الذي حدده الملك. إن ذلك السيد -وفقا للنظام الإقطاعي- غدا صاحب السيادة المباشرة على الإقطاع، وغدا صاحب الحق في تخصيص الضرائب المقررة على الإقطاع المنوح له والتعامل مباشرة مع المزارعين في المنطقة المحددة وهي المنطقة التي أقطعها الملك لشخص معين ليستعملها لحسابه.

ومثل هذا الوضع يسرى في إطار النظام الإقطاعي على شؤون العدالة والقضاء فكان تنازل الملك عن حقوقه القضائية في منطقة لأحد فصاله يعني قيام هذا الفصل بما كان من حق الملك أن يمارسه. أما في الجانب الحريمي فإن المنح الإقطاعية كانت في معظم الحالات مشروطة بأن يقوم الشخص المقطع أو النعم عليه بمناصرة الملك والقوف إلى جانبه وإمداده بالقوة اللازمة وفق الشروط المتفق عليها. وهكذا تجرى العملية بشكل مسلسل، فالملك يعتمد على معونة أقصائه الكبار، وهؤلاء يعتمدون على أتباعهم ممن هم دونهم في المرتبة والنفوذ.

وفي هذه العملية الإقطاعية في غرب أوروبا لم تقف الكنيسة خارج الدائرة، بل تمتد الكنيسة والأديرة بأقطاعات واسعة منحها إياها الحكام والملوك، هذا مع ملاحظة أن معظم المنح التي أنعم بها ملوك الجerman على الأسقفيات الكبيرة والأسقفيات الواسعة كانت على هيئة إقطاعات ضخمة قرر المقطعون إعفاءها من الضرائب كما أعطيت في معظم الحالات من الواجبات والالتزامات الإقطاعية. وكان يكفي بالدعاء للواهب أو الترحم عليه في حالة وفاته.



في يد سيده الإقطاعي ويقسم على أن يظل أميناً له حرصاً على حمايته. وبعد ذلك يتاوله السيد الإقطاعي حنفة من التراب رمزاً للأرض، كما يسلمه علماً وعكازاً ووثيقة تثبت أوصاف الأرض المنوحة للتابع ومساحتها وتسمى هذه العملية «التقليد».

ومكثراً أخذت تتكون في غرب أوروبا في القرن التاسع طبقة تألفت من السادة الإقطاعيين والأفصاليين، وصار المحارب أو الفارس الصغير الذي لا يمتلك من الأرض إلا مساحة صغيرة فصلاً للملك أكبر ربما كان كورت الإقليم، في حين صار هذا الكورت فصلاً لسيد أكبر قد يكون الدوق أو الملك، ولم يكتمل بناء هذا الهرم الإقطاعي الذي جلس الملك على قمته وترجع الفارس الصغير في قاعدته إلا في القرن التاسع، إذ ظلت بعض أراضي الملكيات الحرة خارج نطاق النظام الإقطاعي، وبقيت منتشرة في غرب أوروبا حتى القرن الثاني عشر.

وهنا ينبغي أن نلاحظ أنه لم توجد أية عضاضة في تلك العصور في أن يكون الإنسان فصلاً لسيد أعلى منه درجة؛ لأن هذا الفصل كان بدوره سيدياً لمن هو دونه في الدرجة، هذا بالإضافة إلى أن هذه التبعية الإقطاعية تعني أن صاحبها في طبقة المحاربين وهي الطبقة التي اشتهر فرسانها في غرب أوروبا في العصور الوسطى بالشجاعة والمروءة والكرم وغيرها من الاخلاق والصفات المشرفة التي تحلى بها الإقطاعيون، ومن الواضح أن عملية التنظيم الإقطاعي تعنى تنازل السلطة المركزية في الدولة عن نفوذها وحقوقها وواجباتها، بسبب ضعفها وعجزها عن حماية الأوضاع المجتعة بالدولة.

تمثال نحاسي

لفارس من العصور الوسطى سنة 1250



حقوق والواجبات الإقطاعية

على أن النظام الإقطاعي اختلف في نشأته من مكان إلى آخر في غرب

أوروبا، وذلك وفقا لظروف البيئة والمناخ وظروف كل إقليم وما قد يكون قد تعرض له من تيارات سياسية واجتماعية، ولكن مهما يبلغ هذا الاختلاف والتباين في النظم الإقطاعية فإنه تبقى الحقيقة قائمة، وهي أن النظام الإقطاعي في جوهره قام على أساس العلاقة التي اربطت بجزارة الأرض؛ ذلك أن التمتع باستغلال الأرض كان تمتعا بالوفاء بالتزامات معينة، مقابل تعهد السيد الإقطاعي بالوفاء بواجبات محددة تجاه فئله، ومعنى هذا أن كل طرف من الطرفين - السيد الإقطاعي والنقل المقطع - له حقوق وعليه واجبات تجاه الطرف الآخر. وكما أوضحنا كان التعاون في ميدان الحرب هو المحور الأساسي للعلاقات الإقطاعية بين السيد وأفضاله لأن المهمة الأولى للسيد الإقطاعي كانت حماية أفضاله وأراضيه، في حين كان الواجب الأول على هؤلاء الأفضال هو العمل في جيوش سيدهم ضد خصومه.

ولم يكن هناك تحديد في أول الأمر لنوع الحروب التي يتعين على الفئال أن يشارك سيده في القيام بها، ولكن بمرور الوقت ظهر التمييز بين الحروب الهجومية والحروب الدفاعية، وكان ذلك في عصر مجتمعات الفايكنج وتعرض غرب أوروبا لعدوان المغيرين، عندئذ أدرك الأفضال أنهم ملزمون بالخروج بأسلحتهم لصد المعتدين والقيام بواجباتهم الإقطاعية للدفاع عن سيدهم الإقطاعي وممتلكاته. أما إذا قام السيد الإقطاعي بهجمات عدوانية على جيرانه وأراضيهم وقلاعهم فمعدئذ كان الأفضال يحاولون التهرب من مشاركته في أطماعه وسياسته العدوانية؛ ولذا جاء السادة الإقطاعيون إلى استشارة أفضالهم قبل الإقدام على عمل هام. وهناك شبه قاعدة جمملت الحد الأقصى للمدة التي يلتزم بها الفئال في خدمة سيده الإقطاعي في حروبه العدوانية بأربعين يوما في العام.



الجمع الأوروبي في ظل النظام الإقطاعي



أحدى المآزات بين الفرسان في المصور الوسطى



الصيد بالصقور



انقسم المجتمع في غرب أوروبا في العصور الوسطى إلى ثلاث طبقات، طبقة رجال الدين، وطبقة أرباب السيف وهم المحاربون من النبلاء والفرسان ثم طبقة المزارعين.

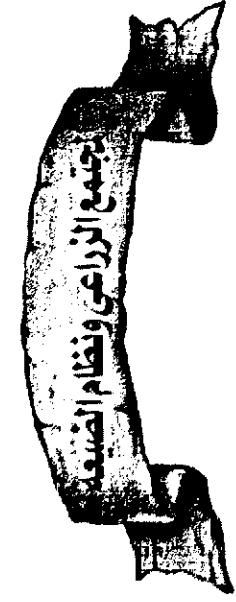
أما الطبقتان الأريان فكانتا تتلنان الهيمنة الحاكمة من وجهة النظر السياسية والأرستقراطية السائدة من وجهة النظر الاجتماعية والفئة الثرية من وجهة النظر الاقتصادية، هذا في حين كانت طبقة المزارعين تشمل عامة الكادحين المغلوبين على أمرهم، المحرومين من النفوذ والثروة.

وكان لكل طبقة مكانها ومهامها في المجتمع؛ فرجال الدين عليهم أن يتصدوا ويشبعوا الجانب الروحي في المجتمع، والنبلاء والفرسان كان عليهم أن يهضوا بهام الحرب للدفاع أو الهجوم، وأما الفلاحون والمزارعون فحسبهم أن يكفوا ويشقوا ليشبعوا بطون الطبقتين السابقتين. ولمس الباحث في تاريخ غرب أوروبا في العصور الوسطى فجوة واسعة بين طبقتي الفرسان المحاربين والفلاحين المزارعين. وكان من الصعب النادر أن يتمكن عامي من أن يصبح صاحب إقطاع حتى ولو كان حر المولد. وكان يحدث في بعض الأحيان أن ينجح مزارع في تكوين ثروة كبيرة ومع ذلك يظل وضع المقام بحكم أصله. وربما ساعد على ذلك افتقاره إلى التدريب العسكري الذي كان لا يتاح إلا لأبناء طبقة الفرسان ثم إن مصطلح الفروسية كان يعبر عن مستوى معين من الأخلاق والسلوك وهو ما يتدرب عليه الفارس في مرحلة الإعداد والنشأة.

ومن الواضح أن حياة السلم كانت تعنى البطالة بالنسبة لمحاربين محترفين، لا عمل لهم إلا الحرب؛ لذلك ابتكر فرسان العصور الوسطى في غرب أوروبا تقليد البارزة لقتل الملل والفرغ من جهة والنباهي بإظهار الشجاعة والذكاء من جهة أخرى. وكانت هذه المبارزات تتم بطريقة استعراضية تمثيلية تستهدف إظهار أكبر قسط من الشجاعة بأقل قدر من الإصابات والخسائر.

أما المحصون الإقطاعية فكانت في أول الأمر بمثابة المعاقل التي يلوذ بها أهل المنطقة فرارا من الهجمات التي يشنها الغيرون والأعداء، وبخاصة الفايكنج في غرب أوروبا. ومع تطور النظم الإقطاعية تطورت الحصون والقلاع حتى غدا الحصن مقر السيد الإقطاعي ومركز حكمه.

وفيما عدا الممارسة اعتاد الأمراء أن يقتلوا أوقات السلم بالتلهي بالصيد وغير ذلك من وسائل التسلية؛ لذلك احتفظ الأمراء بعدد من طيور وحيرانات الصيد، كما اعتادوا أن يصطحبوا معهم نساءهم عند خروجهم للصيد، فإذا أمضى السيد الإقطاعي بعض الوقت في محل إقامته فإنه يقتل الوقت بمعاونة الخمر والقامرة، ولعب الشطرنج الذي عرفه الغرب الأوروبي عن المسلمين في عصر الحروب الصليبية.



كان الفلاحون في أوروبا العصور الوسطى يمثلون أكثر عناصر السكان عددا وأحطها قدرا.. وقد تكونت طبقة الفلاحين المزارعين أساسا من الرقيق والأقنان الذين تقاربت ظروفهم جميعا فذاب الرقيق وسط محيط الأقنان. وفي فترة الظلام الذي ساد أوروبا في القرن التاسع نتيجة للحروب الأهلية من جهة والإغارات الخارجية من جهة أخرى، اضطر الضعيف إلى البحث عن حماية القرى، حتى ولو كلفه ذلك التضحية بحريته الشخصية، مما ساعد على مولد طبقة جديدة من الأقنان ترجع أصولها إلى جذور من الأحرار، وهذه الفئة الجديدة من الأقنان احتلقت بالرقيق القدامى لنتشأ من الخليط طبقة واحدة من أهل الفلاحة لها وضعها في المجتمع الأوروبي، وفي القرنين التاسع والعاشر تحدد ما يعرف باسم نظام الضيعة أو النظام السنبوري، نتيجة لازدياد أعداد من فقدوا حريتهم. حقيقة إن نظام الضياع نفسه قديم، ترجع جذوره إلى أصول رومانية وجرمانية، ولكن الجديد في العصور الوسطى هو أن أوروبا اتخذت هذا النظام أساسا للحياة الاقتصادية في الوقت الذي انكسرت فيه أهمية المدن ووضف النشاط التجاري.

وعندما تقبول الضيعة فلنأما تعنى وحدة نظام الملكية الزراعية في تلك العصور، وكان من الممكن أن يتألف الإقطاع من عدد من الضياع، وفي أوروبا العصور الوسطى كانت الضيعة تكفي نفسها بنفسها، وبحكمها سيد يتمتع سلطة شبه مطلقة، فضلا عن أنها تمتلك جميع مقومات الاكتفاء الذاتي، بحيث يشغ إنتاجها الحاكم والمحكومين جميعا.

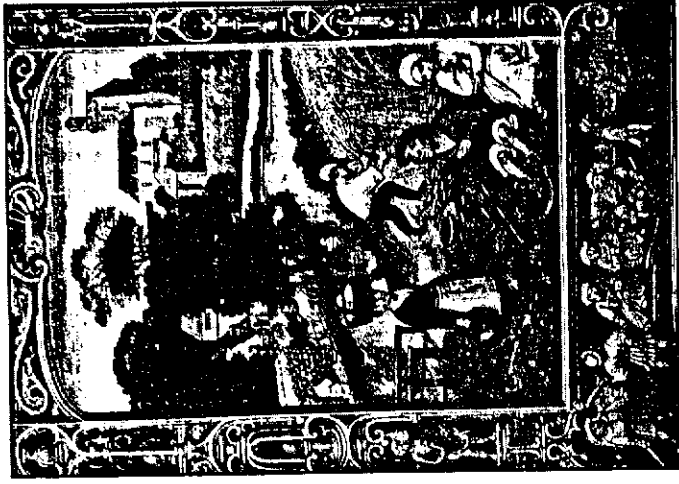
ولم تكن الضيعة وحدة سياسية فحسب، بل كانت أيضا وحدة اقتصادية واجتماعية ودينية، ولكل ضيعة قساوستها وكان مالك الضيعة يعيش في دوارها، الذي لا يخلو من مظاهر الترف، أما الفلاحون فيعيشون في أكواخ مظلمة لعدم وجود منافذ أو فتحات بها. والغالب أن القلاح كان ينسج مع غروب الشمس وينهض مع شروقها، وفي تلك العصور كانت الشموع قليلة في أوروبا، واستخدامها مقصور على اليسوسرين، وكان الأقنان ملزمين بحلق رؤوسهم حيث إن الشعر الطويل من صفات الأحرار وحدهم.

وقد فرضت طبيعة نظام الضيعة روح التسامح على فلاحيهما، وبخاصة في مواسم الحرت فتح الواحد لم تكن لديه الإمكانيات اللازمة للقيام بتلك العمليات.





ومكنا كان الاقنان
المزارعون يحبون في
العصور الوسطى حياة شاقة
يغلب عليها البؤس والفقر،
وظل الوضع على ذلك
شظرا طويلا في أوروبا إلى
أن اتخذ نظام الاقنان في
الانتهيار منذ أواخر القرن
الحادي عشر. وقد أسهمت الحروب الصليبية
في التعجيل بانتهيار نظام الاقنان، حتى أن
الحملة الصليبية الأولى وحدها فتحت الباب
أمام عشرة آلاف من تركوا الأرض التي ارتبط
بها أباؤهم وأجدادهم بحجة المشاركة في



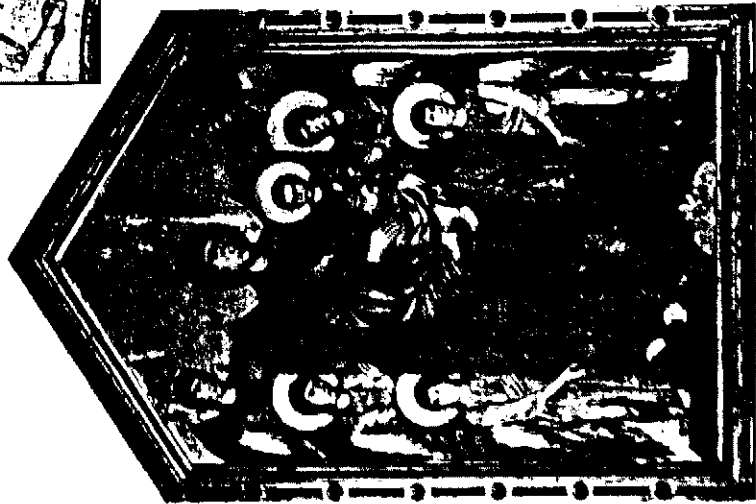
الغلاخون في أوروبا في العصور الوسطى



حياة الغلاخين الفقراء المظلمة - في أوروبا في العصور الوسطى



محايرة المسلمين، ومن ناحية أخرى
فإن أصحاب الضياع في غرب أوروبا
اكتشفوا أن نظام استخدام الرقيق
والاقنان غير اقتصادي وأنه من الأوفر
لهم استخدام عمال مأجورين في
فلاحة الأرض.



أيقونة بكثيسة مسان فرنسيسكو - موجودة
بمتحف اللوفر - باريس



تصوير جداري لفرنسكو -
مطريد



المدن والنشاط الاقتصادي

حياة المدن وبعث النشاط التجاري

رأينا كيف أخذ نظام الأتقان يتصنع وينهار في غرب أوروبا منذ القرن الحادي عشر، وعندئذ أخذ الأتقان يتزحون إلى المدن ليباشروا نوعاً آخر من النشاط الاقتصادي يوفر لهم لقمة العيش.

والمواقع أن نشأة المدن في الشطر الأخير من العصور الوسطى الأوروبية يمثل ثورة بالغة الخطورة ليس في الميدان السياسي والاقتصادي فحسب، وإنما في الميدان الاجتماعي أيضاً. ذلك أنه لم تكن ثمة علاقة تربط المدينة الأوروبية التي ظهرت في العصور الوسطى بالمدن القديمة التي عرفت في العصر الروماني والتي بلغت ذروة التقدم في القرنين الأول والثاني للميلاد. وجاء فيقول المدينة القديمة نتيجة للاضطراب التي تعرضت لها الإمبراطورية الرومانية فانكمش حجمها وضعف نشاطها، ولم تعد مركزاً لنشاط حضاري منذ القرن الخامس للميلاد، وإذا كانت هذه المدن قد احتفظ بعضها بقدر من الأهمية في العصور المظلمة، فإن مرجع ذلك هو أنها عدت مراكز أسقفية بمعنى أن هذه الأهمية ارتبطت بالعامل الديني، أما أهالي المدن الرومانية القديمة فقد صاروا أقباناً وإن استمر فريق منهم يشتغلون ببعض الحرف وبخاصة في الأديرة، وهكذا لم تعد المدينة الرومانية التي قدر لها البقاء تحت نفوذ رجال الدين، أكثر من مركز ديني ولم يبق لها من أوجه النشاط التجاري أو الصناعي إلا النزر القليل الذي يسد حاجة رجال الدين وأتباعهم.

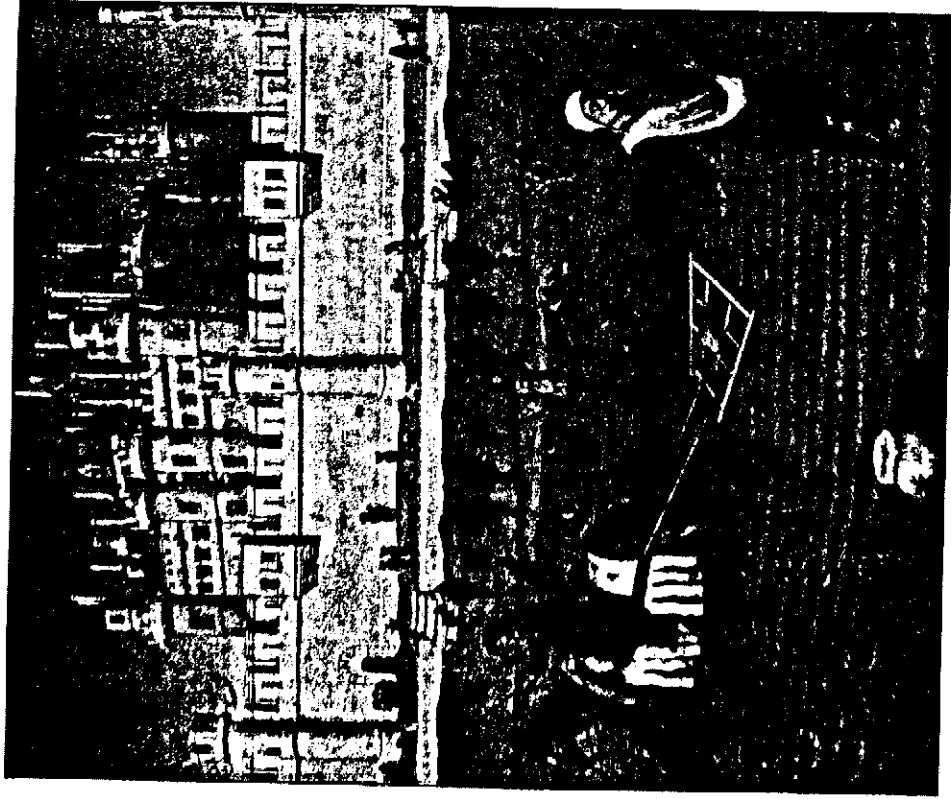
ومن الثابت أن الاقتصاد الأوروبي اتخذ طابعا زراعيا بحثا منذ نهاية القرن الثامن للميلاد، فقدت الأرض المصدر الرئيسي للثروة واعتمدت كافة طبقات المجتمع على ما تدره الأرض من خيرات. وهكذا ذبلت التجارة أو كادت تنعدم بعد أن عدت الأرض وحدها هي الأساس الذي قام عليه بناء الحياتين الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا. أما النشاط التجاري الذي مارسه الأوروبيون بين القرنين الثامن والعاشر فقد اقتصر على التجارة المحلية الضيقة من ناحية والعلاقات التجارية بين بعض المدن الإيطالية والدولة البيزنطية من ناحية أخرى، ثم النشاط التجاري الذي قام به



أما عن مكانة المرأة في مجتمع الغرب الأوروبي في العصور الوسطى، فإن هذه المكانة كانت ثانوية؛ ذلك أن اختيار الزوجة كان يتوقف على المصالح العائلية والمالية، وبعد الزواج كان مطلوباً من المرأة أن ترضع مولوداً ذكراً، فإن لم يتم ذلك صار عقد الزواج مهدداً بالنسخ، أما الأرملة فنكون تحت وصاية ابنها أو سيدها، وإذا كان قد أبيع للمرة أن توث إقطاعاً، إلا أنها كانت لا تستطيع أن تدبر شؤون هذا الإقطاع إلا عن طريق الزوج أو الابن.

وبالنسبة لموقف الكنيسة من المرأة فإن هذا الموقف كان متناقضاً؛ فمن ناحية نظرت إليها الكنيسة على أنها شريكة آدم التي تسببت في انحرافه نحو العصبية والخطيئة؛ ولذلك فهي تستحق الاحقار والامتهان، ومن ناحية أخرى نظرت الكنيسة إلى المرأة على أنها تمثل مريم العذراء أم المسيح عيسى ابن مريم؛ ولذلك فهي جديرة بكل حب واحترام وتقدير، ويبدو أن هذه الفكرة الأخيرة كانت هي الغالبة فكان احترام المرأة وتبجيلها دليلاً على أن الفارس جدير بكل تقدير، حتى قال بعضهم: «إن الفارس نصير الله والمرأة».

ومع ذلك فإنه من الملاحظ أن المرأة لم تتمتع بأي حق قبل زوجها، بل إن بعض كتاب العصور الوسطى من الأوروبيين أبدوا حتى الزوج في ضرب زوجته وإيذاها إذا خالفته وكل ما فعلته الكنيسة في هذا الموقف هو أنها حددت حجم وأوصاف العصا التي يحق للزوج استخدامها في هذه الحالة.



تصوير لحياة الفلاحين بجوار القلاع

وإذا كانت الفترة الواقعة بين سنتي ٥٠٠، ١٠٠٠م تمثل حلقة مظلمة في تاريخ المدن الأوروبية فإنه يمكن القول بأن القرن الحادي عشر شهد مولدا جديدا للمدينة الأوروبية، أهم معالها إحياء التجارة وظهور طبقة التجار. ذلك أن القرن الحادي عشر شهد حالة من السلام والاستقرار مكنت التجار من مباشرة نشاطهم. فإذا أضفنا إلى ذلك ما شهده ذلك القرن من حركة إصلاح الكنيسة من جهة وقيام الحروب الصليبية من جهة أخرى وجدنا أنفسنا أمام عدة عوامل أدت إلى تحطيم الضيقة، وتشجيع النشاط التجاري والصناعي، بحيث لم تعد الأرض المصدر الوحيد للثروة

دى.



الفاكتنج في بحر الشمال وسهول روسيا من جهة ثالثة، وربما ساعد على انحطاط النشاط التجاري عندئذ موقف الكنيسة التي ظلت تنظر إلى الكسب التجاري على أنه غير مستح، وأن الأرض الزراعية هي وحدها المورد الحلال الذي يجب أن ينميش منه الإنسان وإذا كان الاقتصاد الأوروبي قد اتخذ طابعا زراعيا بحثا منذ نهاية القرن الثامن، فنحذت الأرض المصدر الرئيسي لرؤوس الأموال واعتمدت كافة طبقات المجتمع على ما تدره الأرض من حاصلات، وهكذا فبذلت التجارة وكاد يتوقف النشاط التجاري بعد أن غدت الأرض وحدها هي الأساس الذي قام عليه بناء الحياتين الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا وذلك فيما بين القرنين الثامن والعاشر.

ثم كان أن ظهرت في العصر الإقطاعي مجتمعات من الاقنان اختاروا العيش بجوار القصور والحصون والأديرة للاحتماء بها. وفي بعض الحالات تمكنت بعض هذه المجتمعات من مباشرة لون من ألوان النشاط الصناعي المحدد، بل إن الاقنان الذين كانوا يعملون صيفا في مجال الزراعة أخذوا يشغلون وقتهم في الشتاء بالتجارة وصناعة الجلود والأواني الفخارية ليبيرو إنتاجهم في أقرب سوق محلي.

على أن إحياء النشاط التجاري في أوروبا أواخر العصور الوسطى يرجع في الواقع إلى التجار الهانزين وبخاصة من اليهود الذين قاموا باستيراد السلع والبضائع التي يفتقر إليها الإنتاج المحلي، وقد بلغت سيطرة اليهود على التجارة المحلية في أنحاء أوروبا في تلك الفترة الظلمة أن لفظ «يهودي» صار مرادفا للفظ تاجر، وإذا كان هؤلاء التجار في أول الأمر متقلبين فإنهم لم يلبثوا أن مارسوا حياة الاستقرار تدريجيا حتى غدت لهم مخازن تجارية ذات مكانة.

وكان أن سمح الأمراء المحليون لهؤلاء التجار بالإقامة بجوار حصونهم وقلاعهم عندما لموا الغائبة التي يحصلونها منهم مقابل ما يفرض عليهم من رسوم وضرائب، فضلا عن النشاط الاقتصادي وإثارة حركة تجارية واقتصادية في الأماكن التي اتخذها هؤلاء التجار مراكز لنشاطهم، وهكذا ما كاد ينقضى القرن الحادي عشر إلا وكان هؤلاء التجار قد أقاموا لأنفسهم شبه حظائر متاخمة لحصون الأمراء مارسوا حياتهم فيها بقدر من الحرية لم يتوافر للاقنان في الضياع المجاورة.

وهكذا أخذت هذه التجمعات التجارية تتطور لتتمخض عن مولد مدن العصور الوسطى، وفي الوقت نفسه أخذت المخترق التي حصلت عليها تجمعات التجار تتطور لتصبح نواة للعهد والبرامات الإغنافية التي تمتعت بها المدن فيها بعد.



وهنا نلاحظ أن التسرع الإسلامي في حوض البحر المتوسط منذ القرن السابع حطم الوحدة السياسية وأضعف من النشاط التجاري الأوربي في ذلك البحر، ولكنه لم يوقف ذلك النشاط. ذلك أن تعثر المسلمين في الاستيلاء على القسطنطينية ترك الباب مفتوحا أمام التبادل التجاري بين المدن الإيطالية - وبخاصة البندقية من ناحية وأراضي الدولة البيزنطية من ناحية أخرى، ومع ذلك فإنه يمكن القول بأن النشاط التجاري في غرب أوروبا انحط إلى الدرك الأسفل في القرن العاشر، وظل كذلك إلى حين بدأت الحروب الصليبية في أواخر القرن الحادي عشر، وجاء مولد الحروب الصليبية إيذانا بإحياء النشاط التجاري للمدن البحرية

فظهرت على المسرح التجاري: أمالقي وجنوة وبيزة ومرسيليا ونايون وبرشلونة، فضلا عن البندقية التي تمثل حجر الأساس وكان البنادقة بوجه خاص. يحملون إلى أسواق مصر والشرق الرقيق من الممالك والجواري، فضلا عن الأخشاب والحديد ويستوردون بدلا منها التوابل والبخور والحاصلات الشرقية.

وعندما تكدست البضائع المستوردة من الشرق في تلك الموانئ والمدن، أخذت تنشق طريقها نحو وسط أوروبا وغربها عن طريق السهول المباركية ومرتات جبال الألب وطريق نهر الراين، مما أثار نشاطا كبيرا في المدن الواقعة على هذه الطرق. ولم يلبث هذا النشاط التجاري في جنوب أوروبا ووسطها وغربها، أن شق طريقه إلى شمال أوروبا. واتخذ هذا النشاط في القرن الثاني عشر إقليم فلاندرز قاعدته له، وذلك بحكم مميزات الجغرافية وما اشتهر به من كثرة أنهاره وموانئه. وهكذا اتسع نطاق النشاط التجاري في أوروبا ولم يعد وقفا على اليهود وحدهم.

ويحل القرن الثالث عشر أهمية كبرى في التاريخ التجاري، حيث إن طرق التجارة القديمة استبدلت بأخرى جديدة. ذلك أن استيلاء الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية سنة ١٢٠٤ أضر بطريق القسطنطينية التجاري، في حين نهض فرسان التيون في شمال أوروبا بالتجارة فاتسع نطاقها على شاطئ البحر البلطي. ثم كان أن دمر المغول مدينة كييف سنة ١٢٤٠ وبذلك قطعوا الطريق التجاري بين البحرين البلطي والأسود، كما غزوا العراق وخربوا بغداد سنة ١٢٥٨، مما أدى إلى تركيز التجارة العالمية بين الشرق والغرب في طريق البحر الأحمر وموانئ مصر الملوكية. ولا شك في أن هذه التغيرات أثرت في النشاط التجاري للمدن الأوروبية الناشئة تأثيرا عميقا، حتى بلغت قيمة ما تستورده البندقية وحدها من بضائع الشرق عن طريق دولة سلاطين الممالك في مصر مليون دوكات، ذهبي.

ويمكن القول بأن الفكرة الواقعة بين سنة ١٠٧٥، وهي السنة التي نجحت فيها ثورة مدينة كولونيا ضد أمقتها، وسنة ١١٨٣، وهي السنة التي حصلت فيها مدن الخلف اللباردي على

حقوقها في الاستقلال الذاتي في الحكم من الإمبراطور فردريك بربروسا، هذه الفترة تصور دور البطولة في تاريخ نشأة مدن أوروبا العصور الوسطى؛ ذلك أن المدن الإيطالية بوجه خاص عدت مثلا احتذته بقية المدن الأوروبية في بروفانس، وحوض الراين وفلاندرز للحصول على استقلالها. وجاءت نشأة المدن بطيئة وتدرجية على الرغم مما نسمح به من ثورات في بعض المدن مثل ميلان وكامبراي وكولونيا وغيرها، ويفضل هذه الخطوات التدرجية أخذت المدن تتع من ساداتها الإقطاعيين اعترافات بحقوقها، فازداد عدد البراءات والعهود الإعفائية التي حصلت عليها تدريجيا. ومع أن هذه البراءات ثابتة كثيرا في تفاصيلها، حتى أنه يصعب العثور على براءتين متشابهتين لمدينتين مختلفتين، إلا أنها اتفقت جميعا في روحها، وفي خاتمتها التي تنص على حدود الأرض التي قامت عليها المدينة، وعلى أن كل من يعيش في هذه المدينة سنة ويوما واحدا يعتبر حرا. وهكذا أخذت قبضة الأمراء تخف عن المدن في النواحي الإدارية والقضائية والمالية، وكلما تنازل أمير عن حق من حقوقه تلقفته المدينة في صورة إعفاء، حتى تكتمل جميع هذه الإعفاءات في براءة تبرع عن حقوق المدينة ومستورها، وتحفظ هذه البراءة في أرشيف المدينة.

على أنه يلاحظ أن هذه البراءة التي حصلت عليها المدينة بعد كفاح شاق طويل، لم تكن حقا مكسبا ينتع به كافة سكان المدينة، وإنما تمتع به فريق محدود من هؤلاء السكان. وتبوعت هذه الامتيازات بتبوع ظروف المدينة، فربما اقتصت بها جماعة من التجار أو الصناع أو غيرهم. وكانت هذه الفئة المحدودة تمثل الهيئة الممتازة التي يختار منها محافظ المدينة وموظفوها.

غيرهم ممن يتمتعون بالامتيازات المدنية كاملة، وفي بعض الأحيان لما أعضاء هذه الأقلية الممتازة إلى التوسع في منح الامتيازات لغيرهم من سكان المدينة - لا سيما الأثرياء القادرون، في حين تظل بقية فئات السكان محرومة لا نصيب لها في شئون الحكم.

وكان أن أدت هذه التفرقة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بين أهالي المدينة الواحدة إلى اضطراب تاريخ المدن الأوروبية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر، فاحتمت الصراع بين البورجوازية والطبقات الدنيا، وبين أصحاب العمل والمعمال، هذا في حين أن نقابات التجار والصناع التي بدأت نشاطها في شكل اتحادات بين أفراد أحرار متكافئين، لم تلبث أن تحولت إلى هيئات احتكارية تتحكم في رؤوس الأموال، وفي أسعار البضائع والسلع، وفي تحديد الأجور وساعات العمل.



ولم تكن نشأة المدن في أوروبا العصور الوسطى ظاهرة محلية انفردت بها بعض المدن دون الأخرى، وإنما اتخذت هذه النشأة طابعا عاما في غرب أوروبا، فبدأت واضحة في لبارديا وفلاندرز، ثم أخذت تنتشر بسرعة في بقية بلاد الغرب. ومن الطبيعي أن تتباين المدن في تاريخ



وصفوة القول إن المدينة الأوروبية في العصور الوسطى نهضت بالكيان الحضارى فى الغرب نهضة جديدة، بعد أن نجحت فى خلق نظام اقتصادى جديد يقوم على عدة أسس أهمها التنظيم التجارى والنمو الرأسمالى والرغبة فى المغامرة بروس الأموال، وعدم الأخذ بأراء رجال الدين التى كثيرا ما اتصفت بالتزمت والجمود.

وفى تعرضنا لنشأة المدن كظاهرة حضارية فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى علينا ألا ننسى حقيقة أساسية هى أن بعض هذه المدن استطاعت أن تحقق لنفسها قسطا كبيرا من النضوذ يفوق ما حصلت عليه سائر المدن. وقد ظهر هذا النوع من المدن أول ما ظهر فى إيطاليا - وبصفة خاصة فى لبارديا وتسكانيا فى أواخر القرن الحادى عشر، وأطلق عليها اسم (القومونات) ومقرها قومون. وصار هذا المصطلح يطلق على المدينة ذات الكيان السياسى والاقتصادى المستقل. وجاء مولد القومونات عندما ضاق البناء والتجار والصناع وغيرهم ذرعا من تصف الاساقفة وتسلطهم على كل صغيرة وكبيرة فى شؤون المدن، فأقاموا اتحادات تستهدف وضع قيود على نفوذ الاساقفة. ولم يتطع رجال الكنيسة الصمود أمام هذه الكتلات العلمانية فلمسوا لها بكل مطالبها، وبذلك ظهرت هذه القومونات فى هيئة قوة عظمى لها نشاطها فى المجالات الحضارية بوجه عام والاقتصادية بوجه خاص. ولم يمض وقت طويل حتى امتدت حركة القومونات منذ أواخر القرن الحادى عشر إلى فرنسا وفلاندرز ثم ألمانيا وإنجلترا. وكان العصر الذهبى للحركة القومية فى غرب أوروبا بين سنتى ١١٠٠، ١٤٠٠ عندما اجتمع عدد كبير من التجار والصناع والبناء ضد الاساقفة وانتزعوا ما كان لهم من نفوذ.

ومن المهم أن نلاحظ أن النقابات كانت أكبر من مجرد تنظيمات اقتصادية استهدفت دعم أرباحها وحمايتها. لقد قامت النقابة على خدمة أعضائها ورفع مستوى الإنتاج والحرص على سلامة المقاييس والمكاييل والموازين. هذا فضلا عن رفع المستوى الحضارى ورعايته اجتماعيا. فأعضاء النقابة كانوا بمثابة أسرة واحدة، يشتركون فى إحياء الأعياد ويشاركون بعضهم بعضا فى الأفراح والأفراح. وانعكست صورة هذا النشاط على المجتمع الأوروبى فى غرب أوروبا لتضفى عليه بريقا حضاريا لامعا.

على أن هذه الخطرات التى خطتها أوروبا فى العصور الوسطى فى مجال النشاط الاقتصادى كانت ترتطم دائما بمقبات تضعف من أثرها فى عالم التجارة بوجه خاص وفى مجال الحضارة بوجه عام، ذلك أنه من المعروف أن النشاط الحضارى يتطلب دائما عدم العزلة؛ لأن العزلة قد تؤدى إلى جمود وركود. والحضارات البشرية كما سجلها التاريخ متاخلة متزايدة، متكاملة؛ لأن الإنسان هو الإنسان بإمكاناته وتطلعاته، والإنسان لا يمكن أن يعيش فى عزلة، ولا يمكن أن يرمى وحيدا دون مجتمع يعيش به يناثر ويؤثر، وقد قال أحد المفكرين: إن الذى يستغ الحياة الانفرادية إما أن يكون حيوانا دون مستوى البشر أو متألها فوق مستوى البشر.



مدينة البندقية -

رسم عام

١٥٠٠م

نشأتها، ولكنها اتفقت جميعا فى العوامل والظروف الأساسية التى أدت إلى مولدها وصحبت قيامها. من ذلك أن نشأة المدن جاءت فى جميع الحالات ثمرة امتعاش التجارة والصناعة، أما التباين بين بعضها وبعض فمرجه اختلاف الظروف السياسية المحلية أو تباين الأوضاع الاقتصادية والجغرافية، وهنا نلاحظ أن عنصر التقليد والمحاكاة كان قويا واضحا فى نشأة المدن، فستمر مدينة ناشئة دستور مدينة أخرى تكبرها عمرا، وتأخذ عنها الكثير من نظمها، مما جعل المدن تتخذ شكل مجموعات أو أسرات تضم كل مجموعة أو أسرة عددا من المدن المشابهة فى نظمها والتى استقت هذه النظم من مصدر واحد.

وكان يحيط بالمدينة سور - وربما خندق - لحمايتها، وحول هذا السور يتجمع الفقراء من اللاجئين والموزمين. وخارج البوابة الرئيسية للمدينة تقام الشانق المعمومية لعقاب المذنبين المخالفين، وحول سور المدينة الخارجى يحفر خندق يقام عليه جسر متحرك أمام البوابة وداخل هذه الأسوار تمتد الطرقات داخل المدينة، وهى غالبا ضيقة لا يزيد عرض الطريق الواحد عن عشرة أقدام فقط. ويكتنف الظلام هذه المدن فى المساء فينتشر اللصوص وقطاع الطرق.

وهكذا جاءت نشأة المدن فى غرب أوروبا فى العصور الوسطى - منذ القرن الحادى عشر - لتحدث انقلابا وتحولا فى الأوضاع الاقتصادية. وقد جعلت المدن من نفسها كيانات اقتصادية إذ عدت أسواق مركزية محلية يتمازج كيانها مع الوضع الحضارى فضلا عن الكيان الإقطاعى، وعلى هذا الوجه اتهار النظام الإقتصادى للضيعة، وبدلا من الاكتفاء الذاتى حل نظام العلاقات المتبادلة مع المدينة، فيحمل إنتاج الريف إلى أقرب مدينة ليبيع فيها، بدلا من حمله إلى مقر السيد الإقطاعى، ومن ناحية أخرى فإن هذا النشاط الإقتصادى فى المدن جاء مرتبطا بالتوسع فى استخدام النقود بدلا من تقديم الخدمات الإقطاعية. ويرجع الفضل إلى مدن الغرب الأوروبى فى ظهور وانتعاج كثير من النقود التى ما زالت شائعة فى غرب أوروبا مثل الجنيه والشلن والبس.



وإذا ذكرنا أن مجتمعنا من المجتمعات قطع شوطا بعيدا في مجال الحضارة، فلا بد وأن هذا المجتمع أقام شيئا من الاتصالات مع بعض المجتمعات الأخرى ليستفيد ويفيد، ومثل هذه المجتمعات قد تكون قريبة أو بعيدة، وفي جميع الحالات لابد من وسائل مواصلات ليكون الاتصال الحضارى بوجه عام - السياسى أو الاجتماعى أو الاقتصادى على وجه التحديد - ميسورا ومفيدا.

وعلى هذا الأساس فإننا عندما نضع حضارة أوروبا في العصور الوسطى في الميزان، فإننا لابد وأن نعمل حسابا للاتصالات التي دارت بين العالم الأوروبى من جهة وبقية أنحاء العالم المعروف والمطروق من جهة أخرى، وهنا تواجه حقيقتين: الأولى هي أن الله - عز وجل - خلق العالم متكاملًا، يكمل

بعضه بعضا بحيث لا يوجد إقليم واحد يتوافر في بيته كل ما يحتاج إليه سكانه من مستلزمات الحياة، ومن هنا كانت الاتصالات بين أنحاء العالم منذ أقدم العصور لا غنى عنها. أما الحقيقة الثانية فإن هذه الاتصالات والروابط تتطلب مستلزمات ليتمكن الإنسان من إنجاز عملية الأخذ والعطاء بأيسر الطرق وأخفها حملا.

وبالرابط بين هاتين الحقيقتين ترى أن النشاط التبادل الحضارى - وبخاصة في المجال التجارى - تطلب دائما من أية دولة أو مجتمع يباشر ذلك النشاط إعداد الطريق أو الطرق التي تربط بين الطرفين وتيسر الانتقال من جانب إلى آخر.

وفي دراستنا للتاريخ القديم نرى الرومان زمن ازدهار دولتهم وقد أقاموا شبكة ضخمة من الطرق ربطت روما وغرب أوروبا بعالم البحر المتوسط، ولكن إهمال هذه الطرق نتيجة لتدهور الإمبراطورية ثم سقوطها أثار مشكلات ضخمة أمام الغرب الأوروبى عندما أخذ يدخل مرحلة الإزاحة في صدر العصور الوسطى، ولم يجد التجار في تلك المرحلة وسيلة للسفر ونقل بضائعهم سوى استخدام الدواب والسنن، في حين اضطر صغار التجار على حمل البضائع فوق ظهورهم والنقل بها سيرا على الأقدام من مدينة إلى أخرى. أما التاجر الكبير فكان يستأجر أحيانا بعض الحراس لحراسته هو وبضائعته من قطاع الطرق.

على أن سوء أحوال الطرق البرية وصعوبة السير فيها كانتا من العوامل التي ساعدت على تفضيل الأنهار حتى عدت القوارب والقنات التهرية على درجة من الكثرة تطلبت ظهور العديد من الموانئ الداخلية على الأنهار، فضلا عن كثرة عمال النقل النهري، وبخاصة في العديد من مدن فرنسا وإيطاليا وألمانيا، وكلها بلاد تجرى فيها أنهار كبيرة عديدة. ومع ذلك فإن النقل النهري لم يسلم من علة صعب وعقبات أهمها تجمد مياه الأنهار في فصل الشتاء، وأخطار الفيضانات في فصل الربيع وقلة عمق مجارى بعض الأنهار. هذا، بالإضافة إلى أن الطرق النهري لم تسلم هي الأخرى من مكوس فُرِضت على البضائع، لا تقل عن المكوس المفروضة على الطرق البرية.

أما النقل البحرى فعلى الرغم مما اعترض مسيله هو الآخر من صعاب وعقبات وأخطار إلا أنه تفوق على النقل البرى في كثير من الحالات في أوروبا العصور الوسطى. وكانت السفن في أول الأمر تلتزم السير قرب الشاطئ وعلى مرأى منه، تجنبا للغرق وتخوفا من أن تضل الطريق في أعماق البحار، ولكن معرفة البوصلة عن طريق العرب في القرن الرابع عشر شجع الأوروبين على شن البحار بشىء من الجرأة والشجاعة والاطمئنان، ولم تسلم البحار هي الأخرى من فُرْصَة هددوا السفن ونهبوا وأدى التنافس بين القوى البحرية والرغبة في السرة والنهب إلى قيام حروب بحرية بين المدن البحرية بعضها وبعض واستماتة بعض تلك القوى بالفُرْصَة ضد خصومها.

والواقع أن النقل البحرى مع جميع هذه الأخطار والمخوقات فاق في أهميته بقية طرق ووسائل المواصلات التي عرفتها أوروبا في العصور الوسطى، لعدم وجود مكوس على البضائع والسلع التي تحملها السفن.



وفي حديثنا عن مراكز النشاط التجارى في أوروبا العصور الوسطى لابد من الإشارة إلى - نوع من المراكز أو المؤسسات مارست نشاطها اليومى أو الأسبوعى، ونعى بها الأسواق.

والواقع أن أوروبا لم تعرف في الشطر الأول من العصور الوسطى، وهو الشطر الذى أطلق عليه اسم العصور المظلمة، أسواقا كبرى في مدنها إذا استثنينا بعض الأسواق التي استمدت شهرتها وبنيت مكانتها على أسس دينية لارتباطها بالمؤسسات الدينية أو بمناسبة دينية نشد اهتمامات الناس، ومن أمثلة هذه الأسواق سوق سانت ديفيس قرب باريس، وفيما عدا هذه الأسواق ذات الصبغة الدينية لم تعرف أوروبا في القرنين التاسع والعاشر، سوى بعض الأسواق المحلية الأسبوعية التي يترده عليها الأهالى من المناطق القريبة لبيع دجاجات أو بعض البيض أو قطع من النسيج. وفي داخل هذا النطاق الضيق كانت تتم عمليات البيع والشراء على مستوى محدود.

ولكن ازدياد النشاط التجارى منذ القرن الحادى عشر تطلب ظهور أسواق كبرى - وخاصة في جنوب أوروبا وغربها - للقيام بالعمليات التجارية على نطاق كبير واسع. وأوضح مثل لهذا





الاسم
من الملوك والأمراء
وبخاصة منذ القرن
الثاني عشر، وبذلك
أخذ الصبغة يجلون
محل اليهود تدريجياً
في إجاز العديد من
جوانب النشاط
الاقتصادي، وبعبارة
أخرى استطاع التجار الإيطاليون أن
يحلوا تدريجياً محل اليهود وخاصة
بعد أن أتت الحركة الصليبية بكثير من
التشريعات والقوانين التي حدثت من
نشاط اليهود في غرب أوروبا.

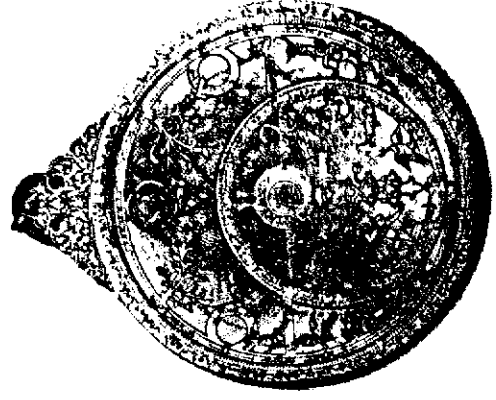
التعليم في أوروبا الوسطى

تصف التعليم في أوروبا العصور الوسطى بطابع مميز، وهو أنه لم يقتصر على المدارس وغيرها من المؤسسات المشابهة وإنما اتسعت دائرته لتشمل بيوت الأسطوانات فضلاً عن بلاط الأمراء الإقطاعيين والملوك، وقد ترتب على ذلك أن اتكشفت دائرة المتعلمين وقل الإقبال عليهم.

ومن المعروف أن العصور الوسطى ورثت النظم المتعلقة التي كانت سائدة عند الرومان، وذلك عن طريق المؤسسات الكنسية والديوية التي احتفظت بالطابع العام للتعليم القديم. هذا مع الاعتراف الثابت بأن نمو النشاط الفكري في العصور الوسطى جاء على حساب الدراسات الكلاسيكية القديمة. ومع ذلك فإننا نستطيع أن نقرر أن القفزة بين العصور القديمة والوسطى لم تكن متسعة في نظم التعليم مثلما كان الحال في المواد التي تدرس فظلت المدارس على وضعها دون تغيير كبير في نظمها وإن اختلفت وتباينت في الإطار العام، وكما أخذ التعليم الروماني عن اليونان في العصور القديمة كذلك أخذ التعليم في العصور الوسطى عن الرومان، وكان أوائل عصر الإمبراطورية الرومانية قد شهد مرحلتين من مراحل التعليم إحداهما التعليم الابتدائي وتلقن فيه القراءة والنحو والحساب والموسيقى، والأخرى هي المرحلة العليا وفيها تدرس علوم البلاغة



التوسع من الأسواق التي برزت أهمية
الشر الأخير من العصور الوسطى،
شامسي الذي دأب أمراء الإقليم على
مدى ثلاثة قرون على رعايته والعناية
به، حتى غدا بمثابة قبة النشاط
التجاري في غرب أوروبا، وحلقة
الوصل بين الجنوب والشمال، وكان
كبار التجار يحضرون قبل موعد
افتتاح السوق بعدة أيام لتنظيم
عرض بضائعهم، وفي اللدة المحددة لانتقاه وعلى
مدى أيام الافتتاح كان يعلن عن مواقيت العمل بدق
أجراس ضخمة. وكان التجار الذين يعملون في السوق
تحت حماية أمير شامسي الذي يقع السوق في دائرة
نفوذه. هذا عدا وجود مشرفين وملاحظين يعملون على
حفظ النظام، والتفصل في المنازعات التي قد تنشأ بين
التجار، ويحملون أختام السوق لحتم المعاملات التي تعقد بين البائعين والمشتريين.



إسطرلاب (عبد الكريم المصري)،
حيث ظهر للإفادة في إبحار السفن

الصبغة والمصارف

وفي نطاق تجمع كثير من الأمراء الإقطاعيين بحق سك العملة المتداولة في دائرة نفوذهم السياسي، ذخرت الأسواق الأوروبية بعدد كبير من الصبغة، يستبدلون العملات للتجار كل بالعملة التي يطلبها ويحتاج إليها في إجراء عملياته التجارية.

ويعتبر نشاط هؤلاء الصبغة بمثابة الثورة الأولى للنظام المصرفي الرأسمالي، وكان كل صراف يحتفظ عادة بصندوق متين يكون بمثابة الخزانة لقفوزه مما شجع كثيرين على إيداع أموالهم لدى الصبغة لتكون في مأمن من تطلعات الطامعين. ولم تلبث أن استخدمت في إيطاليا الحوالات والكمبيالات المالية وبذلك صار نظام الدفع بالحوالة بدلاً من القفود المعدنية، ولم يستخدم هذا الأسلوب الجديد في المعاملات داخل البلد الواحدة، وإنما انتشر ليستخدم بين المتاملين في البلدان المختلفة وهكذا أخذت وظائف ومهام البنوك تظهر تدريجياً في أواخر العصور الوسطى لتعمل محل الصبغة والصبغة. وجاء هذا التطور مصحوباً بعملية الإقراض وتقديم



تقسيم التعليم إلى ثلاث مراحل: الأولى درس فيها القراءة والكتابة ومبادئ اللاتينية مع بعض دراسات سطحية عن المسيحية وأصول الدين والكتاب المقدس، والمرحلة الثانية تشتمل على الفنون السبعة الحرة، وهي العلوم العقلية والوجودية، هذا في حين تشتمل المرحلة الثالثة على اللاهوت وكتابات آباء الكنيسة.

على أن حركة الإحياء الكارولنجية لم تلبث أن استنفدت طاقتها في أواخر القرن التاسع نتيجة للأخطار الخارجية والانحلال الداخلي، وعندئذ قامت المدارس الديرية بدور كبير في حفظ الحضارة الغربية بحيث أصبح التعليم في أوروبا تحت هيمنة رهبان الأديرة، ويبدو أن تيار النشاط العلمي في أوروبا أخذ يتحول منذ أواخر القرن التاسع، من غالبا إلى ألمانيا وذلك تحت تأثير نفوذ ملوك الأسرة السكسونية مما أدى إلى قيام نهضة في القرن العاشر عرفت باسم النهضة السكسونية، وكانت أبرز مدارس ألمانيا في ذلك الدور مدرسة دير سانت جال، أما رئاسة كل مدرسة فكان متروكا لاستقتها.

الصورة الحديثة في القرن الثالث عشر

ولم تلبث أن تزعمت المدارس الكاتدرائية النشاط الفكري في غرب أوروبا عند بداية القرن الثاني عشر. وقد أُنجبت هذه المدارس مجموعة من أئمة المفكرين. والواقع أن أوروبا شهدت نهضة فكرية عظيمة في القرن الثاني عشر ساعد عليها الانعاش الاقتصادي والاستقرار الاجتماعي والسياسي واتسع دائرة الاتصال بين أوروبا والثقافة الإسلامية عن طريق الأندلس وصقلية والشام. وعندما اتسع نطاق المعرفة في غرب أوروبا لم تتسع لها المدارس واتضح أنه لا بد من قيام معاهد جديدة تستوعب هذا النوع والقدر من المعارف، وهكذا ظهرت الجامعات التي تعتبر أعظم ما قدمت العصور الوسطى للحضارة الحديثة.

ولم تلبث أن شهدت أوروبا في القرنين الثالث عشر والرابع عشر مولد كثير من الجامعات الجديدة التي تزعمتها جامعة باريس في الغرب وجامعة نابلي في الجنوب - واحتضنت هذه الجامعات العلوم والمعارف الواسعة التي غدت تغذي الحياة الفكرية في غرب أوروبا في الأدب والفلسفة اللاهوت والقانون والطب والرياضيات والفلك وغيرها، أما اللاهوت والعلوم الدينية فإن أهميتها أخذت تضعف تدريجيا لأن الاهتمام في الجامعات انجذب نحو القانون الروماني.

وبعد، فإن دراسة التاريخ الحضاري لبلد أو إقليم أو أمة في حقبة من حقب التاريخ ليست كما يبدو للبيض أمرا سهلا ميسورا. إن مصطلح الحضارة بمعناه العلمي الكبير يعبر عن المستوى الاجتماعي والاقتصادي والثقافي، فضلا عن السياسي والحزبي للقرود أو للجماعة، ومعنى هذا أن



والخطابة والأدب والفلسفة والتشريع، وهذا النوع الأخير الذي أطلق عليه اسم مدارس البلاغة لم يلبث أن انخفضت مدارسه في القرن الخامس للميلاد حيث إن المصنر الذي أعقب غزوات البرابرة وما صحب هذه الغزوات من سقوط الإمبراطورية في غرب أوروبا، كان أحلك المصنور في تاريخ أوروبا الثقافي.

على أن أهم ما ميز ذلك المصنر هو أن التعليم أخذ يخضع خضوعا تاما للكنيسة مع اتحال السلطة العلمانية وازدياد نفوذ البرابرة في المجتمع الأوروبي، وقد رأت الكنيسة تدريس الفنون السبعة الحرة، وهي التي كانت تلقن للتلاميذ في المدارس الونثية ولكن على أسس مسيحية، وسبب ذلك هو أن الكنيسة وجدت أن هذه الفنون لا بد من استيعابها لفهم الكتاب المقدس وأحكامه.

وهكذا ظلت المدارس في الغرب - حتى سنة ٦٠٠م - تقدم تعليما ابتدائيا عاما، ولكنها لم تلبث أن تحولت إلى كليات لإعداد رجال الدين للمستغل، وما كاد يتسنى القرن السابع إلا وكان التعليم في أوروبا ينصف بمسحة دينية واضحة واستمر الوضع على ذلك حتى القرن الثاني عشر.

شارلمان والعناية بالتعليم

وفي دراسة تاريخ أوروبا في المصور الوسطى تبرز شخصية شارلمان ملك الفرنجة ومؤسس الإمبراطورية الكارولنجية وراعى كنيستها والنشاط الحضاري فيها (٧٤٢ - ٨١٤) ذلك أن الاهتمام بشتر التعليم ورفع مستواه والعناية بالمدارس، كل ذلك أسهم في بناء ما يعرف باسم «النهضة الكارولنجية» وهي النهضة التي تفخر بها أوروبا في المصور الوسطى، وقد بدأت هذه الحركة الحضارية بالعمل على رفع المستوى الحضاري لرجال الدين ووضع حد للأخطاء التي يقومون فيها، مما أضر بالدعوة للمسيحية وأسأه إلى الكنيسة وأهلها.

وفي دعمه للمؤسسات الدينية وحرصه على رفع مستوى رجال الدين، حرص شارلمان على رفع المستوى الفكري في المدارس وعلى رأسها مدرسة القصر، ذلك أن شارلمان جعل من المدارس مراكز يجتمع فيها العلماء والأدباء، وهكذا لم تعد المدارس مجرد حلقات يجتمع فيها القسيسون والرهبان لترديد آراء لا تخلو من مبالغات وأخطار، وإنما هي مراكز للعلم والتعليم ومجامع لأهل العلم والرأي، ويرتبط بذلك أن التعليم لم يقتصر على رجال الدين وحدهم وإنما شمل أيضا طلاب المعرفة من المشتغلين بالفلك والحساب والطب، وغير ذلك من العلوم. وصحبت ذلك



- Bailey (A.E.): The Art and Religion.
 - Barker (E); Clark (G), Vaucher (p): The European Inheritance.
 - Boissonnade (p): Life and work in Medieval Europ.
 - Coulton (G.G.) : Life in the Middle Ages.
 - Drapper : A History of Intellectual Development of Europe.
 - Eyre (E.) : European Civilization.
 - Haskins (C.A.) : The Rise of Universities Studies in Medical Culreire.
 - Lodge (R): The Close of The Middle Ages.
 - Painter (S.) A History of The Middle Ages.
- سعيد عاشور :
- أوروبا في العصور الوسطى، الجزء الثاني - النظم والحضارة.



دوام الحضارة وتاريخها تشكل صورة متمردة الجوانب للإنسان، وهذه الصورة ليست على حال واحدة في شتى عصور التاريخ، إذ تبدلوا بعض جوانبها مضيئة مشرقة في حلقة من حلقات التاريخ، محتمة قائمة في حقيقة أخرى، وهنا يبرز دور المؤرخ اللفظ الواسع الألق، الذي يلاحق الأحداث في بقطة وأمانة فيربط اللاحق بالسابق والبعيد بالقرب.

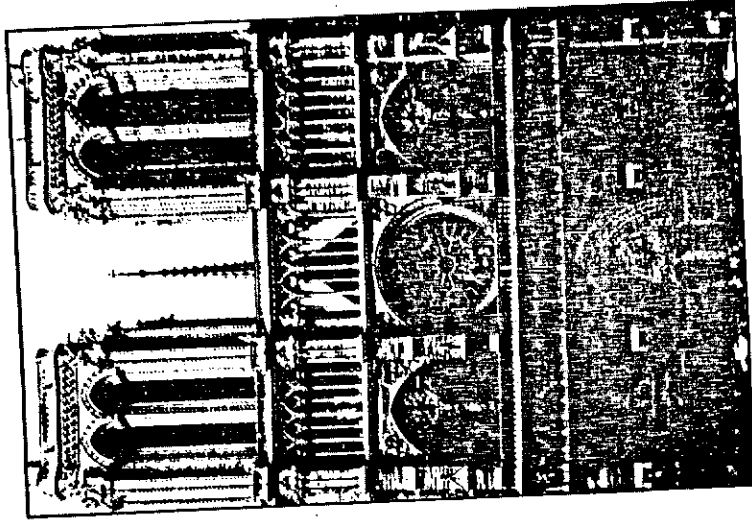
ونحن في عرضنا لحضارة أوروبا في العصور الوسطى، نبدأ بعصور في التاريخ



الرهبان والدراسة الالهوية

كاتدرائية نوردام - من أعظم كاتدرائيات العصور الوسطى

الأوربي، اتفق على تسميتها باسم «العصور الظلمة» وتوقف عند حلقة نعتيها فجر العصور الحديثة، بكل ما تحويه من منجزات تفخر بها الحضارة البشرية بوجه عام، وإن كانت لا تخلو من مثالب يسجلها لها التاريخ.





The span of time of Medieval European history lies between the fifth and fifteen century of our era. This period was mainly characterized by the religious zeal and predominance of the Roman Church over all walks of life.

The supremacy of the Pope and his satellites all over Western countries had colored the Middle Ages with a hyper religious rigidity, which left its impact on the political, social, and cultural levels in the four corners of Europe, East and West.

It is noteworthy that Medieval Europe alienated itself from the classical heritage and indulged completely in matters of dogma, and that is why historians usually depict that period as the Dark Ages. This state of darkness persisted until the middle of 15th Century when Europe began to move towards a new era known as the Renaissance.

Dr. Said Abdel Fattah Asshour



الموضوع

الصفحة

١	- مقدمة
٢	- مراكز الحضارة والمعركة
٤	- المراكز الدينية
٩	- بلاط الملوك والأمراء
١٢	- المدن
١٥	- الجامعات
١٩	- النهضة الحضارية في غرب أوروبا في العصور الوسطى
١٩	- النهضة الكارولنجية
٢٥	- التعليم والمدارس والكتبات
٢٩	- النهضة الأدبية
٣٠	- القانون والتشريع والإدارة
٣١	- شارلمان والكنيسة
٣٣	- النظام الإقطاعي
٣٨	- الحقوق والواجبات الإقطاعية
٣٩	- المجتمع الأوربي في ظل النظام الإقطاعي
٤١	- المجتمع الزراعي ونظام الضيعة
٤٥	- المدن والنشاط الاقتصادي
٤٥	- إحياء المدن وبمناها لنشاط التجارى
٥٣	- الأسواق
٥٤	- العيارد والمصارف
٥٥	- التعليم في أوروبا العصور الوسطى
٥٦	- شارلمان والعبادة بالتعليم
٥٧	- الصحوة الحديثة في القرن الثاني عشر